طيب المذاق من ثمرات الأوراق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام حجة العرب وترجمان الأدب تقي الدين أبو بكر بن حجة الحنفي منشىء دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية تغمده الله برحمته .

أما بعد حمداً لله الذي فكهنا بثمار أوراق العلماء والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التي أصلها ثابت وفرعها في السماء وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة ، وأغصانها التي دنت لهذه الأمة قطوفها المثمرة . فإني وريت بتسمية هذا الكتاب بثمار الأوراق ، علماً أن قطوفه لم تدن لغير ذوي الأذواق[أبو عثمان المازني والواثق]

فمن ذلك ما نقلته من درة الغواص لأبي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات أن أبا العباس المبرد روى أن بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازني في قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك واحتياجك إليها ، فقال أبو عثمان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة حديث وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له ،

غناء جارية ولحنها بين يدي الواثق

قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجي :

أظلوم إن مصابكم رجلاً . . . أهدى السلام تحيةً ظلمُ

فاختلف من بالحضرة في إعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم إن ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بإشخاصه قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل ؟ قلت : من مازن يا أمير المؤمنين قال أي الموازن قلت من مازن ربيع فكلمني بكلام قومي وقال باسمك لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كانت في أول الأسماءفكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجه بالمكر فقلت بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه مني ذلك ، ثم قال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجلا . . . أهدى السلام تحية ظلم

أترفع رجلا أم تنصبه فقلت الوجه النصب يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك فقلت إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم فأخذ الزيدي في معارضتي فقلت هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه ، أن الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار .

قال أبو العباس المبرد فلما عاد أبو عثمان إلى البصرة قال لي كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا ألفاً .

دواء الخمار

ونقلت من درة الغواص أيضاً أن حامد بن العباس سأل علي بن عيسى في ديوان الوزارة ما دواء الخمار وكان قد علق به فأعرض عن كلامه وقال : ما أنا وهذه المسألة ؟ فخجل حامد منه والتفت إلى قاضي القضاة أبي عمر فسأله عن ذلك فتنحنح لإصلاح صوته ثم قال : قال الله تعالى : ' وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ' ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :' استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها ' ، والأعشى وهو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية قال :

وكأس شربتُ على لذةٍ . . . وأخرى تداويتُ منها بها

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام فقال :

دع عنك لومي فأن اللومَ إغراءُ . . . وداوني بالتي كانت هي الداءُ

فأسفر حينئذ وجه حامد وقال لابن عيسى ما ضرك يا بارد أن تجيب ببعض ما أجاب به مولانا قاضي القضاة ؟ وقد استظهر في جواب المسألة بقول الله تعالى أولاً ، ثم بقول النبي صلى الله عليه وسلم ثانياً وأدى المعنى وخرج من العهدة فكان خجل ابن عيسى أكثر من خجل حامد لما ابتدأ بالمسألة ، .

إسماح عبيد الله بن الحسن القاضي

ويضارع هذه الحكاية في لين بعض القضاة المتقشفين وإذعانهم مع الزهد والتقشف للمستفتين ، ما نقلته من درة الغواص للحريري أيضاً ، قال : اجتمع قوم على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان :

إن التي ناولتني فرددتُها . . . قُتِلتْ قتلتَ فهاتها لم تُقتلِ

كلتاهما حلب العصير فعاطني . . . بزجاجةٍ أرخاهما للمفصلِفقال بعضهم امرأتي طالق ، إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي عن علة هذا الشعر كيف قال إن التي فوحد ثم قال كلتاهما فثنى فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا فيه ومضوا يتخبطون القبائل إلى بني شقرة فوجدوا عبيد الله بن الحسن يصلي فلما فرغ من صلاته قالوا له : قد جئناك في أمر دعتنا إليه الضرورة وشرحوا له الخبر وسألوه الجواب فقال مع زهده وتقشفه : إن التي ناولتني فرددتها عني بها الخمرة الممزوجة بالماء ثم قال كلتاهما حلب العصير يريد الخمرة المتحلبة من العنب والماء المتحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات انتهى قال الحريري وقد بقي في الشعر ما يحتاج إلى تفسيره أما قوله إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلت فإنه خاطب به الساقي الذي ناوله كأساً ممزوجة لأنه يقال قتلت الخمرة إذا مزجتها فأراد أن يعلمه أنه فطن لما فعله ثم ما اقتنع بذلك منه حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل يعني الصرف التي لم تمزج وقوله أرخاهما للمفصل يعني به اللسان وسمي مفصلاً فالكسر لأنه يفصل بين الحق والباطل قال الحريري وليس على ما اعتمده القاضي عبيد الله من الاستماح وخفض الجناح ما يقدح في نزاهته ويغض من نبله ونباهته والله أعلم .وفود عروة بن أذنية على هشام بن عبد الملك

ونقلت من درة الغواص أن عروة بن أذينة الشاعر وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلقي . . . أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إلهي فيعييني تطلبهُ . . . ولو قعدت أتاني لا يعنيني

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال له يا أمير المؤمنين زادك الله بسطة في العلم والجسم ولا رد وافدك خائبا والله لقد بالغت في الوعظ وأذكرتني ما أنسانيه الدهر وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وتوجه راجعا إلى الحجاز فلما كان في الليل ذكره هشام وهو في فراشه فقال رجل من قريش قال حكمة ووفد إلي فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع ذلك شاعر لا آمن ما يقول فلما أصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه وقال : لا جرم ليعلم أن الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له وأعطاه ألفي دينار وقال الحق بهذه ابن أذينة وأعطه إياها قال : فلم أدركه إلا وقد دخل بيته فقرعت الباب عليه فخرج إلي فأعطيته المال فقال أبلغ أمير المؤمنين قولي سعيت فأكديت ورجعت إلى بيتي فأتاني رزقيهدبة بن خالد على مائدة المأمون ويضارع هذه الحكاية ما حكي عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض فنظر إلّي المأمون فقال أما شبعت يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار فناولني إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك .واو عمرو

ومن لطائف ما جنيت من ثمرات الأوراق أن رجلا من الحذاق كان يكتب كتاباً وإلى جانبه آخر فانتهى في كتابه إلى اسم عمرو فكتبه بغير واو فقال يا مولانا زدها واواً للفرق بينها وبين عمر فقال : والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو بمعنى تفوضل قلت وبعضهم يرى أن الواو تزاد بعد لا النافية في الجواب إذا قيل هل فعلت كذا وكذ فيقول لا وعافاك الله .

قال أبو الفرج بن الجوزي : روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لرجل عربي أكان كذا وكذا فقال : لا أطال الله بقاءك فقال الإمام عمر رضي الله عنه : قد عُلمتم فلم تتعلموا هلا قلت : لا وعافاك الله .

وحكي عن الصاحب بن عباد أنه قال هذه الواو هنا أحسن من واوات الأصداغ في وجنات الملاح . قلت وهذه الواو أعني واو عمرو نظم فيها الشعراء كثيرا منهم أبو نواس قال يهجو أشجع السلمي .قل لمن يدعي سُليمى سفاهاً . . . لست منها ولا قلامة ظفر

إنما أنت من سليمى كواوٍ . . . ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو

وقال أبو سعيد الرسمي وأجاد :

أفي الحق أن يُعطى ثلاثون شاعراً . . . ويحرم ما دون الرضا شاعرٌ مثلي

كما سامحوا عمراً بواوٍ مزيدةٍ . . . وضويق بسم الله في ألف الوصل ،

لطائف

ومن لطائف المجنى ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قيل إنه قال يوما للقاضي الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف ، أمض إليه وتفقد أحواله فلما دخل الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فأنشد :

ما ناصحتك خبايا الود من رجلٍ . . . ما لم ينلك بمكروهٍ من العذل
محبتي فيك تأبى عن مسامحتي . . . بأن أراك على شيءٍ من الزلل
فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه وأقلع ولم يعد إلى شيء من ذلك البتة .ومن اللطائف ما نقل عن الملك الظاهر رحمه الله تعالى ، قيل إنه لما استعرض الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار ليشتريه قال له أنا حر يا مولانا السلطان وأحسن الكتابة فأحضرت له دواة فكتب يقول :
لولا الضرورةُ ما فارقتكم أبداً . . . ولا تنقلت من ناس إلى ناس
فأعجبه الاستشهاد بهذا البيت ورغبه ذلك في مشتراه ويضارعه ما حكي عن الصاحب كمال الدين ابن العديم قيل إن إنسانا رفع قصة إلى الصاحب المشار إليه فأعجبه خطها فأمسكها وقال لرافعها هذا خطك قال لا ولكن حضرت إلى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه فكتبها إلي فقال عليَّ به فلما حضر وجده مملوكه فقال هذا خطك قال نعم قال فهذه طريقتي من هو الذي أظهرك عليها فقال يا مولانا كنت إذا وقعت لأحد على قصة أخذتها منه وسألته المهلة حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة فأمره أن يكتب بين يديه ليراه فكتب :
وما تنفع الآدابُ والعلمُ والحجى . . . وصاحبُها عند الكمال يموت
فكان إعجاب الصاحب الاستشهاد أكثر من الخط ورفع منزلته بعد ذلك وأذكرني اتفاق التورية في الكمال هنا ما حكي عن القاضي فخر الدين لقمان والقاضي تاج الدين أحمد بن الأمير رحمهما الله أنهما كانا صحبةالسلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور وناداه يا طنبا فقال : له نعم ولم يأته وكانت ليلة ممطرة مظلمة فأخرج فخر الدين ابن لقمان رأسه من الخيمة فقال تقول نعم ولم أرك فقال القاضي تاج الدين :
في ليلة من جمادى ذاتِ أنديةٍ . . . لا يبصرُ الكلبُ في أرجائها الطنبا
ومن اتفاق التورية أيضاً ما كتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة ملغزا في باب إلى والده :
ما واقفٌ في المخرج . . . يذهب طوراً ويجي
لست أخاف شره . . . ما لم يكن بمرتج
فكتب إليه والده في الجواب ذهاب وإياب وخوف وشر هذا باب خصومة والسلام .
قيل إن الصاحب جمال الدين بن مطروح كتب لبعض الرؤساء رقعة إلى صديق له يشفع فيها عنده . فكتب ذلك الرئيس هذا الأمر عليَّ فيه مشقة فكتب ابن مطروح في جوابه ، لولا المشقة . فلما وقف عليها فهم الإشارة إلى قول المتنبي :
لولا المشقة ساد الناس كلهمُ . . . ألجودُ يفقر والإقدام قتَّالُ
وقضى الشغل على القور .قيل إن يوسف الصديق عليه السلام كتب على باب السجن لما خرج منه ، هذا قبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء . وقال الشاعر :
دعوة الإخاء على الرخاءِ كثيرةٌ . . . بل في الشدائد تعرفُ الإخوانِ

والله در يزيد بن المهلب من ذي مروءة وسخاء وتصديق أهل فإن كان في سجن الحجاج يعذب فدخل عليه يزيد بن الحكم وقد حل عليه نجم وكانت نجومه في كل اسبوع ستة عشر الف درهم فقال له :

أصبح في قيدك السماحة وال . . . جودُ وفضلُ السلاح والحسبُ

لا تضجرن إن تتابعت نقمٌ . . . وصارفٌ في البلاء محتسبُ

برزت سبق الجياد في مهلٍ . . . وقصرت دون سعيك العرب

فالتفت يزيد إلى مولى له وقال : أعطه نجم هذا الأسبوع ونصبر على العذاب إلى السبت الآخر .

قال الأصمعي حضرت مجلس الرشيد وفيه مسلم بن الوليد إذ دخل أبو نواس فقال له الرشيد ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس فقال يا أمير المؤمنين ولو في الخمر فقال : قاتلك الله ولو في الخمر فأنشد :يا شقيق النفسٍ من حكمٍ . . . نمتَ عن ليلي ولم أنم

حتى انتهى إلى آخرها فقال :

فتمشت في مفاصلهم . . . كتمشي البرءِ في السَّقمِ فقال أحسنت والله يا غلام أعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فأخذها وخرج قال الأصمعي : فلما خرجنا من عنده قال لي مسلم بن الوليد : ألم تر إلى الحسن بن هانىء كيف سرق شعري وأخذ به مالا وخلعا فقلت له وأي معنى سرق لك قال قوله فتمشت في مفاصلهم البيت . فقلت وأي شيء قلت فقال :

كأنَّ قلبي وشاحاها إذا خطرت . . . وقلبها في الصمت والخرس

تجري محبتها في قلب وأمقِها . . . جري السلافة في أعضاء منتكسالمعتزلة

المعتزلة طائفة من المسلمين يرون أن أفعال الخير من الله وأفعال الشر من الإنسان وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وأن الله تعالى غير مرئي يوم القيامة وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب مثل الزنا وشرب الخمر كان في منزلة بين منزلتين يعنون بذلك أنه ليس بمؤمن ولا كافر وأن إعجاز القرآن في الصرفة لا أنه في نفسه معجز ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه وأن من دخل النار لم يخرج منها وإنما سموا معتزلة لأن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه فلما ظهر الخلاف وقالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر وقال المجاعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر خرج واصل عن الفريقين وقال إن الفاسق عن الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين فطرده الحسن رضي الله تعالى عنه عن مجلسه فاعتزل عنه فقيل لأتباعه معتزلة . ولم يزل مذهب الأعتزال ينمو إلى أيام الرشيد فظهر بشر المريسي وأحضر الشافعي مكبلا في الحديد فساله بشر والسؤال ما تقول يا قرشي في القرآن ؟ فقال : إياي تعني ؟ قال : نعم قال : مخلوق فخلى عنه وأحس الشافعيرضي الله عنه بالشر وأنه الفتنة تشتد في إظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد إلى مصر ولم يقل الرشيد رحمه الله بخلق القرآن فكان الأمر بين أخذ وترك إلى أن ولي المأمون فقال بخلق القرآن وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى في الدعوة إلى ذلك ، إلى أن قوي عزمه في السنة التي مات فيها وطلب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، فأخبر في الطريق أنه توفي فبقي الإمام محبوساً بالرقة حتى بويع المعتصم فأحضر إلى بغداد وعقد له مجلس المناظرة وفيه عبد الرحمن بن إسحاق ، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام فلم يقطع في

بحث ، وسفه أقوال الجميع فأمر به فضرب بالسياط إلى أن أغمي عليه ورمي على بارية وهو مغشي عليه ثم حمل وصار إلى منزله ولم يقل بخلق القرآن ومكث في السجن ثمانية وعشرين شهراً ولم يزل يحضر الجمعة ويفتي ويحدث حتى مات المعتصم وولي الواثق فأظهر ما أظهر من المحنة وقال للامام أحمد لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه ، فاختفى الإمام أحمد لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها ، حتى مات الواثق وولي المتوكل ، فأحضره وأكرمه وأطلق عليه مالا فلم يقبله وفرقه ، وأجرى على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ولم تزل جارية إلى أن مات المتوكل ، وفي أيامه ظهرت السنة وكتب إلى الآفاق برفع ما توقع من المحنة وإظهار السنَّة وتكلم في مجلس بالسنة ولم يزالوا أعني المعتزلة في قوة إلى أيام المتوكل ولم يكن في هذه الأمة الإسلامية أهل بدعة أكثر منهم .ومن مشاهيرهم على ما ذكروا من الفضلاء والأعيان الجاحظ وواصل بن عطاء والقاضي عبد الجبار والرماني النحوي وأبو علي الفارسي وأقضى القضاة الماوردي الشافعي وهذا غريب ، ومن المعتزلة أيضاً الصاحب بن عباد وصاحب الكشاف والفراء النحوي والسيرافي وابن جني والله أعلم .

في مجلس أمير

ومن ذلك ما حكي عن بعض المطربين أنه غنى في جماعة عند بعض الأمراء :

إذا أنت أعطيت السعادة لم تُبَل . . . ولو نظرت شزراً إليك القبائل

وإن فوق الأعداء نحوك أسهماً . . . ثنتها على أعقابهن المناصل

فطرب الأمير إلى الغاية ولما زاد طربه قال لبعض مماليكه هات خلعة لهذا المغني ولم يفهم المغني ما يقوله الأمير فقام لقلة حظه إلى بين الخلاء وفي غيبته جاء المملوك بالخلعة فوجد المغني غائباً وقد حصل في المجلس عربدة وأمر الأمير بإخراج الجميع فقيل للمغني بعدما خرج : إن الأمير كان قد أمر لك بخلعة فلما كان بعد أيام حضر المغني عند ذلك الأمير وغنى فقال :إذا أنت أعطيت السعادة لم تَبُلْ . . . ولو نظرت شزراً إليك القبائل

بفتح التاء وضم الباء ، فأنكروا عليه فقال نعم لأني لما بلت في ذلك اليوم فاتتني السعادة من الأمير فأوضحوا له القصة فضحك وأعجبه ذلك وأمر له بخلعة .

حرفة الأدب

ومن المنقول أن عبد الله بن المعتز من خلفاء بني العباس مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل منغصا في مدة حياته بويع له بالخلافة وظن أن الحظ قد تنبه له فلم يتم الأمر له إلا يوما واحداً ثم قبض عليه وقتل رحمه الله تعالى على أنه ما وافق على ولاية الآمر حتى اشترط عليهم أن لا يسفكوا في واقعته دما ومحله من الأدب لا يخفى وشمعة فضله كالصبح لا تقط ولا تطفى وقد قيل :

لله درك من ملكٍ بمضيعةٍ . . . ناهيك في العلم والعلياء والحسب

ما فيه لو ولا ليتٌ تنقصُهُ . . . وإنما أدركتهُ حرفةُ الأدب

وقال ابن الساعاتي :

عفتُ القريضَ فلا أسمو له أبداً . . . حتى لقد عفتُ أن أرويه في الكتب

هجرت نظمي له لا من مهانته . . . لكنها خفيةٌ من حرفة الأدبقلت وما برح الزمان مولعا بخمول أهل الأدب وخمود نارهم . كان الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الأدب ، وكان حسن السيرة متدينا قل أن عاقب على ذنب وله المناقب الجميلة وكان أكبر إخواته ، ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان ما صفاه له الدهر ولا هناه بالملك بعد أبيه السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، لبث مدة يسيرة بدمشق المحروسة ثم حضر إليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك العزيز عثمان ، فأخرجهما من ملكه بدمشق إلى صرخد ثم جهزاه إلى سميساط وفي ذلك كتب إلى الإمام الناصر ببغداد :

مولاي إنَّ أبا بكرٍ وصاحبهُ . . . عثمان قد منعا بالسيف حق علي

فأنظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقي . . . من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الناصر الجواب : ولكن الفرق مثل الصبح

وافي كتابُك يا ابن يوسف معلناً . . . بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا علياً حقّه إذ لم يكن . . . بعد النبي له بيثرب ثائر

فاصبر فإن غداً عليه حسابهمْ . . . وابشر فناصرك الإمام الناصر

ولم ينصره الإمام الناصر بل توفي فجأة بسميساط ، رحمه الله تعالى ، ومن شعره ما ذكره ابن واصل في مفرج الكروب :

يا من يسود شعرهُ بخضابه . . . فعساه من أهل الشبيبة يحصل

ها فاختضب بسواد حظي مرةً . . . ولك الأمانُ بأنه لا ينصلقلت ومثله الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان داود صاحب الكرك ما برح مع كمال فضله منكداً مشتتا في البلاد توجه إلى بغداد ومعه فخر القضاة ابن بصاقة والشيخ شمس الدين الخرشاهي وقد استصحب جواهر نفيسة والتجأ إلى الإمام الناصر وطلب الحضور بين يديه ليشاهده في الملا فما قدر له ذلك ولا وافق الخليفة عليه حتى امتدحه بقصيدته البائية التي مطلعها :

ورانٍ ألمت بالكثيب ذوائبه . . . وجنح الدجى وحفٌ تجول غياهبه

تقهقه في تلك الربوع رعودُهُ . . . وتبكي على تلك الطلول سحائبه

وقال منها في حكاية حاله مع الخليفة :

أيحسن في شرع المعالي ودينها . . . وأنت الذي تُعزي إليه مذاهبُه

بأني أخوض الدو والدو مقفرٌ . . . سباريته مقفرةٌ وسباسبه

ويأتيك غيري من بلادٍ قريبةٍ . . . له الأمن فيها صاحبٌ لا يجانبه فيلقى دنوا منك لم ألق مثلهُ . . . ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه

وينظر في لألاء قدسك نظرةً . . . فيرجع والنورُ الإمامي صاحبه

ولو كان يعلوني بنفسٍ ورتبةٍ . . . وصدق ولاءٍ لست فيه أصاقبه

لكنت أسلي النفس مما تروُمه . . . وكنت أذود العين عما تراقبه

ولكنه مثلي ولو قلت إنني . . . أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه

الناصر يشير إلى مظفر الدين كوكبوري بن كوجك فإنه قدم إلى الديوان فطلب الحضور ، فأذن له وبرز له الخليفة وشاهد وجهه ،ولما وقفت الخليفة على هذه القصيدة أعجبته غاية الإعجاب ، وهي من النظم البديع في غاية لاتدرك ، فاستدعاه بعد شطر من الليل واجتمع به خلوة ، وما تم له ما ظفر به مظفر الدين المذكور ، وسبب ذلك أن الخليفة راعى عمه المذكور ، والذي ثبت عند أهل التاريخ أن عمه العادل ما فعل ذلك إلا حسدا له على كمال أدواته وبلاغة آدابه وقيل : إنه كتب خطا منسوبا أزرى بالحدائق المدبجة .

من طرائف التصحيف

وحكى صاحب الريحان والريعان قال حضر شاب ذكي بعض مجالس الأدب ، فقال بعضهم : ما تصحيف نصحت فختني قال تصحيف حسن فاستغرب إسراعه ، وكان بالمجلس شاعر من أهل بلنسية فاتهم الشاب وقال مختبراً له ما تصحيف بلنسية فأطرق ساعة ، ثم قال أربعة أشهر فجعل البلنسي يقول صدق ظني أنك تدعي وتنتحل ، ما تقول ، والفتى يضحك ثم قال له أشعرت أنت يا شاعر فقال له وأي نسبة بين أربعة أشهر وبين بلنسية فقال له إن لم يكن في اللفظ ، فهو في المعنى ثم قام وهو يقولذلك ، فتنبه بعض الحاضرين ونظر فإذا أربعة أشهر ثلث سنة وهو تصحيف بلنسية فخجل الشاعر المنازع ومضى إلى الشاب معترفا ومعتذراً انتهى . وهذا المعنى في بلنسية نظمه الشيخ بدر الدين الدماميني أحجية فقال :

أيا واحد العصر ما بلدةً . . . محاسنها في الورى تذكر

حجى ما يرادف تصحيفها . . . وحقك أربعةٌ أشهر .

عمارة اليمني

ومن الغريب ما نقل عن الفقيه عمارة اليمني الشاعر أنه مر بمصلوب فقال :

ومدَّ على صليب الصلب منه . . . يميناً لا تطولُ إلى الشمال

ونكس رأسه لعتاب قلبٍ . . . دعاه إلى الغواية والضلال

فلم يمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين مع الجماعة الغرماء . وكان الفقيه نجم الدين عمارة أديباً ماهراً فقيهاً شافعي المذهب من أهل السنة قدم في دولة الفاطميين إلى الديار المصرية وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن زريك فكان عنده في أكرم محل وأعز جانب واتحد به على ما كان بينهما من الاختلاف في العقيدة ثم رحل إلىاليمن وعاد إلى مصر وأقام بها إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورثى أهل القصر بقصيدته التي أولها :

رميت يا دهر كفَّ المجد بالشللِ . . . ورعته بعد حسن الحلي بالعطلِ

ومنها :

قدمت مصر فأولتني خلائقها . . . من المكارم ما أربى على الأمل

قومٌ عرفتُ بهم كسب الألوف ومن . . . تمامها أنها جاءت ولم أسل

يا لائمي في هوى أبناءِ فاطمةٍ . . . لك الملامةُ إن قصرت في عذل

بالله زر ساحة القصرين وابكِ معي . . . عليهما لا على صفين والجمل

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلةً . . . بنسلٍ آلِ أمير المؤمنين علي

وهي طويلة في غاية الحسن فلما بلغت السلطان صلاح الدين تغير عليه وقيل إنه استفتى عليه في قوله من قصيدته الميمية :

وكان مبدأ هذا الأمر من رجلٍ . . . سعى فأصبح يُدعى سيدَ الأمم فأفتى الفقهاء بقتله وقالوا إن هذا الكلام رأي الفلاسفة في النبوات وأنها بالتكسب وهي إحدى المسائل التي كفروا بها والصحيح أنه يجتبي من رسله من يشاء ولم يكن أحد من الأنبياء عنده شعور بأنه يكون فيما بعد نبيا والذي يظهر أن هذا مفتعل على الفقيه عمارة نظمه بعض أعدائه على لسانه ودسه في تلك القصيدة وما يبعد أن القاضي الفاضل رحمه الله كان له ميل إلى هلاكه لأنه لما استشاره السلطان صلاح الدين في ضربه قال الكلب يسكت ثم ينبح قال فيسجن قال : يرجى له الخلاص قال فيقتل قالكذا الملوك إذا أرادوا شيئاً فعلوه ونهض فأمر بصلبه مع الغرماء فلما أمسكوه مروا به على باب الفاضل فلما رآه مقبلا قام ودخل إلى بيته وأغلق الباب فقال الفقيه عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب . . . إن الخلاص من العجب

من طرائف الأدب

نكتة أدبية قال ابن سناء الملك من أبيات :

صلبني وهذا الحسن باقٍ فربما . . . يُعزَّل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة وكتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل ، وما قلت هذه الغاية إلا وتعلمني أنها البداية ولا قلت هذا البيت آية القصيدة ، إلا وتلي ما بعده وما نريهم من آية أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ولا عيب في هذه المحاسن إلا قصور الأفهام وتقصير الأنام وإلا فقد لهج الناس بما تحتها ودنوا ما دونها والقصيدة فائقة في حسنها بديعة في فنها ولكن بيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظه الكنس غير لائقة بمكانها .فأجاب ابن سناء الملك قائلا قد علم المملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذي أراد أن يكنسه من القصيدة وقد كان المملوك مشغوفاً بهذا البيت مستحلياً له معجبا به معتقداً أن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز حيث يقول :

وقوامي مثل القناة من الخط . . . وخدي من لحيتي مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر وما مال المملوك إلا إلى طريق من ميله إليه طبعه ولا سار إلا إلى من دله عليه سمعه ورأى المملوك أبا عبادة قد قال :

ويا عاذلي في عبرةٍ قد سفحتها . . . لينٍ وأخرى قبلها للتحببِ

تحاول مني شيمةً غير شيمتي . . . وتطلبُ مني مذهباً غير مذهبي

وقال :

وما زارني إلاَّ ولهت صبابةً . . . إليه وإلا قلت أهلاً ومرحبا

فعلم المملوك ، أن هذه طريقة لا تسلك ، وعقيلة لا تملك ، وغاية لا ندرك ، ووجد المملوك أبا تمام قد قال

:

سلم على الربع من سلمى بذي سلم

ووجدته أيضاً قد قال :

خشنت عليه أخت بني خشين

فاشمأز من هذا اللفظ طبعه ، واقشعر منه فهمه ، ونبا عنه ذوقه ، وكان سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال :وقفت بالربع أشكو فقد مشبهه . . . حى بكت بدموعي أعين الزهر

لو لم أعرها دموع العين تفسحها . . . لرحمتي لا ستعارتها من المطر

وقد قال :

قدك غصنٌ لا شوك فيه كما . . . وجهك شمس نهارهُ جسدك

فوجد المملوك طبعه إلى هذا المر مائلا وخاطره في بعض الأحيان عليه سائلا فسح عن هذا الأسلوب وغلب على خاطره مع علمه أنه المغلوب وحبك الشيء يعمي ويصم فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة في تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز قالها وحمل أثقالها وهي زلة تغتفر في جنب حسناته وأما المملوك فهي عورة ظهرت في أبياته فأجابه الفاضل بقوله ولا حجة فيما احتجه بابن المعتز عن الكنس في بيته فإنه غير معصوم من الغلط ولا يقلد إلا في الصواب فقط وقد علم ما ذكره ابن رشيق في العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ومن بارده وغثة مالا تلبس عليه الثياب وقد تعصب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه حظه وأما البحتري فأعطاه أكثر من حقه وقال :

ولو كان هذا موضع العتبِ لا شتفي . . . فؤادي ولكن للعتاب مواضع

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي لما وقف على هذا الفصل رأيت ابن سناء الملك استعمل هذه اللفظة في غير هذا الموضوع ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى فقال :وخلصني من يدي عشقه . . . ظلامٌ على خده حندسه

كنست فؤادي من حبه . . . ولحيته كانت المكنسه

قلت ما برح الشيخ صلاح الدين غفر الله له يذوق تقليداً كقوله عن ابن سناء الملك لما استعمل في هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكنسة ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا أرعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى أما نقد الفاضل على ابن سناء الملك بوضع المكنسة على وجهة معشوقته التي ليس للعذار بوجنتها شعور فنقد صحيح وأما وضع مكنسة اللحية على وجنة من طلعت لحيته وكان جائراً على عاشقه وسبكها هنا في قالب الهجو فهو نوع من المرقص والمطرب ولو وقف الفاضل على هذه المكنسة لأعدها لأبياته .

ضر قائم وقله حظ

ومن لطائف المنقول ما حكي عن الشيخ مجد الدين ابن دقيق والعيد والد قاضي القضاة تقي الدين تغمدهما الله برحمته ورضوانه وهو أن الشيخ مجد الدين المشار إليه كان كثير الإحسان إلى أصحابه يسعى لهم على

قدر استحقاقهم فيمن يصلح للحكم وفيمن يصلح للعدالة فجاءه بعض طلبتهوشكا إليه رقة الحال وكثرة الضرورة فقال له أكتب قصتك وأنا أتحدث مع الوالد فكتب ذلك الطالب المملوك فلان يقبل الأرض وينهي أنه فقير ومظرور بالظاء القائمة وقليل الحض بالضاد وناولها للشيخ فلما قرأها تبسم وقال يا فقير سبحان الله ضرك قائم وحظك ساقط .

عاشق الورد

قيل : إنه رفع إلى المأمون أن حائكاً يعمل السنة كلها لا يتعطل في عيد ولا جمعة ، فإذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عال :

طاب الزمان وجاء الورد فاصطحبوا . . . ما دام للورد أزهارٌ وأنوار

فإذا شرب مع ندمائه على الورد غنى :

إشرب على الورد من حمراءَ صافيةٍ . . . شهراً وعشراً وخمساً بعدها عددا

ولا يزالون في صبوح وغبوق ما بقيت وردة فإنه انقضى الورد عاد إلى عمله وغرد بصوت عال :

فإن يبقني ربيِّ إلى الرود أصطبح . . . وإن مت والهفي على الورد والخمر

سألت إله العرش جلَّ جلاله . . . يواصل قلبي في غبوقٍ إلى الحشرفقال المأمون لقد نظر هذا الرجل إلى الورد بعين جليلة فينبغي أن نعينه على هذه المروءة فأمر أن يدفع له في كل سنة عشر آلاف درهم في زمن الورد .

ومن اللطائف ما حكي عن مجير الدين الخياط الدمشقي قيل : إنه كان يهوى غلاماً من أولاد الجند فشرب مجير الدين في بعض الليالي وسكر فوقع في الطريق فمر الغلام عليه بشمعة وهو راكب فرآه في الليل مطروحا على الطريق فوقع عليه بالشمعة ونزل فأقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على وجهه ففتح عينيه فرأى محبوبه على رأسه فاستيقظ وأنشد :

يا محرقاً بالنار وجه محبِّه . . . مهلاً فإن مدامعي تطفيه

أحرق بها جسدي وكل جوارحي . . . وأحذر على قلبي فإنك فيه

ومن اللطائف ما حكاه الأصمعي قال : مررت بكناس يكنس كنيفاً وهو يغني ويقول :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا . . . ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فقلت له أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد الكُنُف فمعلوم . قال الأصمعي : وكنت حديث السن فأردت العبث به فأعرض عني مليا ثم أقبل علي وأنشد :

وأكرمُ نفسي إنني إن أهنتها . . . وحقك لم تُكرمْ على أحدٍ بعدي

فقلت وأي كرامة حصلت لها منك وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به . فقال : بل لا والله من الهوان ما هو أكثر وأعظم مما أنا فيه ، فقلت له : وما هو فقال الحاجة إليك وإلى أمثالك ، فقال : فانصرفت وأنا أخزي الناسذكرت بقول الكناس غريم الأصمعي ما يضارع ذلك أعني قوله :

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا . . . ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

قيل : إنه كان لأبي حنيفة رضي الله عنه جار إسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فإذا جنه الليل ، رجع إلى

منزله بلحم وسمك فيطبخ اللحم ويشوي السمك فإذا دب فيه السكر أنشد :
أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا . . . ليوم كريهةٍ وسداد ثغر ولا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه السكر وينام ، وكان الإمام أبو حنيفة يصلي الليل كله ، ويسمع حديثه وإنشاده ففقد صوته بعض الليالي فسأل عنه فقيل : أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى الإمام الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير فقال أئذنوا له واقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط فلما دخل على الأمير أجلسه مكانه وقال ما حاجة الإمام فقال لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر بتخليته فقال نعم وكل من أخذ تلك الليل إلى يومنا هذا ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب الإمام وتبعه جاره الإسكاف فلما وصل إلى داره قال له الإمام أبو حنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعايته ولله عليَّ أن لا أشرب بعدها خمرا فتاب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه .وذكرت بهذا الاقتباس الذي خلب القلوب هنا بحسن موقعه اقتباسا خلب قلوب الناس لعظم موقعه وما ذاك إلا أن الحاكم الفاطمي على ما ذكر ، لما بني المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح قيل إنه فسد حاله في آخر أمره وادعى الألوهية وكتب بسم الله الرحمن الرحيم وجمع الناس إلى الإيمان به وبذل لهم نفائس وكان ذلك في فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفعه ولا يندفع فقرأ في ذلك الوقت بعض القراء وكان حسن الصوت يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز . فاضطربت الأمة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة في حكاية الحال ، حتى كأن الله أنزلها تكذيباً للحاكم فيما أدعاه وسقط الحاكم من فوق سريره خوفا من أن يقتل وولى هارباً ، وأخذ في استجلاب ذلك الرجل إلى أن اطمأن إليه فجهزه رسولا إلى بعض الجزائر وأمر بإغراقه ورؤي بعد ذلك في المنام فقيل له ما وجدت فقال ما قصر معي صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة ومن الاقتباسات التي وقعت للمتأخرين في أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال ما سمعت وشهدت حكاية حالة بالجامع الأموي وما ذاك إلا أن قاضيالقضاة علاء الدين أبا البقاء الشافعي ، رحمه الله تعالى ، كان قد عزل من وظيفة قضاء القضاة بدمشق المحروسة فعاد إلى وظيفته والبس التشريف من قلعة دمشق وحضر إلى الجامع على العادة ، ومعه أخوه قاضي القضاة بدر الدين الشافعي بالديار المصرية فاستفتح الشيخ معين الدين الضرير المقرىء وقرأ قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا إلى آخر الآية فحصل بالجامع الأموي ترنمٌ صفق له النسر بجناحية .

وروى المرزبان بإسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له يمتار من وادي القرى فمر بجبلي نعمان فقالوا إن هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلهما قال فأي ريح تهب من نحو أرضها إلى هذا المكان فقالوا الصبا فقال والله لا أبرح حتى تهب الصبا فأقام في ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا له ولهم ثم أتوا فحبسهم حتى هبت الصبا ورحل معهم وفي ذلك يقول :

أيا جبلي نعمان بالله خليا . . . نسيم الصبا يخلص إلي نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارةٌ . . . على كبدٍ لم يبق إلا صميمها

فإن الصبا ريحٌ إذا ما تنسمت . . . على نفس مهمومٍ تجلت همومها

وضمن البيت الأول الشيخ صفي الدين الحلي في مليح اسمه نعمان

أقول وقد عانقت نعمان ليلةً . . . بنور محياه أنارَ أديمها

وقد أرسلت إلياه نحوي فسوةً . . . يروح كرب المستهام شميمها

أيا جبلي نعمان بالله خليا . . . نسيم الصبا يخلص إلي نسيمها وكان لابن الجوزي رحمه الله تعالى زوجة أسمها نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منه على التلف فحضرت في بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها فاتفق أنه جاءته امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عند فأنشد في الحال :أيا جبلي نعمان بالله خليا . . . نسيم الصبا يخلصْ إلي نسيمها

قلت وعلى ذكر نعمان والكناية عنه فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر الطبيب الأربلي في كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس وهو أن بعض الرؤساء قال : أخبرني بعض الأصحاب قال : كنت يوما جالسا عند صديق لي بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديق له وفيه تشوق وفيه عتاب بهذا البيت : تناسيتم العهد القديم كأننا . . . على جبلي نعمان لن نتجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتز له فقلت بالله عليك أسألك شيئاً لا تخفه قال سل قلت هذه معشوقتك صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيها من وراء الدار فقال أي والله ومن أين علمت ذلك قلت من البيت لأنها ذكرتك فيه بجبلي نعمان وهما كناية عند الظرفاء من أهل الأدب عن جانبي الكفل للمليح والمليحة فقال والله ما أدركت ما أدركت ونقلت من اللطائف المسبوكة في قالب التورية أن بعض الكتاب دخل يسلم على بعض فضلاء النحاة وكان من أصحابه فوجده قائما يلوط بأحد الغلمان الملاح من طلبته في قراءة النحو ولم يره الغلام فجلس النحوي في مكانه وبقي الغلام واقفا مبهوتا فقال الكاتب للنحوي مالي أرى هذا الغلام واقفا فقال النحوي وقع عليه الفعل فانتصب .

ومثل ذلك قصة ابن عنين مع الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل لما كتب إليه في مرضه :

أنظر إلي بعين مولى لم يزل . . . يولي الندى وتلافَ قبل تلافي

أنا كالذي احتاج ما يحتاجه . . . فأغنم دعائي والثناء الوافي

فحضر إليه المعظم بنفسه ومعه ثلثمائة دينار وقال له أنت الذي وأنا الغائد وهذه الصلةومثله ما حكي أن بعض الفقراء وقف على باب نحوي فقرعه فقال النحوي من بالباب فقال سائل فقال ينصرف فقال اسمي أحمد فقال النحوي لغلامه أعط سيبويه كسرة .

ومثله قول ابن عنين :

شكا ابن المؤبد من عزله . . . وذم الزمان وأبدى السفه

فقلت له :

لا تذم الزمان . . . فتظلم أيامه المنصفه

ولا تعجبن إذا ما صرفت . . . فلا عدل فيك ولا معرفه

وألطف منه قول القائل :

ورقيعٍ أراد أن يعرف النحو . . . بزي العيار لا المستفتي
قال لي لست تعرف النحو مثلي . . . قلت سلني عنه أجب في الوقت
قال ما المبتدا وما الخبر المجرور . . . أوجز فقلت ذقنك في استي
وأحسن منه وأبدع قول الشيخ زين الدين بن الوردي :
وشادنٍ يسالني . . . ما المبتدا والخبر
مثلهما لي مسرعاً . . . فقلت أنت القمر
ومن النكت المسبوكة في قالب التورية أيضا ما قيل أن شهاب الدين القوصي حضر عند الملك الأشرف وقد دخل إليه سعد الدين الحكيم فقال الملك الأشرف ما تقول في سعد الدين الحكيم لشهاب الدين فقال يا مولانا السلطان إذا كان بين يديك فهو سعد الدين ، وعلى السماط سعد بلع ، وفي الخباء عن الضيوف سعد الأخبية ، وعند مرض المسلمين سعد الذابح قال فضحك الملك الأشرف واستسحن اتفاقه البديعي وابدع منه في هذا الباب ما نقل عن الشيخ نظام الدين قيس إنه لقي الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور فسأله الصاحب عن حاله فقال : حالٌ متى علم ابنُ منصورٍ بها . . . جاء الزمان إليّ منها تائبا
قلت إن نظام الدين أحق من أبي الطيب بهذا البيت ومن النكت بالتورية أيضاً قيل إن بعض الماجنات أرادت السفر فلقيها بعض المجان فقال لها خذي معك هذا الكتاب وأشار إلى ذكره فقالت له على القور إن لم ألق أمك أعطه أختك ومثل ذلك أن الشيخ بدر الدين بن الصاحب لقي شخصاً ومعه مليحان فقال ما اسمك فقال عبد الواحد فقال أخرج منهما فأنا عبد الاثنين . ومثله أن ابن نقيلة المغني مرض وأشرف على الموت فجاء إليه ابن الصاحب يعوده فقال له كيف حال النقيلية فقال ما أخوفني أن تصير مدفونة مثله أن بعض المجان رأى امرأة حاملة سرموجة فقال له متى زوجك حملك تركاشه فقالت له رح لأرميك منه بفردة ومثله أن بعضهم رأى امرأة حاملة فردة سقمان لتخيطه فقال لها : أعتقي هذا الغراب . فقالت له رح لأسيبه ينقرك . ومثله أن الشيخ بد الدين المذكور أولا حضر إلى مجلس قاضي القضاة ناصر الدين المالكي فذكروا محاسن القاضي محب الدين ناظر الجيشين وحسن أخلاقه ثم ذكروا محاسن الشعر فأنشده قاضي القضاة :
فكم أبٍ قد علا بابنٍ ذوي شرفٍ . . . كما علت برسول الله عدنان
فكل من الجماعة أثنى على هذا البيت فقال الشيخ بد الدين ابن الصاحب والقاضي محب الدين يحب هذا البيت فطربوا له . ومما وقع له بذلك المجلس أنه لما قدم المشروب على العادة كان قد تولى السقيا مملوك له اسمه بكتمر فلما شرب الشيخ بدر الدين قال له قاضي القضاة ما تقول يا شيخ قال رأيت ملك العلماء بكتمر الساقي ومثله أن الصاحب بن سكر أراد قارئا يقرأ بالمدرسة التي أنشأها بالقاهرة فاختاروا له رجلين أحدهما اسمه زيادة والآخر مرتضى فوقع في ظهر القصة مرتضى زيادة وزيادة مرتضى . ومثله أن أبا الحسين الخراز جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فأذن للناس في الدخول ولم يأذن له فكتب في ورقة :
الناس كلهم كالأير قد دخلوا . . . والعبد مثل الخصي ملقى على الباب
فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه أخرج إلى الباب وقل يا خصي أدخل فدخل أبو الحسين وهو يقول هذا دليل على السعة ومن التنكيت والحشمة بالتورية أن الشيخ صلاح الدين الصفدي قال أخبرني الشيخ فتح

الدين بن سيد الناس بالقاهرة قال قلت للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد أن بهاء الدين بن النحاس يرجح أبا تمام على المتنبي فما رأيك أنت فسكت فقلت ثانيا فقال كنت كذا في الأول قال الشيخ صلاح الدين ولما حكيت للشيخ جمال الدين بن نباتة قال أنا على رأي ابن دقيق العيد قال الشيخ صلاح الدين وممن رأيته يعظم أبا تمام شيخنا أثير الدين ويرجحه على المتنبي فعذلناه في ذلك فقال أنا ما أسمع عذلا في حبيب .

ونقلت من خط الصاحب فخر الدين ابن الكانس رحمه الله قال سافرت سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين ابن قزوينية إلى دمشق المحروسة وقد ولي نظر مملكتها ووالدي رحمه الله افتاءها وكان له دوادار يسمى صبيحاً وهو من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنام وكان لطيفا كثير النوادر فاتفق أن جمال الدين بن الرهاوي موقع دست الوزارة ركب يوما فتقنطر به الفرس وداس على رأس أحليله فحمل إلى داره وأقام أياما إلى أن عوفي وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس فقال الصاحب ما سبب تأخرك فقال تقنطر بي الفرس وداس رأس احليلي فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء فقال له صيح : الحمد لله على سلامة الخصي فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوي وانصرف .

وحكي أن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما فوجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فساله عن غيظه فقال هذا العبد النحس فعل بالخويدم الصغير فقال بل مولانا السيد الكبير فخجل منه وأبرزها في قالب المجون .

وأنشد ابن الجوزي في بعض مجالس وعظه :

أصبحت ألطف من مر النسيم على . . . زهر الرياض يكادُ الوهم يؤلمني

من كل معنىً لطيفٍ أجتلي قدحاً . . . وكل ناطقةٍ في الكون تطربني

فقام إليه إنسان فقال يا سيدي الناطق حمارٌ فقال أقول له يا حمار اسكتبديهة أبي العلاء

نقل الحافظ اليعمري أن أبا نصر المنازي واسمه أحمد بن يوسف دخل على أبي العلاء المعري في جماعة من أهل الأدب فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر فأنشده أبو نصر :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ . . . سقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا . . . حنو الوالدات على القطيم

وأرشفنا على ظمأٍ زلالاً . . . ألذَّ من المدامة للنديم

يصدُّ الشمس أني واجهتنا . . . فيحجبها ويأذن للنسيم

يروع حصاه حالية العذارى . . . فنلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء أنت أشعر من بالشام .

ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد فدخل المنازي عليه في جماعة من أهل الأدب ببغداد وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً فأنشد كل واحد ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنازي فأنشد :

لقد عرض الحمام لنا بسجعٍ . . . إذا أصغى له ركبٌ تلاحى

شجى قلب الخلي فقيل غنى . . . وبرح بالشجيِّ فقيل ناحا

وكم للشوق في أحشاء صبٍّ . . . إذا اندملت أجدَّ لها جراحا

ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى . . . وسكران الفؤاد وإن تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاةً . . . كأحداق المها مرضى صحاحا
فقال أبو العلاء ومن بالعراق عطفا على قوله من بالشام .نادرة لطيفة
حكي أن السراج الوراق جهز غلاما له يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به لفتا فأحضره وقلبه على اللفت فوجده زيتا حاراً فأنكر على الغلام ذلك فأخذه وجاء إلى البياع وقال له لم تفعل مثل هذا فقال له والله يا سيدي مالي ذنب لأنه قال أعطني زيتا للسراج .
إسناد ضعيف
اجتمع محدث ونصراني في سفينة فصب النصراني من ركوة كانت معه في مشربة وشرب وصب وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصراني جعلت فداك هذا خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامي من خمار يهودي وحلف أنها خمر عتيق فشربها بالعجلة وقال للنصراني أنت أحمق نحن أصحاب الحديث نروي عن الصحابة والتابعين أفنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودي والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد .الشعراء يتبعهم الغاوون
نظر طفيلي إلى قوم ذاهبين فلم يشك أنهم في دعوة ذاهبون إلى وليمة فقام وتبعهم فإذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما أنشد كل واحد شعره وأخذ جائزته لم يبق إلى الطفيلي وهو جالس ساكت فقال له أنشد شعرك فقال لست بشاعر قيل فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى في حقهم ' والشعراء يتبعهم الغاوون ' فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء .
أبو حنيفة والمريض البخيل
وحكى الهيثم بن عدي قال ماشيت الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلا وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فتمطى المريض وقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج .ملاحظة طبيب
ومن غرائب المنقول أن يحيى بن إسحاق كان طبيباً حاذقاً صانعاً بيده وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزروه نقل عنه من حذقه أنه أتى إليه بدوي على حمار وهو يصيح على باب داره أدركوني وكلموا الوزير بخبري فلما دخل عليه قال ما بالك قال ورم باحليلي منعني النوم منذ أيام وأنا في الموت فقال له اكشف عنه فأذا هو وارم فقال لرجل جاء معه أحضر لي حجراً أملس فطلبه فوجده فقال له ضع عليه الأحليل فلما تمكن أحليل الرجل من الحجر جمع الوزير يده وضرب الأحليل ضربة غشي على الرجل منها ثم اندفع الصديد يجري فلما انقطع جريان الصديد فتح الرجل عينيه ثم بال في أثر ذلك فقال له أذهب فقد برأت علتك وأنت رجل عابث واقعت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها ولجت في عين الاحليل فورم لها وقد خرجت في الصديد فقال له الرجل قد فعلت ذلك وهذا يدل على الحذق المفرط .ذكاء ابن جميع

ومثله أن ابن جميع الاسرائيلي كان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الأمر . ومما نقل عنه في حذقه أنه كان جالسا في دكان وقد مرت عليه جنازة فملا نظر إليها صاح يا أهل الميت إن صاحبك لم يمت ولا يحل أن تدفنوه حيا فقال بعضهم لبعض هذا الذي يقوله لا يضرنا ويتعين أن فمتحنه فإن كان حيا فهو المراد وإن لم يكن حيا فما يغير علينا شيء فاستدعوه إليهم وقالوا بين لنا ما قلت فأمرهم بالعود إلى البيت وأن ينزعوا أكفانه فلما فرغوا من ذلك أدخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه نطله فظهر فيه أدنى حسن وتحرك حركة خفيفة فقال أبشروا بعافيته ثم تمم علاجه إلى أن أفاق وصحا فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الحذق والعلم ثم إنه سئل بعد ذلك ومن أين علمت أن في ذلك الميت بقية روح وهو في الأكفان محمود فقال نظرت إلى قديمه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى منبسة فحدست أنه حي وكان حدسي صائبا .نوادر لطيفة قيل إن المنصور ابن أبي عامر الأندلسي كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسر إلى الغزاة إلا من الجامع فاتفق أنه في بعض حركاته للغزاة توجه إلى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة والعلماء وارباب الدولة فرفع حامل اللواء اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليه الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقال رجل أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة وغنيمة سارة فقد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فأستحسن المنصور ذلك واستبشر به وكانت العزوة من أبرك الغزوات . ومثل هذا لما خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده فأخذه بعض الأولياء فمسحه وقال :

فألقت عصاها واستقر بها النوى . . . كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فضحك المنصور وقال لم ما قلت فألقى موسى عصاه فقال يا أمير المؤمنين العبد تكلم بما عنده من إشارات المتأدبين وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين فكان الأمر على ما ذكره وأخذ الحصن وحصل الظفر بأبي يزيد .

حكي أن الشيخ شهاب الدين ابن محمود قال عدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في دمشق بالمدرسة النجيبية سنة إحدى وثمانين وستمائة فأنشدني لبعض أهل الأدب في نقيب الأشراف بالمدائن رثاء خلب قلبي وهو يقول :

قد قلت للرجل المولى غسله . . . هلا أطاع وكنت من نصائحه

جنبه ماءك ثم غسله بما . . . أذرت عيون المجد عند بكائه

وأزل أفاويه الحنوط ونحها . . . عنه وحنطه بطيب ثنائه

ومر الملائكة الكرام بنقله . . . شرفاً ألست تراهمُ بإزائهلا توهِ أعناقَ الرجال بحمله . . . يكفي الذي حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوقع في نفسي أنه أحق الناس بهذا الرثاء وأنه نعى نفسه فمات في ذلك الأسبوع برد الله مضجعه .

نكتة لطيفة قيل إنه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله من الشام إلى بغداد وجلس على

عادته أخذ يقلل أحوال الناس ويهضم جانب الرجال ويقول إنه ما بقي من يجاري وقد خلت الدنيا وأنشد :

ما في الصحاب أخو وجدٍ نطارحه . . . حديث نجدٍ ولا خلٌّ نجاريه فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوتة فقال يا شيخ كم تنتقص بالقوم والله إن فيهم من لم يرض أن يجاريك وقصاراك أن تفهم ما يقول هلا قلت :

ما في الصحاب وقد سارت حمولهم . . . إلا محبٌّ له في الركب محبوب

كأنما يوسفٌ في كلِّ راحلةٍ . . . والحيّ في كلِّ بيتٍ منه يعقوب

فصاح السهروردي ونزل عن الكرسي وطلب الشاب فلم يجده .ابن المطرزي والشريف الرضي

عن ابن المطرزي الشاعر أنه مر وفي رجله نعل بالية بالشريف الرضي فأمر بإحضاره وقال أنشدني أبياتك التي تقول فيها :

إذا لم تبلغني إليك ركائبي . . . فلا وردت ماءً ولا رعت العشبا

فأنشده إياها فلما انتهى إلى هذا البيت أشار إلى نعله البالية وقال هذه كانت ركائبك فأطرق ابن المطرزي ساعة ثم قال لما عادت هبات مولانا الشريف إلى مثل قوله :

وخذ النوم من جفوني فإني . . . قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبي إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل فخجل الشريف وقابله بما يليق من الإكرام . . .

ومن غرائب المنقول

ما حكى إسحق النديم عن أبيه قال : استأذن الرشيد أن يهب لي يوما من الجمعة لأنبعث فيه بجواري وإخواني فأذن لي في يوم السبت وقال هو يوم أستثقله فاله فيه بما شئت قال : فاقمتيوم السبت بمنزلي وتقدمت لإصلاح طعامي وشرابي ، وأمرت بوابي بإغلاق الباب وأن لا يأذن لأحد من الناس ، فبينما أنا في مجلسي ، والحرم قد حففن بي إذا أنا بشيخ عليه هيبة وجمال وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مفعمة بالفضة وروائح الطيب تفوح منه فداخلني لدخوله علي مع ما قدمت من الوصية غيظ عظيم ، وهممت بطرد بوابي ومن يحجبني لأجله ، فسلم علّي أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ في حديث الناس وأيام العرب وإشعارها حتى سكن ما بي فظننت أن غلماني قصدوا مسرتي بإدخاله علي لظرفه وأدبه فقلت له هل في الطعام فقال لا حاجة لي به فقلت هل لك في الشراب فقال ذاك إليك قال فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا إسحق هل لك في أن تغني ونسمع منك ما فقت به على العام والخاص ، قال فغاظني منه ذلك ثم سهلت الأمر على نفسي ، أخذت العود وضربت وغنيت فقال : أحسنت يا إبراهيم فازددت غيظا وقلت ما رضي بما فعله حتى سماني باسمي ولم يحسن مخاطبتي ، ثم قال : هل لك في أن تزيدنا ونكافئك فقال فتذممت وأخذت العود فغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قياما تاما فطرب وقال أحسنت يا سيدي ثم قال أتأذن لعبدك في الغناء فقلت شانك . واستضعفت عقله كيف سولت له نفسه أن يغني بحضرتي بعد ما سمعه مني فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلته ينطق بلسان عربي ، واندفع يغني :

ولي كبد مقروحة من يبيعني . . . بها كبدا ليست بذات قروح

أباها علي الناس لا يشترونها ذا علة بصحيحفقال إبراهيم : فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب ، وكل من في البيت يجيبه ويغني معه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة ، لما خلالط قلبي : ثم غنى : ألا يا حمامات اللوى . . . الأبيات فكاد يذهب عقلي طربا ، ثم قال : يا إبراهيم خذ هذا الغناء وانح نحوه في غنائك ، وعلمه جواريك . فسألته أن يعيد ما غناه ، فقال : لم تحتج إلة شيء من ذلك . ثم غاب من بين عيني ، فارتعت وقمت إلى السيف فجردته ، ثم غدوت نحو الأبواب ، وقلت للجواري : أي شيء سمعتن ؟ فقلن سمعنا أحسن غناء . فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا ، فسألت البواب عن الشيخ فقال : أي شيخ ؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد من الناس . فرجعت لأتأمل أمري ، فإذا به قد هتف من بعض جوانب الدار . فقال : لا بأس عليك أبا إسحاق ، أنا إبليس ، وقد اخترت منادمتك في هذا اليوم فلا ترع .

فركبت على الفور إلى الرشيد ، وأتحفته بهذه الطرفة . فقال : ويحك اعتبر الأصوات التي أخذتها العود ، فإذا هي راسخة في صدري ، فطرب الرشيد ، وأمري لي بصلة . وقال : ليته أمتعنا يوما واحدا كما أمتعك .

قال أبو الفرج الأصبهاني : هكذا حدثنا ابن أبي الأزهر وما أدري ما أقول فيه ؟إبليس وابن دريد

ويضارع هذا ما أورد ابن خلكان في ترجمة ابن دريد : قال أبو بكر محمد ابن الحسن بن دريد : سقطت من منزلي بفارس فانكسر بعض أعضائي ، فسهرت ليلتي ، فلما كان آخر الليل ضت عيني ، فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا ، دخل علي وأخذ بعضادتي الباب ، وقال : أنشدني أحسن ما قلت في الخمر ، فقلت : ما ترك أبو نواس لأحد شيئا في هذا الباب ، فقال : أنا أشعر منه ، فقلت : ومن أنت ؟ قاغل : أنا ناجية من أهل الشام ، وأنشدني :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده . . . بدت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا . . . عليها مزاجا فاكتست لون عاشق . فقلت له أسأت قال ولم : قلت لأنك قلت حمراء قدمت الحمرة ثم قلت نرجس وشقائق فقدمت الصفرة فقال ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض وأبو ناجية من كني إبليس . قال قاضي القضاة شمس الدين محمد بن خلكان في تاريخه وفي رواية أخرى أن الشيخ أبا علي الفارسي قال أنشدني ابن دريد هذين البيتين وقال جاءني إبليس في المنام ثم ذكر بقية الكلام .سرعة بديهة

ونقل ابن خلكان وغيره أن أبا بكر فريعة قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد كان من عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالأجوبة عن جميع ما يسال عنه في أفصح لفظ وأملح سجع وكان مختصا بحضرة الوزير أبي محمد المهلبي ومنقطعا إليه وله مسائل وأجوبة مدونة في أيدي الناس وكان رؤساء ذلك العصر والعلماء والفضلاء يداعبونه ويكتبون له المسائل الغريبة المضحكة فيكتب الأجوبة من غير توقف ولا يكتب إلا مطابقاً لما سألوه وكان الوزير المذكور يغري به جماعة يصنعون له المسائل الهزلية من معان شتى من النوادر فمن ذلك ما كتب إليه بعض الفضلاء على سبيل الامتحان ما يقول القاضي أيده الله تعالى في رجل

سمّى والده مداما وكناه أبا الندامى وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبا الإطراب وسمى وليدته القهوة وكناها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته فكتب تحت السؤال لو نعت هذا لأبي حنيفة لأقعده خليفة وعقد له راية وقاتل تحتها من خالف رأيه ولو علمنا مكانه لقلبنا أركانه فإن أتبع هذه الأسماء أفعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا أنه أحيا دولة المجون وأقام لواء ابن الزرجونفبايعناه وشايعناه وإن تكن أسماء سماها ما له بها من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته فنحن إلى إمام فعال أحوج منا إلى إمام قوال وكتب إليه العباس الكاتب ما يقول القاضي وفقه الله تعالى في يهودي زنا بنصرانية فولدت له ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليهما فما يرى القاضي فيهما فكتب تحت سؤاله بديها هذا من أكبر الشهود على الملاعين اليهود فإنهم أشربوا حب العجل في صدورهم حتى خرج من أمورهم وأرى أن يناط رأس اليهودي برأس العجل ويصلب على عنق النصرانية ألساق مع الرجل ، ويسحبان على الأرض وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام .

غدر المنصور

ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي : أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك وأريد أن أسلم لك عمي وعمك عبد الله بن علي فخذه وأقتله وإياك أن تجبن في أمره ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب إليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر أنه قتلهودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له إن المنصور دفع إلي عمه وأمرني بقتله فقال له يريد أن يقتلك به فإنه أمرك بذلك سراً ويدعي به عليك علانية والرأي أن تستره في منزلك ولا تطلع عليه أحداً فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية ولا تدفعه إليه سراً أبداً ففعل ذلك وقدم المنصور فدس على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم علي بعيسى بن موسى فأتاه فقال : يا عيسى كنت دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج وأمرتك أن يكون في منزلك مكرما قال قد فعلت ذلك قال قد كلمني فيه عمومتك فرأيت الصفح عنه فأتني به قال يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله قال لا بل أمرتك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم وأدعى أني أمرته بذلك وقد كذب قالوا فدعه إليه نقتله قال شأنك فأخرجوه إلى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الأمر فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فإن عمي حي ردوني إلى أمير المؤمنين فردوه إليه فقال يا أمير المؤمنين إنما أردت بقتله قتلي هذا عمك حيا إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته قال ائتنا به فأتى به فجعله في بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحاً لما شرع في عمارته وأعده لهذا المعنى ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب المليح وسقط البيتوركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس ابن المتوفي وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قال لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين إن عليا قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي قال قلت ما لك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب البيعة

التي تقدمت له مع السفاح وشرحها يطول انتهى .

ابن الدقاق البلنسي وزيت أبيه

ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ما صورته نقلت من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه أن ابن الدقاق البلنسي الشاعر المشهور كان يسهر الليل ويشتغل بالأدب وكان أبوه حداداً فقيراً فلامه وقال يا ولدي نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه فاتفق أنه برع في العلم والأدب وقال الشعر وعمل في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها :

يا شمس خدرٍ ما لها مغرب . . . وبدر تمٍّ قطّ لا يحجبوقال منها :

ناشدتك الله نسيم الصبا . . . أين استقرت بعدنا زينب

لم تسر إلا بشذا عرفها . . . أولا فماذا النفس الطيب

فأطلق له ثلثمائة دينار فجاء إلى أبيه وهو جالس في حانوته فوضعها في حجره وقال خذ هذه وابتع بها زيتاً انتهى .

ابن سريج ورفيقاه

حكي عن عبد العزيز بن الفضل قال خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح وأبو بكر بن داود وأبو عبد الله نفطوية إلى وليمة فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق فأراد كل منهم تقديم صاحبه عليه فقال ابن شريح ضيق الطريق يورث سوء الأدب فقال ابن داود لكنه تعرف به مقادير الرجال فقال نفطويه إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف .بثينة وعزة والخليفة

ومن لطائف المنقول أن بثينة وعزة دخلتا على عبد الملك بن مروان فانحرف إلى عزة وقال أنت عزة كثير قالت لست لكثير بعزة لكنني أم بكر قال أتروين قول كثير . . .

وقد زعمت أني تغيرت بعدها . . . ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيرُ

قالت لست أروي هذا ولكنني أروي قوله :

كأني أنادي أو أكلم صخرةً . . . من الصم لو تمشي بها العصم زلت

ثم انحرف إلى بثينة فقال أنت بثية جميل قالت نعم يا أمير المؤمنين قال ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين قالت الذي رأى الناس فيك فجعلوك خليفتهم قال فضحك حتى بدا له ضرس أسود ولم ير قبل ذلك وفضل بثينة على عزة في الجائزة ثم أمرهما أن يدخلا على عاتكة فدخلتا عليها فقالت : لعزة أخبريني عن قول كثير

قضي كل ذي دينٍ فوفّى غريمه . . . وعزة ممطولٌ معنى غريمهاما كان دينه وما كنت وعدته

قالت كنت وعدته قبلة ثم تأثمت منها قالت عاتكة وددت أنك فعلت وأنا كنت تحملت أثمها عنك ثم ندمت عاتكة واستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة انتهى .

ويعجبني قول أسامة بن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره .

أنظر إلى الأيام كيف تسوقنا . . . قسراً إلى الإقرار بالأقدار

ما أوقد ابن طليبَ قطّ بداره . . . ناراً وكان حريقها بالنار

قلت ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصري دلال الكتب بمصر كان له دار موصوفة بالحسن فاحترقت فعمل فيها نشو الملك المعروف بابن المنجم

أقول وقد عاينت دار ابن صورةٍ . . . وللنار فيها مارجٌ يتضرم

كذا كل مالٍ أصله من نهاوشٍ . . . فعماّ قليلٍ في نهارٍ يعدم

وما هو إلا كافرٌ طال عمره . . . فجاءته لما استبطأته جهنَّم قلت وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الأدب بمصر وكان شيخنا قد ظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب إليه :

أيها السيد الأديب دعاءٌ . . . من محبٍّ خالٍ عن التنكيتأنت شيخٌ وقد قربت من النا . . . ر فكيف ادهنت بالكبريت

قيل إن أبا القاسم الزعفراني مدح الصاحب ابن عباد بقصيدة نونية وانتهى إلى قوله منها :

وحاشية الدار يمشون في . . . صنوفٍ من الخزِّ إلاّ أنا

فقال الصاحب قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلا قال له احملني أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس ولو علمنا لباس من الخز لأعطيناكه . وبلغ حديث معن المذكور للعلاء بن أيوب فقال رحم الله أبن زائدة لو كان يعلم أن الغلام يركب لأمر به ولكنه كان عربيا خالصا لم يدنس بقاذورات الأعاجم انتهى .بيوت الشعر

قيل إن بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وكان جرير أفحل شعراء الإسلام في الأربعة فالفخر قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميمٍ . . . حسبت الناس كلَّهُم غضاباً

والمديح قوله

ألستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العالمين بطون راح

والهجاء قوله

فغض الطرف إنك من نميرٍ . . . فلا كعباً بلغت ولا كلابا

والنسيب قوله

إن العيون التي في طرفها حورٌ . . . قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به . . . وهن أضعفُ خلق الله إنسانا

وقال أبو عبيدة التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير :

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى . . . فخاراً فأخبرني بما أنت فاخر

فقال له جرير بلبيك اللهم لبيك قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه .خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء

قيل لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير داخلا قام إليه وأنشده :

يا أيها الرجل المرخي عمامته . . . هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل عليه ولم يذكر له شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدي بن أرطاة فقال جرير أبياتا آخرها قوله :

لا تنس حاجتنا لُقِّيتَ مغفرةً . . . قد طال مكثي عن أهلي وأوطاني

قال فدخل عدي على عمر فقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة قال ويحك يا عدي مالي وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى ولك في رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة قال كيف : قال : امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة فقطع بها لسانه قال أو تروي من قوله شيئاً قال نعم قوله :

رأيتك يا خير البرية كلها . . . نشرت كتاباً جاء بالحقِّ معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا . . . عن الحقّ لما أصبح الحقِّ مظلما

ونورت بالبرهان أمراً مدلساً . . . وأطفأت بالاسلام ناراً تضرما

فمن مبلغٍ عنِّي النبي محمداً . . . وكل امرىء يجزي بما كان قدّمأأقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه . . . وكان قديماً ركنه قد تهدّما

فقال عمر ويلك يا عدي من بالباب منهم قال عمر بن أبي ربيعة قال أليس هو الذي يقول :

ثم نبهتها فمدت كعاباً . . . طفلةٌ ما تبين رجع الكلام

ساعةٌ ثم إنها بعد قالت . . . ويلتا قد عجلت يا ابن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه لكان استر له لا يدخل والله عليَّ أبدا فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أوليس الذي يقول :

هما دليابي من ثمانين قامةٍ . . . كما انقض باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا . . . أحيٌّ فيرجى أم قتيلٌ نحاذره

لا يدخل علي والله فمن بالباب سواه . قال الأخطل قال يا عدي هو الذي يقول : ولست بصائمٍ رمضان طوعاً . . . ولست بآكلٍ لحمَ الأضاحي

ولست بزاجر عيساً بكوراً . . . إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بزائرٍ بيتاً عتيقاً . . . بمكة أبتغي فيه صلاحي

ولست بقائمٍ بالليل أدعو . . . قبيل الصبح حيَّ على الفلاح

ولكني سأشربها شمولاً . . . وأسجد عند مبتلج الصباح

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً فمن بالباب سوى من ذكرت قال الأحوص قال اليس الذي يقول :

الله بيني وبين سيدها . . . يفرُّ مني بها وأتبعهفما هو بدون من ذكرت فمن هنا أيضا قال جميل بن معمر قال أليس هو الذي يقول :

ألا ليتنا نحيا جميعا وإن أمت . . . يوافق في الموتى ضريحي ضريحها

فلو كان عدو الله تمنى لق . . . اءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحها
لكان أصلح والله لا يدخل علي أبداً فهل سوى من ذكرت أحد قال جرير قال أما هو الذي يقول :
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا . . . وقت الزيارة فأرجعي بسلام
فإن كان ولا بد فهو الذي يدخل فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقا فأنشده قصيدته الرائية المشهورة التي منها :
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا . . . من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة أو كانت له قدراً . . . كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها . . . فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دمت حيا لا يفارقنا . . . بوركت يا عمرَ الخيراتِ من عمر
فقال يا جرير ما أرى ذلك فيما ههنا حقا قال بلى يا أمير المؤمنين إني ابن سبيل ومنقطع فقال له ويحك يا جرير قد ولينا هذا الأمر ولا نملك إلا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقيةقال فأخذها جرير وقال والله لهي أحب مال اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ما وراءك فقال ما يسوءكم خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عليه لراض وأنشد :
رأيت رقى الشيطان لا تستفزه . . . وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا

حكاية غريبة

. ومن لطائف المقول ما حكي عن أبي معشر البلخي المنجم الإمام المصنف صاحب التصانيف المفيدة في علم النجوم قيل إنه كان متصلا بخدمة بعض الملوك وإن ذاك الملك طلب رجلا من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التي يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة فأراد أن يعمل شيئا حتى لا يهتدي إليه ويبعد عنه حديثه فأخذ طستا وجعل فيه دما وجعل في الدم هاون ذهب وقعد على الهاون أياما وتطلبه الملك وبالغ في الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب إظهاره فعمل المسألة التي يستخرج بها وسكت زمانا حائرا فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال أرى شيئا عجيبا فقال وما هو قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحر من دم ولا أعلم في العالم موضعا على هذه الصفة فقال إلا أعد نظرك ففعل ثم قال ما أرى له إلا ما ذكرت هذا شيء ما وقع لي مثله فلما أيس الملك من تحصيله نادى في البلد بالأمان للرجل ولمن أخفاه فلما اطمأن الرجلظهر وحضر بين يدي الملك فسأله عن الموضع الذي كان فيه فأخبره بما اعتمد عليه فأعجبه حسن احتياله في إخفاء نفسه

الغم يذيب الشحم

قال قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ومما يناسب هذا من فطن المتطببين ما رواه الحسين بن إدريس الحلواني قال سمعت الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه يقول ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن قيل له ولم ذلك قال لأنه لا يعدو العاقل إحدى خلتين إما أن يهتم لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه والشحم مع الهم لا ينعقد ثم قال وكان بعض ملوك الأرض قديما كثير الشحم لا ينتفع بنفسه

فجمع الحكماء وقال احتالوا لي بحيلة يخف عني لحمي هذا قليلا قال فما قدروا له على شيء فجاءه رجل عاقل لبيب متطبب فقال عالجني ولك الغنى قال أصلح الله الملك أنا طبيب منجم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك لأرى أي دواء يوافقه فلما أصبح قال أيها الملك الأمان فلما أمنه قال رأيت طالعك يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر واحد فإن اخترت عالجتك وإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك فإن كان لقولي حقيقة فخل عني وإلا فاقتص مني قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتما فكلما انسلخ يوم ازداد هما وغما حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يوما فبعث إليه وأخرجه فقال ما ترى فقال أعز الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله إني لم أعلم عمري فكيف أعلم عمرك ولكن لم يكن عندي دواء إلا الغم فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه الحيلة فإن الغم يذيب الشحم فأجازه على ذلك وأحسن إليه غاية الإحسان وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم . قلت ويعجبني قول جعفر بن شمس الخلافة في هذا المعنى :

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها . . . وأسىً يُبشِّرُ بالسرور العاجل

وإذا نظرت فإن بؤساً عاجلاً . . . للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائل

ويعجبني قوله وإن كان في غير ما نحن فيه :

مدحتك ألسنة الأنام مخافةً . . . وتشاهدت لك بالثناء الأحسنِ

أتُرى الزمان مؤخِّراً في مدَّتي . . . حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

حياتك ذنب

نقل عن قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه أن الجنيد قال ما انتفعت بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها قيل له وما هي قال مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار وتقول هذه الأبيات :

إذا قلتُ اهدى الهجرُ لي حُلَلَ الأسى . . . تقولين لولا الهجرُ لم يطب الحبُّ

وإن قلتُ ما أذنبتُ قلتُ مجيبةً . . . حياتُكِ ذنبٌ لا يقاسُ به ذنب

فصعقت وصحت فبينما أنا كذلك إذ خرج صاحب الدار فقال ما هذا يا سيدي فقلت له مما سمعت فقال إنها هبة مني إليك فقلت قد قبلت وهي حرة لوجه الله تعالى ثم دفعها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت منه ولدا نبيلا حج على قدميه ثلاثين حجة .

لمحة لغوية

وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي علي الفارسي أنه كان يوما يساير عضد الدولة بن بويه في ميدان سيران فقال له لم انتصب المستثنى في قولنا قام القوم إلا زيدا فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره استثنى زيدا فقال له عضد الدولة هل رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع وقال هذا الجواب ميداني ثم إنه لما رجع إلى منزله وضع في ذلك كلاما حسنا وحمل إليه فاستحسنهعقاب الشيب

وحكى أبو القاسم أحمد الأندلسي قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر فقال إني لأغبطكم على قول الشعر فإن خاطري لا يوافقني إلى ذلك مع تحقيق العلوم التي هي من معادنه فقال له رجل فما قلت قط شيئا منه قال ما أعلم أن لي شعرا غير ثلاثة أبيات في الشيب وهو قولي :

خضبتُ الشيبَ لما كان عيباً . . . وخَضْبُ الشيب أولى أن يُعابا
ولم أخضب مخافة هجر خلٍّ . . . ولا عيباً خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميماً . . . فصيّرت الخضاب له عقابا
حال تبدل
وحكي أن أبا محمد الوزير المهلبي كان في غاية من الأدب والمحبة لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة بن بويه في شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة وسافر وهو على تلك الحالة ولقي في سفره شدة عظيمة فاشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالا :إلا موتٌ يباع فأشتريه . . . فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موتٌ لذيذ الطعم يأتي . . . يُخلِّصني من العيش الكريه
إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ . . . وددت لو أنني فيما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرٍّ . . . تصدّق بالوفاة على أخيه
كان له رفيق يقال له أبو عبد الله الصوفي وقيل أبو الحسن العسقلاني فلما سمع الأبيات اشترى له لحما بدرهم وطبخه وأطعمه وتفارقا وتنقلب الأحوال وولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه :
ألا قل للوزير فدتْهُ نفسي . . . مقال مذكّرٍ ما قد نسيه
أتذكرُ إذ تقولُ لضيق عيشٍ . . . ألا موتٌ يُباعُ فاشتريه
فلما وقف عليها تذكر الحال وهزته أريحية الكرام فأمر له بسبعمائة درهم ووقع له في رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق منه .حماد الراوية وهشام بن عبد الملك
وذكر الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص ما مثاله قال حماد الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته وكان أخوه هشام يجفوني لذلك فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من اخواني سرا فلما لم أسمع أحدا ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة فإذا شرطيان قد وقفا علي وقالا يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي وكان واليا على العراق فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف ثم قلت لهما تدعني حتى آتي أهلي وأودعهم ثم أسير معكما فقالا ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت في أيديهما ثم صرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر فسلمت عليه فرد علي السلام ورمى إلي بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا يسير عليه ثنتي عشرة ليلة إلى دمشقفأخذت الدنانير ونظرت فإذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثنتي عشرة ليلة فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك فسلمت عليه فرد علي السلام واستدناني فدنوت منه حتى قبلت رجله فإذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط فقال كيف أنت وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين فقال أتدري فيما بعثت إليك فقلت لا ،

قال : بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله قلت وما هو يا أمير المؤمنين :

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت . . . قينةٌ قي يمينها إبريق

فقلت يقوله عدي بن يزيد العبادي في قصيدة قال : أنشدنيها فأنشدته :

بكر العاذلون في وضح الصب . . . ح يقولون لي أما تستفيق ويلومون فيك يا ابنة عبد الله . . . والقلب عندكم موثوق

لَسْتُ أدري لكثرة العذل فيها . . . أعذولٌ يلومني أم صديق

قال حماد فانتهيت فيها إلى قوله

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت . . . قينةٌ في يمينها إبريق

قدّمته على عقارٍ كعين ال . . . ديك صفّى سلافها الراووق

مُرَّةٌ قبل مزجها فإذا ما . . . مزجت لذَّ طعمها من يذوق

قال فطرب هشام ثم قال أحسنت يا حماد سل حاجتك قلت إحدى الجاريتين قال هما جميعا لك بما عليهما ومالهما فأقام عنده ثم وصله بمائة ألف درهم .مع خالد الكاتب : لؤية باذنجانية

قال ثعلب ما أحد من الشعراء تكلم في الليل الطويل إلا قارب ولكن خالد الكاتب أبدع فيه فقال :

رَقَدْت فلم ترثِ للساهر . . . وليلُ المحبِّ بلا آخر

ولم تدرِ بعدَ ذهاب الرُّقا . . . دِ ما صنع الدمعُ بالناظر

وقال بعض من كان يحضر مجلس المبرد كنا نختلف إليه فإذا كان آخر المجلس أملى علينا من طرف الأخبار وملح الأشعار ما نرتاح إلى حفظه فأنشدنا يوما مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب التي منها :

فإذا مررتَ بقبرهِ فاغفر له . . . كرمَ الهِجانِ وكلَّ طرفٍ سانحِ

وانضح جوانب قبره بدمائها . . . فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها في لساني لأحفظها فإذا بشيخ قد خرج من خربة وفي يده حجر فهم أن يرميني به فنترست بالمحبرة والدفتر فقال ماذا تقول أتشتمني فقلت اللهم لا ولكني كنت عند أستاذنا أبي العباس المبرد فأنشدنا مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب فقال له إيه إيه أنشدني ما أنشدكم باردكم لا مبردكم فأنشدته فقال والله ما أجاد الراثي ولا أنصف المرثي ولا أحسن الراوي قلت فما عساه أن يقول قال كان يقول :إحملاني إن لم يكن لكما عق . . . رٌ إلى جنب قبره فاعقراني

وانضحا من دمي عليه فقد كا . . . ن دمي من نداه لو تعلمان

قال فقلت هل رأيت أحدا واسى أحدا بنفسه قال نعم هذا الفتى الفتح بن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه ثم تركني وتولى فلما عدت إلى المبرد قصصت عليه القصة فقال أتعرفه قلت لا قال ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء أيام الباذنجان .

كيف اكون باردا

قيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده وقوي به الوسواس ورؤي ببغداد والصبيان يتبعونه فأسند ظهره إلى قصر المعتصم والصبيان يصيحون به يا بارد فقال كيف أكون باردا وأنا الذي أقول :

بكى عاذلي من رحمتي فرحمتُهُ . . . وكم مثلهُ من مسعدٍ ومعينِ
ورقَّت دموعُ العين حتى كأنَّها . . . دموعُ دموعي لا دموع جفونيعلى قدر هريستك
وحدث أبو الحسن علي ابن مقلة قال حدثني أبي عن عمه قال اجتاز أبو خالد الكاتب وأنا على باب داري بسر من رأى والصبيان حوله يعبثون به فجاءني لما رآني وسألني صرفهم عنه فصرفتهم وأدخلته داري وقلت له ما تشتهي تأكل قال الهريسة فتقدمت بإصلاحها له فلما أكل قلت أي شيء تحب بعد هذا قال رطب فأمرت بإحضاره فأكل فلما فرغ من أكله قلت له أنشدني من شعرك فأنشدني :
تناسيتَ ما أوعيتُ سمعك يا سمعي . . . كأنَّك بعد الضرِّ خالٍ من النفع
فإن كنت مطبوعاً على الصدِّ والجفا . . . فمن أين لي صبرٌ فأجعلهُ طبعي
لئن كان أضحى فوق خديكَ روضةً . . . فإنّ على خدّي غديراً من الدَّمع
فقلت زدني فقال لا يساوي تهريسك ورطبك غير هذا
تصحيح شعري
ومن المروي عنه قال بعض طلبة المبرد خرجت من مجلس المبرد فلقيت خالد الكاتب فقال من أين قلت من مجلس المبرد قال بل البارد ثم قال ما الذي أنشدكم اليوم قلت انشدني :أعار الغيث نائلُهُ . . . إذا ما ماؤه نفدا
وإن أسدُ شكا جبناً . . . أعار فؤاده الأسدا
فقال أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم أنه إذا أعار الغيث نائله بقي بلا نائل وإذا أعار الأسد فؤاده بقي بلا فؤاد قلت فكيف كان يقول فأنشد :
علم الغيثُ الندى من يده . . . مذ دعاهُ علَّم البأسَ الأسد
فإذا الغيث مقرٌّ بالنَّدى . . . وإذا الليثُ مقرٌّ بالجلد
قال فكتبتهما وانصرفت .
دهاء أبي دلامة
دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدة فقال سل حاجتك فقال يا أمير المؤمنين هب لي كلبا قال فغضب وقال أقول لك سل حاجتك تقول هب لي كلبا فقال يا أمير المؤمنين الحاجة لي أو لك فقال بل لك فقال إني أسألك أن تهب لي كلب صيد فأمر له بكلب فقال يا أمير المؤمني هبني خرجت للصيد أعدو على رجلي فأمر له بدابة فقال له يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر بغلام فقال يا أمير المؤمنين هبني صدت صيدا وأتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين فهؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت فيعنقي عيالا فمن أين لي ما يقوت هؤلاء قال المهدي اعطوه جريب نخل ثم قال هل بقيت لك حاجة قال نعم فأذن لي أن أقبل يدك .
واعظ هشام بن عبد الملك
قدم هشام بن عبد الملك قد حاجا إلى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال ائتوني برجل من الصحابة فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا قال فمن التابعين فاني بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم

يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير إذنه وقال كيف أنت يا هشام فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله فقيل له : أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك فقال يا طاوس ما حملك على ما صنعت قال وما صنعت قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم بيا أمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت يا هشام كيف أنت فقال له طاوس ما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بإمرتك فخفت أن أكون كاذبا وأما قولك لم تكنني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه فقال يا داود يا يحيىويا عيسى وكنى أعداءه فقال تبت يدا أبي لهب وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فأنظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له عظني فقال له إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إن في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام فخرج .

أدب الشعبي

هذه نادرة لطيفة مروية عن أبي عامر الشعبي ولكن يتعين أن نبدأ بشيء من ترجمته قال الزهري العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام والشعبي بالكوفة ويقال أنه أدرك خمسمائة من الصحابة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والنادرة الموعود بذكرها هي ما حكى الشعبي قال أنفذني عبد الملك ابن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت إليه جعل لا يسالني عن شيء إلا أجبته وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فحبسني عنده أياما كثيرة فلما أردت أردت الانصراف قال أمن بيت المملكة أنت فقلت لا ولكني من العرب فدفع إلي رقعة وقال إذا أديت الرسائل إلى صاحبك أوصل إليه هذهالرقعة قال فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما وصلت الباب أريد الخروج تذكرت الرقعة فرجعت . فأوصلتها إليه فقال لي هل قال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك قلت نعم قال لي أنت من أهل بيت المملكة قلت لا لكني رجل من العرب في الحملة ثم خرجت من عند عبد الملك فلما بلغت الباب طلبني فرددت فلما مثلت بين يديه قال أتدري ما في الرقعة قلت لا قال اقرأها فقرأتها فإذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره قلت يا أمير المؤمنين لو علمت ما فيها ما حملتها وإنما قال هذا لأنه لم يرك قال أتدري لم كتبها قلت لا قال حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك انتهى .

وقيل كان الشعبي ضئيلاً نحيلا فقيل له في ذلك فقال زوحمت في الرحم وكان قد ولد هو وأخ آخر وأقام في البطن سنتين ذكره صاحب كتاب المعارف . ويقال إن الحجاج قال له يوما كم عطاك في السنة فقال ألفين فقال له ويحك كما عطاؤك قال ألفان فقال ويحك كيف لحنت أولا فقال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت وما يحسن أن يلحن الأمير وأعرب فاستحسن ذلك منه وأجازه .ذكاء كاتب ودهاء أمير

نادرة بديعة غريبة منقولة عن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ صاحب قلعة شيراز وكان سديد المذكور مقصودا من البلاد ممدوحا مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهما وله شعر جيد أيضا ومنه قوله وقد غضب على مملوكه فضربه .

أسطوا عليه وقلبي لو تمكن من . . . كفيَّ غلهما غيظاً إلى عنقي
وأستعين إذا عاقبته حنقاً . . . وأين ذلُّ الهوى من عزة الحنق
وكان موصوفا بقوة الفطنة ويحكى عنه في ذلك حكاية عجيبة وهي أنه كان يتردد على حلب قبل تملكه قلعة شيراز وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس فجرى أمر خاف سديد الملك منهن على نفسه فخرج من حلب إلى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده فتقدم محمود صاحب حلب إلى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن علي النحاس الحلبي أن يكتب إلى سديد الملك كتابا يتشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه إلى حلب ففهم الكاتب أنه يقصد له شراً إذا جاء إليه وكان الكاتب صديقا إلى سديد الملك فكتب الكاتب كما أمره مخدومه إلى أن بلغ إلى آخره وهو إن شاء الله فسدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه فاستحسنواعبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وإيثاره لقربه فقال سديد الملك إني ارى ما لا ترون في الكتاب ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب في جملة فصول الكتاب أنا الخادم المقر بالأنعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه سر بما فيه وقال لأصدقائه قد علمت أن الذي كتبته لا يخفى عن مثله وقد اجاب بما طيب قلبي عليه وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأجاب سديد الملك بقوله إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها وكانت هذه الحكاية معدودة من شدة تيقظه وفهمه انتهى .

نبل الوزير ابن الفرات

وحكى الصابيء في كتاب الأعيان والأمثال أن رجلا اتصلت عطلته وانقطعت مادته فزور كتابا من الوزير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي إلى ابن زيتون المارداني عامل مصر يتضمن المبالغة في الوصايا وزيادة الإكرام وعمل المصالح فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون ودفع إليه الكتاب فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب في أمره لتغير لفظ الخطاب عما جرت به العاة وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله فراعاه مراعاة قريبة ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعدٍ وعده به ثم كتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الذي ورد عليه وأنفذه بعينه إليهفلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل وذكر ما كان عليه من الحرمة وما له من الحقوق القديمة عليه فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وعجب إليهم منها وقال لهم ما الرأي في مثل هذا الرجل فقال بعضهم تأديبه وقال بعضهم قطع إبهامه وقال اجملهم محضرا يكشف لابن زيتون أمره ويرسم له بطرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعدكم من الخير رجل توسل بنا وحمل المشقة إلى مصر وأمل الخير بجاهنا والانتساب إلينا يكون حاله عند أحسنكم نظرا تكذيب ظنه وتخييب سعيه والله لا كان هذا أبداً ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور هذا كتابي ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتك فيه شبهة وليس كل ما يخدمنا نعرفه وهذا رجل خدمني أيام نكبته فأحسن تفقده ورفده وصرفه فيما يعود نفعه عليه ثم رد الكتاب إلى ابن زيتون من يومه ومضت على ذلك مدة طويلة إذ دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة فاقبل يدعو له ويثني عليه ويبكي ويقبل يديه والأرض فقال له ابن الفرات من أنت بارك الله فيك قال صاحب الكتاب المزور إلى ابن زيتون الذي صححه كرم الوزير بفضله فضحك

ابن الفرات وقال كم وصل إليك منه قال أوصل إلي من ماله ومن قسط قسطه على عماله عشرين ألف دينار فقال الحمد لله على صلاح حالك ثم أختبره فوجده كاتبا سديداً فاستخدمه . .مصارع العشاق

ذكر الحصري في كتابه المسمى بالدر المصون في سر الهوى المكنون أن الجاحظ ذكر للواثق لتأديب بعض أولاده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه قال الجاحظ فخرجت من عنده فرأيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانحدار إلى مدينة السلام فعرض عليّ الانحدار معه فانحدرت ونصبت ستارة وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تغني .

كل يومٍ قطيعةٌ وعتابٌ . . . ينقضي دهرنا ونحن غضاب

ليت شعري أنا خصصت بهذا . . . دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت فأمر طنبورية فغنت :

وارحمتا للعاشقينا . . . ما إن أرى لهمُ معينا

كم يهجرون ويصرمون . . . ويقطعون فيصبرونا

كم يهجرون ويصرمون . . . ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة فيصنعون ماذا قالت يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة وبدت كأنها فلقة بدر ثم رمت بنفسها في الماء قال وكان على رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وفي يده مذبة فألقى المذبة من يده لما رأى ما صنعت الجارية ثم أتى إلى موضع سقوطها ونظر إليها وأنشد :

أنت التي غرقتني . . . بعد القضا لو تعلميناوزج بنفسه في أثرها فأدار الملاح الحراقة فإذا بهما متعانقين ثم غاصا فهال ذلك محمداً واستعظمه وقال يا عمرو إن لم تحدثني حديثا يسليني عنهما ألحقتك بهما قال الجاحظ فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد يوما للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة فيها مكتوب إن رأى أمير المؤمنين أعزه الله ان يخرج جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة اصوات فعل ان شاء الله تعالى فأغتاظ سليمان لذلك وأمر من يأتيه براسه ثم أردفه رسولا آخر أن يدخل به إليه فلما دخل قال ما حملك على ما صنعت قال الثقة بحلمك والاتكال على عفوك فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج ثم أمر بالجارية فأخرجت ومعها عود فقال لها غني ما يقول لك فقال الفتى غني :

تألق البرق نجدياً فقلت له . . . يا أيها البرق إني عنك مشغول

فغنته فقال له سليمان أتأمر لي برطل فأتي به فشربه ثم قال لها غني :

حبذا رجعها إلينا يداها . . . في يدي درعها تحل الأزارا

فغنته فقال لسليمان أتأمر لي برطل فأتي به فشربه ثم قال غني : أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلل . . . وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجملي

فغنته قال لسليمان أتأمر لي برطل فما استتم شربه حتى صعد على الفور على قبة لسليمان فرمى بنفسه على دماغه فمات فقال سليمان إنالله وإنا إليه راجعون أتراه الأحمق ظن أني أخرج إليه جاريتي وأردها إلى ملكي يا غلمان خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا بها إلى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة في دار سليمان اتخذت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم ثم قالت :

من مات عشقاً فليمت هكذا . . . لا خير في عشقٍ بلا موت

فرمت بنفسها في الحفيرة فماتت فسري عن محمد وأحسن صلتي انتهى .

بديع الجناس

وكتب أبو منصور افتكين التركي متولي دمشق إلى عضد الدولة بن بويه كتابا مضمونه إن الشام قد صفا وصار في يدي وزال في مستقرهم فكتب إليه عضد الدولة في جوابه هذه الكلمات وهي متشابهة في الخط لا تعرف إلا بعد النقط والضبط وهي غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فأخش فاحش فعلك فعلك تهدأ بهذا قال القاضي شمس الدين ابن خلكان تغمده الله برحمته لقد أبدع غاية الإبداع . قلت وأبدع منه قول السلامي فيه من قصيدته التي منها :إليك طوى عرض البسيطة جاعلٌ . . . قصار المطايا أن يلوح لها القصرُ

فكنت وعزمي في الظلام وصارمي . . . ثلاثة أشياءٍ كما اجتمع النشر

وبشرت آمالي بملكٍ هو الورى . . . ودارٍ هي الدنيا ويومٍ هو الدهر

قال ابن خلكان هذا على الحقيقة هو السحر الحلال كما يقال . وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر الأرجاني فقال :

يا سائلي عنه لما جئت أمدحه . . . هذا هو الرجل العاري من النار

لقيته فرأيتُ الناس في رجلٍ . . . والدهر في ساعةٍ والأرض في دار

ولكن أين الثريا من الثرى وألم أبو الطيب المتنبي أيضا بهذا المعنى لكنه ما استوفى بقوله :

هو الغرض الأقصى ورؤيتك المنى . . . ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

ولكن ليس لأحد منهما طلاوة بيت السلامي .

بين كافور وابن جابار

كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور والأخشيدي وكان له في كل عيد أضحى عادة وهو أن يسلم إلى أبي بكر المذكور بغلا محملا ذهبا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى الجبانة وما بينهماقال أبو بكر المذكور وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك أصرف هذا في منفعتك فارفع إليه ما جعل له وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله ابن جابار وجعل له في ذلك العيد مائة دينار فطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه ولم يبق إلا الصرة فجعلتها في كمي وسرت مع المغيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت الباب فنزل إلينا الشيخ وعليه اثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال ما حاجتك قلت الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام فقال والي بلدنا قلت نعم قال حفظه الله الله يعلم أني أدعو له في الخلوات وادبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه قلت وقد أنفذ معي نفقة وهي هذه الصرة ويسالك قبولها لتصرف في مؤنة هذا العيد المبارك فقال نحن رعيته ونحبه في الله تعالى وما نفسد هذه المحبة بعلة فراجعته القول فتبين لي الضجر في وجهه واستحيت من الله أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت قال فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني فلما رآني قال إيه يا أبا بكر

قلت أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي هذا اليوم الشريف فقال الحمد لله الذي جعلني لإيصال الراحة إلى عبادة ثم أخبرته بامتناع ابن جابار فقال نعم هو جديد لمتجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم ثم قال لي عد إليه واركب دابة من دواب النوبة واطرق بابه فإذا نزل إليك فإنه سيقول لك ألم تكن عندنا فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلي الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى يا ابن جابار الأستاذ كافور يقول لك ومن كافور العبد الأسود ومن هو مولاه ومن الخلق ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم ههنا أتدري من هو معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت وإنما هو أرسل لك يا بن جابار أنت ما تفرق بين السبب والمسبب . قال أبو بكر فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إلي فقال لي مثل لفظ كافور فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال لي كافور فبكى وقال لي أين ما حملت فأخرجت الصرة فأخذها وقال علمنا الأستاذ كيف التصوف قلت له أحسن الله جزاءك ثم عدت إليه فأخبرته بذلك فسر وسجد شكراً لله وقال الحمد لله على ذلك .

ونقل ابن خلكان في تاريخه أن أبا عبد الله محمد بن الأعرابي كان يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان شيئا وكان يقول جائز في كلام العرب أن يعاقب بين الضاد والظاء فلا يخطىء من يجعل هذا في موضع هذا وينشد :إلى الله أشكو من خليل أوده . . . ثلاثَ خصالٍ كلها لي غائضُ

ويقول هكذا سمعته بالضاد .

ومن النوادر اللطيفة

ورد أبو نصر الفارابي إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو إذ ذاك سلطانها قيل إنه لما دخل عليه وهو بزي الأتراك وكان ذلك زيه دائماً وقف فقال له سيف الدولة أجلس فقال حيث أنا أو حيث أنت فقال حيث أنت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يساورهم به فقال لهم بذلك اللسان إن هذا الشيخ قد أساء الأدب وإني سائله عن أشياء إن لم يعرفها أخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها الأمير اصبر فإن الأمور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن فلم يزل كلامه يعلوا وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في أن تأكل قال لا قال فهل لك أن تشرب قال لا فقال هل تسمع قال نعمفأمر سيف الدولة بإحضار القيان فحضر كل ماهر في الصنعة بأنواع الملاهي فخطأ الجميع فقال له سيف الدولة هل تحسن هذه الصنعة قال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فضحك كل من في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر فبكى كل من في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وحركها فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج . وهو الذي وضع القانون وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مسكن ولا مكسب وسأله سيف

الدولة في مرتب من بيت المال فقال يكفيني أربعة دراهم ولم يزل على ذلك إلى أن توفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير .

ومن المنقول من خط القاضي الفاضل أن نور الدين الشيهد كتب إلى راشد الدين سنان صاحب القلاع الاسماعيلية كتابا يهدده فيه فشق ذلك على سنان فكتب إليه بما هو فوق الوصف بحكاية الحال وهو :

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا . . . لاقام مصرع قلبٍ كنت تصرعه

قال الحمام إلى البازي يهدده . . . واستصرخت بأسود الغاب أضبُعهاأضحى يسدُّ فم الأفعى باصبعه . . .

يكفيه ماذا تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن الفيل وبعوضة تعد في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم فما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وأما ما صدر من قولك فتلك أماني كاذبة وخيالات غير صائبة فإن الجواهر لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض فإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ما أوذي نبي ما أوذيت ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته والحال ما حال والأمر ما زال ولله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويستقربون به إلى حياض الموت قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين وفي أمثال العامة أو للبط تهددون بالشط فهيىء للبلاء جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا وإنك لكالباحث عن حتفه بظلفه أو الجادع أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز .قالوا عشقتَ وأنت أعمى . . . ظبياً كحيل الطرف الى

وحلاء ما عاينتها . . . وتقول قد شغفتك وهما

وخياله بك في المنا . . . م فما أطاف ولا ألمَّ

من أين أرسل للفؤا . . . د وأنت لم تنظره سهما

ومتى رأيت جماله . . . حتى كساك هواه سقما

وبأي جارحةٍوصلت لوصفه نثراً ونظما

فأجبت إني موسو . . . ي العشق إنصاتاً وفهما

أهوى بجارحة السما . . . ع ولا أرى ذات المسمى

ويعجبني أيضاً قول ضرير آخر :

وغادةٍ قالت لأترابها . . . يا قوم ما أعجبَ هذا الضرير

أيعشق الإنسان ما لا يرى . . . قلت والدمع بعيني غزير

إن لم تكن عيني رأت شخصها . . . فإنها قد مثلت في الضمير

ومثل هذا قول المهذب عمر ابن الشحنة :

وإني امرؤٌ أحببتكم لمحاسنٍ . . . سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وتقدمه بشار بقوله :

يا قوم أذني لبعض القوم عاشقةٌ . . . والأذن تعشق قبل العين أحياناحاتم الطائي

ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة في كتابه المسمى بسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون عن علي بن أبي طالب أنه قال سبحان الله ما أزهد كثير من الناس في الخير عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا وكان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبل النجاح فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم قال نعم لما أتي بسبايا طيىء وقعت جارية بها جميلة لما رأيتها أعجبت بها فلما تكلمت نسيت جمالها بفصاحتها فقالت يا محمد إن رأيت أن تخلي سبيلي ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي وإن أبي كان يفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويفشي السلام ولا يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه صفات المؤمنين خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والمنقول عن حاتم في زيادة الكرم كثير .

من ذلك ما حكاه المدائني قال أقبل ركب من بني أسد وبني أسد وبني قيس يريدون النعمان فلقوا حاتما فقالوا تركنا قومنا يثون عليك وقد أرسلوا إليك رسالة قال وما هي فأنشد الأسديون شعراً للنابغة فيه فلما أنشدوه قالوا إن نستحي أن نسألك شيئا وإن لناحاجة قال وما هي قالوا صاحب لنا قد أرجل يعني فقدت راجلته فقال حاتم خذوا فرسي هذه فاحملوه عليها فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت يتبع أمه فتتبعته الجارية لترده فصاح حاتم ما تبعكم فهو لكم فذهبوا بالفرس والقلو والجارية .

وقيل أجود العرب في الجاهلية ثلاثة حاتم الطائي وهرم بن سنان وكعب ابن مامة وحاتم كان أشهرهم بالكرم ذكر أنه أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم .

أجواد العرب في الإسلام

وحكى الهيثم بن عدي قال تمارى ثلاثة من أجواد الإسلام فقال رجل أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وقال آخر أسخى الناس عرابة الأوسي وقال آخر بل قيس ابن سعد بن عبادة وأكثروا الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال في ذلك فما عليكم أن يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله إليه فصادفه قد وضع رجله في غرز ناقته يريد ضيعة له فقال يا ابن عم رسول الله قال قل ما تشاء قال ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجل من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو علىالراحلة وخذ ما في الحقيبة واحتفظ بسيفك فإنه من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة فصادفه نائماً فقالت الجارية هو نائم فما حاجتك إليه قال ابن سبيل ومنقطع به قالت حاجتك أهون من إيقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار والله يعلم أن ما في دار قيس غيره خذه وامض إلى معاطن الإبل إلى أموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وما

يصلحها وعبدا وامض لشأنك فقيل إن قيسا لما انتبه من رقدته أخبرته بما صنعت فاعتقها ومضى صاحب عرابة الأوسي إليه فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبدين وقد كف بصره فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به قال فخلى العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال أواه أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذهما يعني العبدين قال ما كنت بالذين أقص جناحيك قال إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت تأخذ وإن شئت تعتق وأقبل يلتمس الحائط بيده راجعا إلى منزله قال فأخذهما وجاء بهما فثبت أنهم أجود عصرهم إلا أنهم حكموا لعرابة لأنه أعطى جهده .بديهة شاعر

حضر يعقوب بن إسحاق الكندي المسمى بوقته فيلسوف الإسلام مجلس أحمد بن المعتصم وقد دخل عليه أبو تمام فأنشد قصيدته السينية المشهورة فلما بلغ إلى قوله :

إقدام عمروٍ في سماحة حاتمٍ . . . في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال له الكندي ما صنعت شيئا فقال كيف : قال ما زدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب وأيضا فإن شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ألا ترى إلى قول العكوك في أبي دلف .

رجل أبرّ على شجاعة عامرٍ . . . بأساً وغبّر في محيّا حاتم

فأطرق أبو تمام ثم أنشأ يقول :

لا تنكروا ضربي له من دونه . . . مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره . . . مثلاً من المشكاة والنبراس

ولم يكن هذا في القصيدة فتزايد العجب منه ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندي ولوه لأنه قصير العمر لأن ذهنه ينحت من قلبه فكان كما قال وقد تكون ظهرت له دلائل من شخصه في ذلك الوقت على قرب أجله انتهى .

وسمع الكندي إنسانا ينشد :وفي أربعٍ منيّ حلت منك أربعُ . . . فما أنا أدري أيُّها هاج لي كربي

خيالك في عيني أم الذكر في فمي . . . أم النطق في سمعي أم الحبُّ في قلبي

فقال لقد قسمتها تقسيما فلسفيا . انتهى .

أوتار العود

ونقل الشيخ جمال الدين ابن نباتة في كتابه المسمى بسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون أن واضع العود بعض حكماء الفرس ولما فرغ منه سماه البربط وتفسيره باب النجاة ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة وجعلت أوتاره أربعة بإزاء الطبائع الأربع فالزير بإزاء السوداء والبم بإزاء الصفراء والمثنى بإزاء الدم والمثلث بإزاء البلغم فإذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جانست الطبائع وأنتجت الطرب وهو رجوع النفس إلى الحالة الطبيعية دفعة واحدة وبدىء هذا العلم ببطليموس وختم باسحق ابن إبراهيم الموصلي .فائدة غريبة

روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا القرآن ينزل بحزن فإذا قرأتموه فأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به من لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه ابن ماجه .

نادرة لطيفة

قال عبد الملك بن أبي زيد مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال فقلت لابن أبي مليكة يا أبا محمد أرأيت إن لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع رواه أبو داود .

خفي حنين تتضمن المثل السائر في قولهم عن الخائب رجع بخفي حنينالمنقول عن حنين أنه كان إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابي بخفين ولم يشتر منه شيئا وغاظه ذلك فخرج إلى الطريق التي لا بد للأعرابي من المرور منها فعلق الفردة الواحدة منهما في شجرة على طريقه وتقدم قليلا فطرح الفردة الثانية واختفى فجاء الأعرابي فرأى أحد الخفين فوق الشجرة فقال ما أشبهه بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه وتقدم فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره وأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من الكمين فأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابي إلى ناحية بعيره فلم يجده فرجع بخفي حنين فصارت مثلا .

التقسيم

قيل إن بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة أذابت العظم وفي أيديكم فضول أموال فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا وإن كانت لله ففرقوها على عباد الله وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا إن الله يجزي المتصدقين فقال عمر بن عبد العزيز ما ترك الإعرابي لنا عذرا في واحدة .ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال رحم الله من تصدق من فضل أو واسى من كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصري ما ترك الأعرابي أحدا منكم حتى عمه بالسؤال قلت هذا النوع سماه البديعيون بالتقسيم .

نادرة أدبية بديعة حكى ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر بعدما أورد لغزا في الخلخال :

ومضروبٍ بلا جُرْمٍ . . . مليح اللون معشوق

له شكل الهلال على . . . رشيق القدِّ ممشوق

وأكثر ما يُرى أبداً . . . على الأمشاط في السّوق

قال بلغني أن بعض الناس سمع هذه الأبيات فقال : دخلت السوق فلم أرى على الأمشاط شيئا .

ملوك حماة

ومن المنقول المشهور أن الأدب وأهله كان عند أصحاب حماه في الذروة العالية ولكن قصة زكي الدين بن عبد الرحمن العوفي مع الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك تقي الدين عمر بن شهنشاه كانت على غير المعهود منه ومن سلفه الطاهر وما ذاك إلا أن زكي الدين المذكور أنشد الملك المظفر محموداً قبل أن يتملك حماه :متى أراك ومن تهوى وأنت كما . . . تهوى على رغمهم روحين في بدن

هناك أنشد والأمال حاضرة . . . هنئت بالملك والأحباب والوطن

فوعده إن تملك حماه أن يعطيه ألف دينار فلما ملكها أنشد :

مولاي هذا الملك قد نلته . . . برغم مخلوقٍ من الخالق

والدهر منقادٌ لما شئته . . . فذا أوان الموعد الصادق

فدفع له ألف دينار وأقام معه مدة ولزمته أسفار أنفق فيها المال الذي أعطاه ولم يحصل بيده زيادة عليه فقال

: إن الذي أعطوه لي جملةً . . . قد استردوه قليلاً قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا . . . وحسبنا الله ونعم الوكيل
فبلغ ذلك الملك المظفر فأخرجه من دار كان قد أنزله بها فقال :
أتخرجني من كسر بيتٍ مهدّمٍ . . . ولي فيك من حسن الثناء بيوت
فإن عشت لم أعدم مكاناً يضمني . . . وأنت فتدري ذكر من سيموت
فحبسه المظفر فقال ما ذنبي إليك فقال حسبنا الله ونعم الوكيل وأمر بخنقه فلما أحسن بذلك قال :
أعطيتني الألف تعظيماً وتكرمةً . . . يا ليت شعري أم أعطيتني ديني
قلت كان والد الملك المظفر أليق بهذا المقام الذي لم يقصد به زكي الدين العوفي غير ترويج الأدب في اختلاف المعاني والمداعبة به والتوصل بذلك إلى بسط الملك المظفر ولكن حال الزكي كقول الشاعر :وكنت كالمتمني أن يرى فلقاً . . . من الصباح فلما أن رآه عمي
قلت وكان والد السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الأدب وكان أحب الناس لأهله وله كتاب طبقات الشعراء عشر مجلدات وسمع الحديث من الحافظ السلفي بالإسكندرية وكان مغرما بحب الأدباء والعلماء وجمع تاريخا على السنين في عشر مجلدات ومن مصنفاته كتابه المسمى بمظاهر الحقائق وسر الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله وجمع عنده من الكتب ما لا مزيد عليه وكان في خدمته ما يناهز مائتي متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب وأقامت دولته ثلاثين سنة وتوفي سنة عشر وستمائة ومن شعره :
أربي راحٌ وريحا . . . نٌ ومحبوبٌ وشادي
والذي ساق لي الملـ . . . ـك له دفع الأعادي
قلت وقد تقدم القول وقد تقرر أن جميع ملوك حماة المحروسة من بني أيوب وكان لهم المام بالأدب وأهله وقد تعين أن نذكر هنا ترجمة ومؤيدهم فإنه كان بدر كمالهم ومسك ختامهم وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الملك الأفضل ابن الملك المظفر ابن الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة المحروسة كان أميراً بدمشق المحروسة فخدم الملك الناصر لما كان بالكرك وبالغ في خدمته فوعده بحماة ووفى له بذلك وجعله بها سلطانا يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره ليس لأحد من الدولة المصرية معه حديث وأركبه فيالقاهرة بشعار المملكة وأبهة السلطنة ومشى الأمراء في خدمته حتى الأمير سيف الدين ابن أرغون النائب وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج إليه في ذلك المهم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة ولقبوه بالملك الصالح ثم بعد ذلك بقليل لقب بالمؤيد وتقدم أمر السلطان الملك الناصر إلى نوابه أن يكتبوا إليه يقبل الأرض والمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي وفي العنوان صاحب حماه وكان الملك الناصر يكتب إليه أخوه محمد بن قلاوون أعز الله المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي المولوي . وكان الملك المؤيد من علماء الفقه والأدب والطب والحكمة والهيئة ونظم الحاوي وله تاريخ بديع وكتاب الكنائس وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين . وكان قد رتب للشيخ جمال الدين بن نباتة في كل شهر ألف درهم غير ما يتحفه وهو مقيم

بدمشق وتوجه الملك المؤيد في بعض السنين إلى الديار المصرية ومعه ابنه الملك الأفضل محمد ولده فجهز إليه السلطان الحكيم جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء فكان يجيء إليه بكرة وعشيا فيراه ويبحث معه في مرضه ويقدر له الأدوية ويطبخ له الشراب بيده في دست فضة فقال له ابن المغربي يا مولانا السلطان أنت والله ما تحتاج إلى المملوك وما أجيء به إلا امتثالا للأوامر الشريفة ولما عوفي أعطاه بغلة بسرج ذهب ولجام وكنبوش مزركش وعشرة آلاف درهم والدست الفضةوقال يا رئيس أعذرني فإني لما خرجت من حماة ما حسبت مرض هذا الولد ومدحه شعراء زمانه وأجازهم وبنى بظاهر حماة المحروسة جامعاً حسناً وسماه جامع الدهيشة وأوقف عليه كتباً قيل إنها ما أجتمعت لغيره من سائر الفنون فإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقا وغربا وتوفي رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ومن شعره :

كم من دمٍ حلت وما ندمت . . . تفعل ما تشتهي فلا عدمت سمت فلو تبلغ الشموس إلى . . . لثم مواطىء أقدامها لثمت

أبو دلف العجلي

والمنقول عن القاسم المكنى بأبي دلف أنه جمع بين طرفي الكرم والشجاعة ولي دمشق في خلافة المعتصم فأما شجاعته فإنه لحق قوما من الأكراد قطعوا الطريق فطعن فارساً طعنة فنفذت الطعنة إلى فارس آخر رديفه فقتلهما فقال بكر بن النطاح :

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ . . . يوم الهياج ولا تراه كليلا

لا تعجبوا فلو أن طول قناته . . . ميلٌ إذاً نظم الفوارس ميلا

وفيه يقول ابن أبي فنن :تمشي المنايا إلى غيري فأكرهها . . . فكيف أمشي إليها بارز الكتفِ

ظننت أن نزال القرن من خلقي . . . وأن قلبي من جنبيّ أبي دلف

وأما شهرته في الكرم فهو الذي قال فيه أبو تمام :

يا طالباً للكيمياء وعلمها . . . مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم

لو لم يكن في الأرض إلاّ درهمٌ . . . ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشد :

أبو دلفٍ إن المكارم لم تزل . . . مغلغلةً تشكو إلى الله حلها

فبشرها منه بميلاد قاسمٍ . . . فأرسل جبريلاً إليها فحلها

فأمر له بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر بيبت المال فأمر له بضعفه فقال هذا غير ممكن فأمر له بضعفه فلما حمل إليه المال قال أبو دلف :

أتعجب إن رأيت عليَّ ديناً . . . وإن ذهب الطريف مع التلاد

وما وجبت عليّ زكاة مالٍ . . . وهل تجب الزكاة على جواد .

وقال آخر :

إن سار سار المجد أو حلّ وَقَفْ . . . أنظر بعينيك إلى أسنى الشرف

هل ناله بقدرةٍ أو بكلف . . . خلقٌ من الناس سوى أبي دلف

فأعطاه خمسين ألف درهم وفيه يقول العكوك بن علي بن أبي جبلة :

إنما الدنيا أبو دلفٍ . . . بين باديه ومحتضرهفإذا ولى أبو دلفٍ . . . ولّت الدنيا على أثره

كلُّ من في الأرض من عربٍ . . . بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمةً . . . يكتسبها يوم مفتخره

فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم . ولما بلغت المأمون غضب غضباً شديداً على العكوك فطلب فهرب فاجتهدوا إلى أن جاءوا به مقيداً فلما صار بين يديه قال له يا ابن اللخناء أنت القائل في مدحك لأبي دلف كل من في الأرض من عرب البيتين جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ويفتخر بها فقال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاسم بكم لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم وإنما ذهبت في شعري لأقران وإشكال أبي دلف فقال والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا في الكل ، وما أستحل دمك بهذا ، ولكن بكفرك حيث قلت في عبد ذليل مهين :

أنت الذي تنزل الآياتِ منزلها . . . وتنقل الدهر من حالٍ إلى حال

وما نظرت مدى طرفٍ إلى أحدٍ . . . إلا قضيت بأرزاقٍ وآجال ذاك هو الله يا كافر أخرجوا لسانه من قفاه ففعلوا به ذلك فمات . ومن مصنفاته كتاب البزاة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك وكانت له اليد الطولى في الغناء وهو مترجم بذلك في كتاب الأغانيالنضر بن شميل

وذكر أبو عبيدة في كتاب مثالب أهل البصرة أن النضر بن شميل النحوي البصري كان عالما بفنون من العلم صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث وهو من أصحاب الخليل بن أحمد فاتفق أن ضاقت به المعيشة ورق حاله فخرج يريد خراسان فشيعه من أهل البصرة ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوي أو عروضي أو لغوي أو إخباري أو فقيه فلما بعدوا عن المدينة جلس فقال يا أهل البصرة يعز عليّ فراقكم والله لو وجدت كل يوم أكلة باقلاء ما فارقتكم قال فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك القدر اليسير وسار حتى وصل إلى خراسان فاستفاد بها مالا عظيما فمن ذلك أنه أخذ على حرف ثمانين ألف درهم وهذه القصة نقلها الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص في أوهام الخواص قال حكي عن محمد بن ناصح الأهوازي قال حدثني النضر بن شميل المازني قال كنت أدخل على المأمون في سمره فدخلت ذات ليلة وعليَّ قميص مرقوع فقال يا نضر ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان قلت يا أمير المؤمنين أنا رجل كبير وضعيف وحرُّ مرو شديد فأتبرد بهذه الخلقان قال لا ولكنك تتقشف ثم أجرينا الحديث فأجرى ذكر النساء فقالحدثني هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سداداً من عوز بفتح السين من سداد فقلت صدق يا أمير المؤمنين هشام حدثنا عوف عن ابن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كانت سدادا من عوز بكسر السين قال وكان أمير المؤمنين متكئاً فاستوى جالساً وقال يا نضر كيف قلت سداداً قلت نعم يا أمير المؤمنيت لأن سدادا بالفتح هنا لحن قال أو تلحنني قلت إنما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قلت السداد

بالفتح القصد في الدين والسبيل والسداد بالكسر البالغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد قال أو تعرف العرب ذلك قلت نعم هذا العرجي يقول :

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا . . . ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المأمون قبح الله من لا أدب له وأطرق مليا ثم قال ما مالك يا نضر قلت أريضة لي بمرو قال أفلا نفيدك معها مالا قلت إني إلى ذلك لمحتاج قال فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب ثم قال كيف تقول إذا أمرت أن يترب قلت أتربه قال فهو ماذا قلت مترب قال فمن الطين قالطنه قال فهو ماذا قلت مطين قال هذه أحسن من الأولى ثم قال يا غلام أتربه ثم صلى بنا العشاء ثم قال لغلامه تبلغ النضر إلى الفضل بن سهل قال فلما قرأ الفضل الكتاب قال يا نضر إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب فأخبرته ولم أكذبه شيئا فقال ألحنت أمير المؤمنين قلت كلا إنما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثم أمر لي الفضل بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد انتهى .

وحكي أن النضر ابن شميل مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح مسح الله ما بك فقال لا تقل مسح بالسين ولكن قل مصح الله بالصاد أي أذهبه وفرقه أما سمعت قول الأعشى :

وإذا ما الخمر فيها أزبدت . . . أفل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل أن السين قد تبدل بالصاد كما يقال الصراط والسراط وصقر وسقر فقال له النضر فأنت إذا أبو سالح .

قلت ويشبه هذه النادرة ما حكي أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات أن تقام السين مقام الصاد في كل موضع فقال الوزيرأتقول جنات عدن بدخلونها ومن صلح من آبائهم أم سلح فخجل الرجل وانقطع والذي ذكره أرباب اللغة في جواز إبدال الصاد من السين أنه في كل كلمة كان فيها سين وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة وهي الطاء والخاء والغين والقاف فتقول الصراط والسراط وفي سخَّر لكم صخر لكم وفي مسغبة مصغبة وفي سيقل صيقل وقس على هذا .

خير المدائح

ونقل قاضي القضاء شمس الدين ابن خلكان في تاريخه أن أبا جعفر أحمد بن عيسى البلادري المؤرخ قال كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال لست أقبل إلا من يقول مثل قول البحتري في المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما . . . في وسعه لسعى إليك المنبر

قال البلاذري فرجعت إلى داري وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري قال هاته فأنشدته :

ولو أن بُرد المصطفى إذ لبسته . . . يظن لظن البرد أنك صاحبه

وقال وقد أعطيته ولبسته . . . نعم هذه أعطافه ومناكبهفقال أرجع إلى منزلك وأفعل ما آمرك به فرجعت فبعث إلي سبعة آلاف دينار وقال ادخر هذه للحوادث من بعدي ولك الجراية والكفاية ما دمت حياً .

ويعجبني من المدائح الرافلة في حلل الحشمة قول عبد الله الأسطرلابي :

أهدي لمجلسه الكريم وإنما . . . أهدي له ما حزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب وما لَهُ . . . فضلٌ عليه لأنه من مائه

ومثله قول القاضي الفاضل وقد كتبت به إلى وزير بغداد :

يا أيها المولى الوزير ومن له . . . منٌ حللن من الزمان وثاقي

من شاكرٌ عني نداك فإنني . . . من عظمِ ما أوليت صاق نطاقي

منٌ تخفُّ على يديك وإنما . . . ثقلت مؤنتها على الأعناق

ذكاء إياس وفطنة القاسم

. كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن ارطاة أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فولِّ القضاء أفقههما فجمع بينهما فقال له إياس أيها الرجل سل عني وعنه فقيهي المصر الحسن وابن سيرين وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما ففهم القاسم إن سألهما عنه أشارا به فقال له لاتسل عني ولا عنه فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم مني بالقضاء فإن كنت كاذبا فلما عليك أن تولني وأنا كاذب وإن كنت صادقا فينبغي أن تقبل قولي فقال له إياس إنك جئت برجل وقعت به على شفير جهنم فنجنى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى منها وينجو مما يخاف فقال له عدي أما إذ فهمتها فأنت لها أهل فاستقضاه .

نادرة لطيفة نقل ابن عبد ربه في العقد أن أبا سفيان زار معاوية في الشام فلما رجع من عنده دخل على الإمام عمر رضي الله عنه فقال له الإمام أجدنا قال ما أصبنا شيئا فنجديك فأخذ الإمام عمر خاتمه فبعث به إلى هند وقال للرسول قال لها يقول لك أبو سفيان أنظري الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضريهما فلم يلبث عمر أن أتى بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فألقاها عمر في بيت المال فلما ولِيَ عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد ردها إليه قال ما كنت لآخذ مالاً عابه مر علي والله إن لنا إليه حاجة ولكن لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك . استنجاز المواعيد قلت وما ظنك بشيء قد جعله الله في كتابه العزيز مدحة وفخرا لأنبيائه فقال وأذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون لكفى قال عمر بن الحرث كانوا يقولون ويفعلون فصاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون فهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق . ويعجبني قول العباس بن الأحنف :

ما ضرَّ من شغل الفؤاد ببخله . . . لو كان عللني بوعدٍ كاذب

صبراً عليك فما أرى لي حيلةً . . . إلاّ التمسُّك بالرجاء الخائب

سأموت من مطلٍ وتبقى حاجتي . . . فيما لديك وما لها من طالب

وذكر حيان بن سليمان عامر ابن الطفيل فقال والله كان إذا وعد الخير وفى . وإذا وعد الشر أخلف وهو القائل :ولا يرهبُ ابنُ العمِّ ماعشت صولتي . . . ويأمنُ منيّ صولة المتهدِّد

وإني وإن أوعدته أو وعدته . . . لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقال ابن حازم :

إذا قلت عن شيء نعم فأتمُّهُ . . . فإنَّ نعم دينٌ على الحرِّ واجبُ

وإلا فقل لا ، تسترح وترح بها . . . لئلا يظنُّ الناس أنك كاذب

ويعجبني قول عبد الصمد الرقاشي في خالد بن ديسم عامل الري وقد أبطأ عليه بوعد :

أخالد إن الريَّ قد أجحفت بنا . . . وضاق علينا رسمُها ومعاشها

وقد أطعمتنا منك يوماً سحابةٌ . . . أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشها

فلا غيمها يصحو فيرجع طامعاً . . . ولا ودقها يهمي فتروي عطاشها

قلت ومن البلاغة المرقصة في هذا الباب خطاب كوثر بن زفر وقد وعده يزيد بن المهلب وأبطأ بوعده وهو . . . أصلح الله الأمير أنت أعظم من أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغر عنك وأنت تكبر عنه وليس العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل . قيل أن يزيد بن المهلب لما سمع هذا الخطاب البليغ مال سكرا وطربا وقال له سل حاجتك قال حملت من عشير عشر ديات قال قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها .

ويعجبني قول بعضهم أما بعد فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن وعدها سالما من حوايج المطل والسلام .حكمة

قال الحكماء : لطيف الاستمتاح قال الحكماء لطيف الاستمناح سبب النجاح والنفس ربما انطلقت وانشرحت للطيف السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل ولله در القائل :

إن الكريم أخو المودة والنُّهى . . . من ليس في حاجاته بمثقِّل

دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال له أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة فقال بالخلافة والعامة فقال يا أمير المؤمنين يداك بالعطية أطلق من لساني ، فأجزل عطيته .

بلاغة امرأة

وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت أشكو إليك قلة الجرذان فقال ما أحسن هذه الكناية املأوا لها بيتها لحما وخبزا وسمنا .طمع أزهر

كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكتماً وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت إليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المؤمنين داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمدا فوصله بأثني عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر : ما حاجتك يا أزهر ؟ قال : جئت مسلما فقال : لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال : أتيت عائدا فقال : لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا فأذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له : ما حاجتك يا أزهر قال : يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه فضحك أبو جعفر وقالالدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فإني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب لي وقد أمرنا لك بأثني عشر ألف وتعال إذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك .

مدح بليغ

ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن برمك فأنشده :

سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا . . . ولكنني عبدٌ ليحيى بنِ خالد فقلت شراءً قال لا بل وراثةً . . . توارثني من والدٍ بعد والد

فأمر له بعشرة آلاف درهم .أهل الجود والكرم في الإسلام والجاهلية

أجواد الجاهلية الذين انتهى إليهم الجود كما أسلفنا – ثلاثة نفر حاتم بن عدي الطائي وهرم بن سنان المازني وكعب بن مامة الإيادي ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وكان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أوقد نارا في بقاع الأرض لينظر إليها المار ليلا فيبادر إليها وهو القائل لغلامه يسار :

أوقد فإن الليل ليلٌ قرّ . . . والريح يا موقد ريحٌ صرُّ

حتى يرى نارك من يمرّ . . . إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

وأما هرم ابن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه :

تراه إذا ما جئته متهلّلاً . . . كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وأما كعب بن مامة الإيادي فلم يأت له إلا ما ذكر عنه من إيثاره رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشا ونجا السعدي وناهيك بهذا الكرم الذي ما سبق إليه .

وأما أجواد الإسلام فأحد عشر رجلا في عصر واحد بعضهم قريب من بعض ولم يكن في زمنهم ولا بعدهم مثلهموأما أجواد الحجاز فثلاثة في عصر واحد وهم عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد ابن العاص .

وأجواد أهل البصرة خمسة في عصر واحد وهم عبد الله ابن عامر وعبد الله بن أبي بكر مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالم بن زياد وعبد الله بن معمر القرشي التيمي وطلحة الطلحات وهو طلحة ابن خالد الخزاعي .

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد وهم عتاب بن ورقاء الرياحي وأسماء بن خارجة وعكرمة الفياض . فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطريق ومن جوده أن أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس إن لي عندك يدا وقد احتجت إليها فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه فقال له ما يدك عندنا قال له رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يملأ من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائي حتى شربت فقال أجل إني لأذكر لك ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا فقال له الرجل والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية فكيف وقد ولد سيد المرسلين ثم شفع بك وبأبيك .

ومن جوده أيضا أن معاوية حبس عن الحسين بن علي رضي الله عنه صلاته حتى ضاقت عليه الحال فقيل له لو وجهت إلى عمك عبيد الله بن العباس لكفاك وقد قدم بألف ألف قال الحسين فما مقدارها عنده والله إنه لأجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر ثم وجه إليه رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف فلماقرأ عبيد الله كتابه وكان أرق الناس قلبا وألينهم عطفا اهملت عيناه ثم قال ويلك يا معاوية تكون لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضعف الحال وكثرة

العيال ثم قال لقهرمانه أحمل إلى الحسين نصف ما نملكه من ذهب وفضة ودابة وأخبره أني شاطرته فإن أقنعه ذلك وإلا فأرجع وأحمل إليه النصف الآخر قال فلما وصل الرسول إلى الحسين قال أنا لله ثقلت والله على عمي وما ظننت أنه يتسع بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل هذا في الإسلام .

ومن جوده أيضا أن معاوية أهدى إليه وهو عنده في شهر من هدايا النوروز حللاً كثيرة ومسكنا وآنية من ذهب وفضة ووجهها إليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو يطيل النظر فيها فقال : هل في نفسك منها شيء قال نعم والله أن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف فضحك عبيد الله فقال فشأنك بها فهي لك قال جعلت فداءك أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيغضب لذلك قال فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن وهو يحملها إليك ليلا فقال الحاجب والله إن هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه يعني معاوية فظن عبيد الله أنها مكيدة منه فقال دع هذا الكلام إنا من قوم نفي بما عقدنا ولا ننقض ما أكدنا وقال له رجل من الأنصار جعلت فداءك والله لو سبقت حاتما بيوم ما ذكرته العرب وأنا أشهد أن عفو جودك أكثر من وابله .ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الله بن أبي عمارة دخل على نخاس يعرض قيانا للبيع فشغفه حب واحدة منهن ولم يكن له جدة يتوصل بها إلى المشتري فشبب بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذلونه في ذلك فكان جوابه أن قال :

يلومني فيك أقوامٌ أجالسهم . . . فما أبالي أطار اللوم أم وقفا فانتهى خبره إلى عبد الله ابن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج وبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه أن تزينها وتحليها ففعلت وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال ما لا أرى ابن عمارة زائرا فأخبر بذلك فأتى مسلما فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال ما فعل بك حب فلانة قال حبها في اللحم والدم والمخ والعصب قال اتعرفها إن رأيتها قال لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمرها عبد الله أن تخرج إليه وقال له إنما اشتريتها لك ووالله ما دنوت منها فشأنك بها بارك الله لك فيها فلما وليَّ قال يا غلام احمل إليه مائة ألف درهم قال فبكى عبد الله وقال يا أهل البيت لقد خصكم الله بشرف ما خص به أحدا من صلب آدم فهناكم الله بهذه النعمة وبارك لكم فيها .

ولقد تقرر أن أجواد الإسلام أحد عشر جواداً ذكرت من جود بعضهم ما تيسر وقال صاحب العقد أنه جاء بعدهم طبقة أخرى وهي الطبقة الثانية .

فمنهم الحكم ابن أحطب قيل : سأله أعرابي فأعطاه خمسمائة دينار فبكىالأعرابي فقال له لعلك استقللت ما أعطيناك فقال لا والله ، ولكني أبكي لما تأكل الأرض منك ثم أنشد :

فكأن آدم حين حان وفاته . . . أوصاك وهو يجود بالحوباء

ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم . . . وكفيت آدم عيلة الأبناء

وحكي عن العتبي أنه قال : حدثني رجل قال : قدم علينا الحكم ابن أحطب وهو مملق فأغنانا فقلت وكيف أغناكم وهو مملق فقال علمنا المكارم فجاد غنينا على فقيرنا .

معن بن زائدة

ومنهم معن بن زائدة يقال فيه حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج وأتاه رجل يستحمله فقال يا غلام أعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعيراً وبعيراً وجارية ولو عرفت مركوبا غير هذا لأعطيتك .

يزيد بن المهلب

ومنهم يزيد بن المهلب قيل كان هشام بن حسان إذا ذكره قال : كانت السفن تجري في بحر جوده .

حكى الأصمعي أنه قدم على يزيد قوم من قضاعة فقال رجل منهم :

والله ما ندري إذا ما فاتنا . . . طلبٌ إليك من الذي نتطلبُ

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد . . . أحدٌ سواك إلى المكارم ينسب

فاصبر لعادتك التي عودتنا . . . أو ، لا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمرنا له بألف دينار .ومنهم يزيد بن حاتم

قيل إن ربيعة الرأي قدم مصر فأتى يزيد السلمي فلم يعطه شيئاً ثم عطف على يزيد بن حاتم فشغل عنه لأمر ضروري فخرج وهو يقول :

اراني ولا كُفران لله راجعاً . . . بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه فأخبر عنه أنه خرج وهو يقول كذا وأنشد البيت فأرسل من يجد في طلبه فأتى به فقال كيف قلت فأنشد البيت فقال : شغلناك عنك وعجلت علينا ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجليه وملئا مالا وقال ارجع بهما بدلا من خفي حنين .

ومنهم

أبو دلف

وأسمه القاسم وفيه يقول ابن أبي جبلة :

إنما الدنيا أبو دلفٍ . . . بين باديهِ ومحتضره

فإذا وليّ أبو دلفٍ . . . ولّت الدنيا على أثره

وقال :

إن سار سار المجد أو حلّ وقف . . . أنظر بعينيك إلى أعلى الشرف

هل ناله بقدرةٍ أو بكلف . . . خلقٌ من الناس سوى أبي دلف

فأعطاه خمسين ألف درهم .

ومنهم

خالد بن عبد الله القسري

قيل إنه كان جالسا في مظلة إذ نظر إلى اعرابي يخبُّ على بعيره مقبلا نحوه فقال لحاجبه إذا قدم لا تحجبه فلما قدم أدخله فسلم فقال :

أصلحك الله قلّ ما بيدي . . . فما أطيق العيال إذ كثروا

أناخ دهرٌ رمى بكلكله . . . فأرسلوني إليك وانتظروا

فقال خالد إذا أرسلوك إلي وانتظروا والله لتعودن إليهم بما يسرهم فأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة .

ومنهم

عدي بن حاتم

حكى صاحب العقد قال : دخل أبو دارة على عدي بن حاتم فقال إني مدحتك قال أمسك حتى آتيك بمال فإني أكرهألا أعطيك ثمن ما تقول هذه ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاثة أماء وفرسي هذا حبس في سبيل الله فامدحني على حسب ما أجزتك . . .

تذكر بعد نسيان

ومن غريب المنقول ما نقل عن المنصور وهو أنه وعد الهذلي بجائزة ونسي فحجا معا ومرا في المدينة النبوية ببيت عاتكة فقال الهذلي يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا دار عاتكة التي أتغزل

فأنكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك لأنه تكلم من غير أن يسئل فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي بإنشاد ذلك البيت من غير استدعاء فإذا فيها :

واراك تفعل ما تقول وبعضهم . . . مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم المنصور أنه أشار إلى هذا البيت فتذكر ما وعده به وأنجزه له واعتذر إليه من النسيان .ومثله ما حكي أن أبا العلاء المعري كان يتعصب لأبي الطيب المتنبي فحضر يوما مجلس المرتضى فجرى ذكر أبي الطيب فهضم من جانبه المرتضى فقال أبو العلاء لو لم يكن لأبي الطيب من الشعر إلا قوله : لك يا منازلُ في القلوب منازل لكفاه . فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج وبعد اخراجه قال المرتضى هل تعلمون ما أراد بذكر البيت قالوا لا قال عنى به قول أبي الطيب في القصيدة :

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ . . . فهي الشهادة لي بأني كامل

ومثله قصة السري الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا فان السري الرفاء كان من مداح سيف الدولة وجرى في مجلسه يوما ذكر أبي الطيب فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه فقال له السري أشتهي أن الأمير ينتخب لي قصيدة من غرر قصائده لأعارضها ويتحقق الأمير بذلك أنه أركب المتنبي في غير سرجه فقال له سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التي مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي . . . وللحب ما لم يبق مني وما بقي

قال السري فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكن رايته يقول في آخرها عن ممدوحه :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ . . . أراه غباري ثم قال له الحقفقلت والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت . ومثله ما حكاه ابن الجوزي في كتاب الأذكياء وهو من الغرائب في هذا الباب أن رجلا من طلبة العلم قعد على جسر بغداد يتنزه فأقبلت امرأة بارعة في الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي فاستقبلها شاب فقال لها رحم الله علي بن الجهم فقالت المرأة رحم الله أبا العلاء المعري وما وقفا بل سار مشرقا ومغربا قال الرجل فتبعت المرأة وقلت والله إن لم تقولي لي ما أراد بابن الجهم فضحكت ، قالت : أراد به قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر . . . جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وعنيت أنا بأبي العلاء قوله :

فيا دارها بالخيف إن مزارها . . . قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالنوادر الأذكياء

قلت وبالنسبة إلى هذا الذكاء المفرط الصادر من هؤلاء القوم يتعين أن نورد هنا نبذة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي . فمن ذلك ما روي عن منصور بن العباس وهو أنه جلس يوما في إحدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا يجول في الطرقات فأرسل إليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنه خرج في تجارة فأفاد فيها مالا كثيراً وأنه رجع بها إلى زوجته ودفع المال إليها فذكرت المرأة أن المال سرق من المنزل ولم ير نقبا ولا مسلقا فقال له المنصور منذ كم تزوجتها قال منذ سنة قال تزوجتها بكرا أم ثيبا قال ثيبا قال شابة أم مسة قال شابة فدعا له المنصور بقارورة طيب وقال تطيب بهذا فإنه يذهب همك فأخذها وانقلب إلى أهله فقال المنصور لجماعة من نقبائه اقعدوا على أبواب المدينة فمن مر بكم وشممتم فيه روائح الطيب فأتوني به ومضى الرجل بالطيب إلى بيته فدفعه إلى المرأة وقال هذا من طيب أمير المؤمنين فلما شمته أعجبها إلى الغاية فبعثت به إلى رجل كانت تحبه وهو الذي دفعت المال إليه فقالت له تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازا ببعض الأبواب ففاحت منه روائح الطيب فأخذ وأتى به إلى المنصور فقال له من أين استفدت هذا الطيب فتلجلج في كلامه فسلمه إلى صاحب شرطته وقال له : إن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه وإلا فاضربه ألف سوط فما هو إلا أن جرد وهدد حتى أذعن بردالدنانير وأحضرها كهيئتها ثم أعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير وقال له أرأيتك أن رددت إليك الدنانير أتحكمني في امرأتك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ها هي دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر .

المهدي والقاضي شريك

ومن ذلك ما روي عن المهدي وهو أن شريك بن عبد الله القاضي دخل عليه يوما فأراد المهدي أن يبخره فقال للخادم أحضر للقاضي عودا فذهب الخادم فجاء بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك فاضطرب شريك من ذلك وقال ما هذا يا أمير المؤمنين قال عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضي فقال شريك جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ثم أفاضوا في الحديث حتى نسي الأمر فقال المهدي لشريك ما تقول في رجل أمر وكيلا له أن يأتي بشيء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشيء فقال للخادم اضمن ما أتلفت .

التاجر الذي أنكر العقد

ومن ذلك أنه حكي أنه قدم رجل إلى بغداد ومعه عقد يساوي ألف دينار فأراد بيعه فلم يتفق فجاء إلى عطار موصوف بالخير والديانة فأودع العقد عنده وحج وأتى بهدية للعطار وسلم عليه فقال من أنت ومن يعرفك فقال أنا صاحب العقد فلما كلمه رفسه وألقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذب عليه إلا هذا فتحير الحاج وتردد إليه فما زاده إلا شتما وضربا فقيل له لو ذهبت إلى عضد الدولة لحصل لك من فراسته خير فكتب قصته وجعلها على قصبة ورفعها إليهفقال ما شأنك فقص عليه القصة فقال اذهب غدا واجلس في دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك في اليوم الرابع

فأوقف وأسلم عليك فلا ترد علي إلا السلام فإذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد ثم أعلمني بما يقول لك ففعل الحاج ذلك فلما كان في اليوم الرابع جاء عضد الدولة في موكبه العظيم فلما رأى الحاج وقف وقال السلام عليكم فقال الحاج وعليكم السلام ولم يتحرك فقال يا أخي تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تعرض علينا حوائجك فقال له : اتفق هذا ولم يزده على ذلك شيئا هذا والعسكر واقف بكماله فانذهل العطار وأيقن بالموت فلما أنصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الحاج وقال له : يا أخي متى أودعتني هذا العقد وفي أي شيء هو ملفوف فذكرني لعلي أتذكر فقال من صفته كذا وكذا فقام وفتش ثم فتح جرابا وأخرج منه العقد وقال : الله أعلم أنني كنت ناسيا ولو لم تذكرني ما تذكرت فأخذ الحاج العقد ومضى إلى عضد الدولة فأعلمه فعلقه في عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودي عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم أخذ الحاج العقد ومضى إلى بلاده .

ذكاء إياس ومثله ما نقل عن ذكاء اياس الذي سارت به الركبان قيل أن رجلا استودع أمين اياس مالا وخرج المودع إلى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فأتى اياسا فأخبره فقال له اياس أعلمته أنك أتيتني قال لا قال افنازعته عند غيري قال لا قال : فانصرف واكتم سرك ثم عد إلي بعد يومين فمضىالرجل ودعا إياس أمينه فقال قد حضر عندنا مال كثير أريد أن أسلمه إليك أفحصين منزلك ؟ قال نعم قال فأعد موضعا للمال وقوما يحملونه وعاد الرجل إلى أياس فقال انطلق إلى صاحبك فإن جحد فقل له إني أخبر القاضي بالقصة فأتى الرجل صاحبه فقال : تعطيني الوديعة أو أشكوك إلى القاضي وأخبره بالحال فدفع إليه المال فرجع الرجل وأخبر اياسا وقال أعطاني الوديعة وجاء الأمين إلى اياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال له لا تقربني بعد هذا يا خائن .

ذكاء في القضاء

ومثله أنه ولّي القضاء رجل مشهور الدين والذكاء المفرط فجاءه رجل استودع بعض الشهود كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف دينار فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة ظن أنه قد مات فهم بانفاق المال وخشي من مجيء صاحبه ففتق الكيس من اسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم وأعاد الخياطة كما كانت فقدر أن الرجل حضر إلى واسط وطالب الشاهد بوديعته فأعطاه الكيس بختمه فلما حصل في منزله فض ختمه فإذا في الكيس دراهم فرجع إلى الشاهد وقال له أردد علي مالي فإني أودعتك دنانير والذي وجدت دراهم فأنكر فاستدعى عليه إلى القاضي المتقدم ذكره فلما حضرا بين يديه قال الحاكم للمستودع منذ كم أودعك الكيس قال منذ خمس عشرة سنة فقال القاضي لصاحب الكيس أحضر لي الدراهم فأحضرها فقال القاضي للشهود اعتبرواتواريخ الدراهم فقرأوا سككها فإذا منها ما له سنتان وثلاث سنين ونحو ذلك فأمره أن يدفع له الدنانير فدفعها وعزله القاضي وأطاف به البلد واسقطه .

ومثله بل أغرب منه أن رجلا استودع رجلا مالا ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إياس وقال المدعي أني أطالبه بمال أودعته إياه وقدره كذا وكذا فقال له إياس ومن حضرك قال كان رب العزة حاضرا قال دفعته إليه في أي مكان قال في موضع كذا قال فاي شيء تعهده من ذلك الموضع قال شجرة عظيمة قال فانطلق إلى الموضع وانظر إلى الشجرة لعل الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك أو لعلك دفنت مالك تحت الشجرة

فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة فمضى الرجل مسرعا فقال إياس للرجل المدعى عليه اقعد حتى يرجع خصمك فجلس وإياس يقضي بين الناس ونظر إليه بعد ذلك ثم قال له يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكرها قال لا فقال له والله يا عدو الله أنك لخائن فقال أقلني أقالك الله يا أمير المؤمنين فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال إياس قد أقر بحقك فخذه .

ومن لطائف المنقول من كتاب الأذكياء أن

يحيى بن أكثم القاضي

ولّي القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة فاستصغره أهل البصرة فقال أحدهم كمسن القاضي فعلم يحيى أ ، ه استصغره فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل مكة يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولاه عمر بن الخطاب قاضيا على أهل البصرة قال فعظم في أعين أهل البصرة وهابوه .

فتوى أبي حنيفة

ومن المنقول من كتاب الأذكياء أن بعض اللصوص دخل بيتا ومعه جماعة تحت أمره ونهيه في القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقعوه للقتل فتدخل عليهم في إبقاء مهجته وأخذ ما في البيت بكماله فقال كبيرهم حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف أنه لا يعلم بهم أحدا فاصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا يقدر أن يتكلم لأجل اليمين فجاء إلى أبي حنيفة وأعلمه بحاله فقال له احضر أكابر حيك وأدين جيرانك وإمام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه قالوا نعم فقال اجمعوا داعريكم فادخلوهم الجامع ثم أخرجوهم واحدا واحدا وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك فإن كان ليس بلصه قال لا وإن كان لصه فليسكت فإذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه جميع ما سرق له .ومنه أن الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة فحضر يوما عند أمير المؤمنين فقال الربيع يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول إذا حلف الرجل على شيء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين كان ذلك جائزا وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة .

ومنه أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءني أعرابي ومعه قربة ملآنة فآبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت ما رأيك يا أعرابي في السويق فقال هات فأعطيته سويقا ملتوتا بزيت فجعل يأكل حتى أمتلأ ثم عطش فقال علّي بشربة فقلت بخمسة دراهم على قدح من ماء فاستردت الخمسة وبقي الماء .

ومنه أنه استودع رجل بالكوفة رجلا مالا وحج ورجع فطلبه فجحده وجعل يحلف له فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة فخلا به وأخبره بذلك فقال له الإمام لا تكلم أحدا بجحوده وكان الرجل يجالس أبا حنيفة فقال له وقد خلا لهم المكان إن هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك فأنصرف من عند

الإمام فجاء صاحب الوديعة فقال له الإمام أرجع إلى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسيا فذهب إليه وسأله فلم يحتج معهإلى علامة بل دفع إليه متاعه وتوجه بعد ذلك إلى أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أنفس من هذا .

ومنه أنه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يوما من الأيام يا إمام أريد التزويج إلى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفة : فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء إلى أبي حنيفة فقال إني سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى قال احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فإن الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت إليه دخل بها قال له أبو حنيفة ما عليك أن تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد إلى موضع بعيد فاكترى الرجل جملين وأحضر آلة السفر وما يحتاج إليه وأظهر أنه يريد الخروج من البلد في طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فأشتد ذلك على أهل المرأة وجاءوا إلى أبي حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة له أن يخرجها إلى حيث شاء فقالوا لم نصبر على ذلك فقال أرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى إن القوم قد سمحوا وأجابوا إلى أن يردوا عليك ما أخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى لا بد من زيادة آخذها منهم فقال أبو حنيفة أيما أحب إليك أن ترضى بما بذلوا لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولاالسفر بها حتى يقضى ما عليها من الدين قال فقال الفتى الله الله يا إمام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر .

ومنه أن رجلا جاء إلى أبي حنيفة وقال يا إمام دفنت مالا مدة طويلة ونسيت الموضع الذي دفنته فيه فقال الإمام ليس في هذا فقه فأحتال لك ولكن أذهب فصل الليلة إلى الغداة فإنك ستذكره إن شاء الله تعالى ففعل . فلم يمض إلا أقلب من ربع الليل حتى ذكر الموضع الذي دفن فيه فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره فقال قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي الليل كله فهلا أتممت ليلتك كلها شكراً لله .

ومنه أن بعضهم كانت له زوجة جميلة وكان يحبها حباً شديداً وتبغضه بغضاً شديداً ولم تزل المنافرة بينهما البتة وأضجره ذلك وطالت مدة تجرؤها عليه في الكلام فقال لها يوما أنت طالق ثلاث بتاتاً إن خاطبتني بشيء ولم أخاطبك بشيء مثله فقالت له في الحال أنت طالق ثلاثاً بتاتاً فابلس الرجل ولم يدر ما يجيب وخاف في جوابها من وقوع الطلاق وارسل إلى أبي جعفر الطبري فأخبره بما جرى فقال له إذا طالبتك بالجواب فقل لها أنت طالب ثلاثاً بتاتاً إن أنا طلقتك فتكون قد خاطبتها ووفيت بيمينك .ومن ذلك ما هو منقول عن الإفراط في ذكاء العرب

قيل سار مضر وربيعة وإياد وإنمار أولاد نزار ابن معد إلى أرض نجران فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأً قد رعى فقال البعير الذي رعى هذا أعور فقال ربيعة وهو أزور وقال إياد وهو أبتر وقال إنمار وهو شرود فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل على راحلة فسألهم عن البعير فقال مضر أهو أعور قال نعم قال ربيعة أو أزور قال نعم قال إياد أهو أبتر قال نعم قال إنمار أهو شرود قال نعم والله هذه صفات بعيري دلوني عليه فحلفوا أنهم ما رأوه فلزمهم وقال فكيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته فساروا حتى قربوا نجران فنزلوا بالأفعى الجرهمي فنادى صاحب البعير هؤلاء القوم وصفوا لي بعيري بصفته ثم أنكروه فقال الجرهمي

كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رايته يرعى جانبا ويترك جانبا فعلمت أنه أعور وقال ربيعة رأيت أحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها بشدة وطئه لأزواره وقال إياد عرفت بتره بأجتماع بعره ولو كان زيالا لتفرق وقال إنمار عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث فقال الأفعى ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من هم فأخبروه فرحب بهم وأضافهم وبالغ في إكرامهم .

ومنه أن عقبة الأسدي كان مشهوراً بمعالجة الجن وصدق العزائم فأتوه بجارية قد جنت في ليلة عرسها فعزم عليها فإذا هي قد سقطت فقال لأهلهااخلوني بها فأجابوه فلما خلا بها قال لها أصدقيني عن نفسك وعليّ خلاصك فقالت إنه كان لي صديق وأنا في بيت أهلي وأنهم أرادوا أن يدخلوني على زوجي ولست ببكر فخفت الفضيحة فهل عندك حيلة في أمري قال نعم ثم خرج إلى أهلها فقال أن الجني أجابني إلى الخروج منها فاختاروا من أي عضو واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لا بد أن يهلك ويفسد فإن خرج من عينها عميت وإن خرج من أذنها صمت وإن خرج من يدها شلت وإن خرج من رجلها زمنت وإن خرج من فرجها ذهبت بكارتها فقال أهلها أنا لم نجد شيئا أهون من ذهاب عذرتها فأخرج الشيطان منه فأوهمهم أنه فعل ذلك وأدخلت المرأة على زوجها .

ومن ذلك أن الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً على عملٍ فبلغه أنه قال :

اسقني شربةً أُلذّ عليها . . . واسق بالله مثلها ابن هشام

قال فاشخصه وعلم الرجل بالحال فضم إليه بيتا آخر فلما قدم على الإمام قال ألست القائل :

اسقني شربة أُلذّ عليها . . . واسق الله مثلها ابن هشام

قال نعم يا أمير المؤمنين أن لهذا ثانيا وهو :

عسلاً بارداً بماء سحاب . . . إنني لا أحبّ شرب المدامِ

فقال الإمام الله الله إرجع إلى عملك .

ومن لطائف هزليات الأذكياء أن الرشيد خرج متنزها فأنفرد عن العسكر ومعه الفضل بن الربيع فإذا هو بشيخ قد ركب حماراً ضعيفا وهو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل أين تريد يا شيخ ، فقال حائطا لي قال هل أدلك على شيء تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة فقال ما أحوجني إلى ذلك قال فخذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة فصير الجميع في قشر جوزة واكتحل من العشر فإنه يذهب رطوبة عينيك فاتكأ الشيخ على ظهر حماره وضرط ضرطة طويلة ثم قال خذ هذه الضرطة أجرة وصفك فإن نفعتنا زدناك فضحك الرشيد يكاد يسقط عن ظهر دابته . ومن الجد المفحم أن رجلا من اليهود قال للإمام علي رضي الله عنه ما دفنتم نبيكم حتى قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال الإمام أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .

ومنه أن المتوكل قال يوما لجلسائه نقم المسلمون على عثمان أشياء منها أن الإمام أبا بكر رضي الله عنه لما تسنم المنبر هبط عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمرقاة ثم قام عمردون مقام أبي بكر وصعد عثمان ذروة المنبر فقال عباد : ما أحدٌ أعظم منه عليك من عثمان يا أمير المؤمنين قال وكيف ويلك قال لأنه صعد ذروة

المنبر ولو أنه كلما قام خليفة نزل مرقاة ونزل عثمان كمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر فضحك المتوكل ومن حوله .

ذكاء طبيب

ومن المنقول عن أذكياء الأطباء أن جارية من جواري الرشيد تمطت فلما أرادت أن تمد يدها لم تطق وحصل فيها الورم فصاحت وآلمها فشق على الرشيد وعجز الأطباء عن علاجها فقال له طبيب حاذق يا أمير المؤمنين لا دواء لها إلا أن يدخل إليها رجل أجنبي غريب فيخلو بها ويمرخها بدهن نعرفه فأجابه الخليفة إلى ذلك رغبة في عافيتها فأحضر الطبيب الرجل والدهن وقال أريد من أمير المؤمنين أن يأمر بتعريتها حتى يمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن فشق ذلك على الخليفة وأمره أن يفعل وأضمر في نفسه قتل الرجل وقال للخادم خذه وأدخله عليها بعد أن تعريها فعريت الجارية وأقيمت فلما دخل عليها وقرب منها وسعى إليها وأومأ بيده إلى فرجها ليمسه غطت الجارية فرجها بيدها التي قد كانت عطلت حركتها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمي جسمها بانتشار الحرارة الغريزية فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال يدها في فرجها فلما غطت فرجها قال لها الرجل الحمد لله على العافية فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد وأعلمه بالحال وما اتفق فقال الرشيد للرجل فكيف نعمل في رجل نظر إلى حرمنا فمد الطبيب يده إلى لحية الرجل فانتزعها فإذا هي ملصقة وإذاالشخص جارية وقال يا أمير المؤمنين ما كنت لأبذل حرمك للرجل ولكن خشية أن أكشف لك الخبر فيتصل بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج لأني أردت أن أدخل على قلبها فزعا شديداً ليحمي طبعها ويقودها إلى تحريك يدها وتمشي الحرارة الغريزية في سائر أعضائها بهذه الواسطة فسرى على الرشيد ما كان وقر في صدره من الرجل وأجزل عطيته .

ذكاء متطفل

ومن المنقول عن أذكياء المتطفلين قال أبو عمرو الجهضمي كان لي جار طفيلي وكان من أحسن الناس منظرا وأعذبهم منطقا وأطيبهم رائحة فكان من شأنه إذا دعيت إلى وليمة يتبعني فيكرمه الناس من أجلي ويظنون صحبتي له فاتفق أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن أولاده فقلت في نفسي كأني برسول الأمير قد جاءني وكأني بالطفيلي قد تبعني والله لئن فعل لأفضحنه فأنا على ذلك إذا جاءني رسول الأمير يدعوني فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت فإذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني بالتأهب فتقدمت وتبعني فلما حضرت الموائد كان معي على المائدة فلما مدَّ يده ليأكل قلت حدثني درسة بن زياد عن أبان ابن طارق عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقا وخرج مغيراً فلما سمع الطفيلي ذلك قال أنفت لك والله يا أبا عمرو من هذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه وقد بخلت بطعام غيرك علىمن سواك ثم ما استحييت حتى حدثت عن درسة بن زياد وهو ضعيف وعن أبان بن طارق وهو متروك الحديث والمسلمون على خلاف ما ذكرت فإن حكم السارق القطع وحكم المغير أن يعزر على ما يراه الإمام وأين أنت من حديث حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الواحد يكفي الأثنين وطعام

الأثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية وهو إسناد صحيح ومتن صحيح متفق عليه قال أبو عمرو والله لقد أفحمني ولم يحضرني جواب فلما خرجنا فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي وسمعته يقول :

ومن ظنّ ممن يلاقي الحروب . . . بأن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

ذكاء متلصص ومن المنقول عن أذكياء المتلصصين أن بعض التجار قال احتال علي رجل بحوالة فكان يأتيني كل يوم ويأخذ قدر نفقته إلى أن نفدت وصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندي وكان يراني أخرج من صندوق لي فأعطيه فقال لي يوما إنَّ قِفْلَ الرجل صاحبه في سفره وأمينه في حضره وخليفته على حفظ ماله وإن لم يكن وثيقا تطرقت الحيل إليه وأرى قفلك هذا وثيقا فقل لي ممن ابتعته لابتاع مثله لنفسي فقلت منفلان الإقفالي قال فما شعرت يوما وقد جئت إلى دكاني وتقدمت إلى الصندوق لأخرج منه شيئاً من الدراهم ففتحته فإذا ليس فيه شيء فقلت لغلامي وهو عندي أمير غير متهم هل أنكرت شيئا من أحوال الدكان قال لا قلت ففتش هل ترى نقبا أم في السقف حيلة قال لا قلت فاعلم أن الذي كان في الصندوق قد ذهب فقلق الغلام فأمسكته وقمت مفكرا وتأخر الرجل عني فتيقظت له وذكرت سؤاله عن القفل وقلت للغلام أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله فقال أحمل الدراريب دفعتين وثلاثة حتى أضعها في محلها وهكذا أصنع في غلقها قلت فمن تدع عند الدكان إذا نقلت الدراريب قال : أتركه خاليا قلت فمن ههنا ذهبت فمضيت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل وقلت له : أجاءك إنسان منذ أيام واشترى منك مثل هذا القفل قال نعم رجل من صفته كذا وكذا وأعطاني صفة صاحبي فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء ودخل الدكان واختبأ ومعه مفتاح القفل وأخذ المال ومكثر طول الليل إلى الصباح فلما فتح الغلام وحمل الدراريب ليضعها ي محلها خرج وأنه ما فعل ذلك غلا وقد خرج من المدينة فخرجت من البصرة ومعي قفلي ومفتاحي فقلت ابتدىء بواسط فلما صعدت طلبت خانا أنزله فلما دخلت الخان وجدت قفلا مثل قفلي على باب بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله قال رجل قدم أمس من البصرة قلت ما صفته فوصف لي صاحبي فما شككت أنه هو وأن الدراهم في بيته فاكتريت بيتا إلى جانبه ورصدته حتى انصرف قيمالخان ففتحت القفل ودخلت البيت فوجدت كيسي بعينه فأخذته وخرجت ووضعت قفله على بابه ونزلت على القور في السفينة وانحدرت إلى البصرة ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار فرجعت إلى منزلي بمالي كله .

ذكاء صبي

ومن المنقول عن أذكياء الصبيان أنه وقف إياس بن معاوية وهو صبي على قاضي دمشق ومعه شيخ فقال أصلح الله القاضي هذا الشيخ ظلمني وأكل مالي فقال القاضي ارفق بالشيخ ولا تستقبله بمثل هذا الكلام فقال إياس إن الحق أكبر مني ومنه ومنك قال اسكت قال وإن سكت فمن يقوم بحجتي قال تتكلم فوالله لا تتكلم بخير فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له فبلغ ذلك الخليفة فعزل القاضي وولى إياساً مكانه .

من أذكياء النساء

ومن المنقول عن أذكياء النساء حكى المدائني قال خرج ابن زياد في فوارس فلقوا رجلاً ومعه جارية لم ير

مثلها في الحسن فصاحوا به خل عنها وكان معه قوس فرمى أحدهم فهابوا الإقدام عليه فعاد ليرمي فانقطع الوتر فهجموا عليه وأخذوا الجارية فهرب واشتغلوا عنه بالجارية ومد بعضهم يده إلى أذنها وفيها قرط وفي القرط درة يتيمة لها قيمة عظيمة فقالت وما قدر هذه الدرة إنكم لو رأيتم ما في قلنسوته من الدر لاستحقرتم هذه فتركوها واتبعوه وقالوا له ألق ما في قلنسوتك وكان فيها وتر قدأعده فنسيه من الدهش فلما ذكره ركبه في القوس ورجع إلى القوم فولى القوم هاربين وخلوا الجارية .

ذكاء الحيوان

وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكياء نبذة عن الحيوان الذي كان بذكائه شبه ذكاء الآدميين . فمن ذلك أن بعض الكتاب مر بمقبرة فإذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب أن يعلم خبره فليمض إلى قرية كذا وكذا فإن فيها من يخبره فسال الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقيل له ما يعلم ذلك إلا شيخ هنا قد جاوز المائة فسأله فقال كان هنا ملك عظيم الشأن وكانيحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوما إلى بعض متنزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاءوا باللبن إلى الطباخ ونسي أن يغطيه بشيء واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشوق أفعى فكرعت في ذلك اللبن ومجته في الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها إلى الأفعى وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ما صنعت الأفعى ووافى الملك من الصيد في آخر النهار فقال يا غلمان ادركوني بالثريدة فلما وضعت بين يديه أومأت الخرساء فلم يفهم ما تقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت إليه ولجّ في الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عني ومد يده إلىاللبن بعد ما رمى إلى الكلب ما كان يرمي إليه فلم يلتفت الكلب إلى شيء من ذلك ولم يلتفت إلى يغر الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن في فيه وثب إلى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع في اللبن فسقط ميتها وتناثر لحمه وبقي الملك متعجبا من الكلب وفعله فأومأت الخرساء إليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب فقال الملك لحاشيته هذا الكلب فداني بنفسه وقد وجب أن أكافئه وما يحمله ويدفنه غيري فدفنه وبنى عليه القبة التي رأيتها .

من أخبار الحمقى

قلت قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي مختلفة الأنواع وقد تعين أن نورد له هنا نبذة لطيفة من كتاب الحمقى والمغفلين لأنه قال في كتاب الحمقى : ما وضعت ذلك إلا لأن النفس قد تمل من ملازمة الجد وترتاح إلى بعض المباح من اللهو كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الحنظلة ساعة وساعة . وعن علي رضي الله عنه أنه قال روحوا القلوب بطرائف الحكم فإنها تمل كما تمل الأبدان . وكان رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم فإذا أكثروا وثقل عليه الحديث قال ان الأذن بحاجة وإن القلوب خمصة هاتوا من أشعاركم وحديثكموقال أبو الدرداء رضي الله عنه إني لاستجم نفسي بشيء من الباطل كراهة أن أحملها من الحق ما يملها . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحدث أصحابه ساعة ثم يقول حمضونا فيأخذ في أحاديث العرب وأشعارهم ومثله عن الزهري ومالك بن دينار . وكان شعبة يحدث فإذا رأى أبا زيد قال له إيه أبا زيد .

إستعجمت دارُ نُعمٍ ما تكلِّمُنا . . . والدارُ إن كلمتنا ذاتُ أخبار

ووصف رجل عند ابن عائشة فقيل هو جدّ كله فقال ابن عائشة لقد أعان على نفسه وقصر لها طول المدى ولو فكهها بالانتقال من حال إن حال نفس عنها ضيق العقد ورجع إلى الجد بنشاط . وقال الرشيد : النوادر تستحدّ الأذهان وتفتق الآذان . وقال آخر لا يحب الملح إلا ذكران الرجال ولا يكرهها إلا مؤنثوهم وقال الشاعر :

أروح القلب ببعضِ الهزلِ . . . تجاهلاً منيّ بغير جهل

أمزحُ فيه مزحَ أهلِ الفضل . . . والمزحُ أحياناً جلاءُ العقلنوادر الحمقى

قال ابن الجوزي في كتاب الحمقى أن الأحنف بن قيس قال إذا رأيتم الرجل طويل القامة عظيم اللحية فأحكموا عليه بالحمق . وقال معاوية لرجل كفى أن نشهد عليك بالحمق ما نراه من طول لحيتك . وقال آخر وتلطف ما شاء : من طالت لحيته تكوسج عقله . وقال أصحاب الفراسة : من طالت قامته ولحيته وجبت تعزيته في عقله . وقالوا إذا كان الرجل طويلا طويل اللحية وأضيف إلى ذلك أن يكون صغير الرأس فأحكم عليه بالحمق . وقال زياد ما زادت لحية الرجل على قبضة إلا كان نقصانا من عقله وقال الشاعر :

إذا عرُضت للفتى لحيةٌ . . . وطالت وصارت إلى سرّته

فقد ضاق عقل الفتى عندنا . . . بمقدار ما زاد من لحيته

وقال ابن الرومي :

إن تطل لحيةٌ عليك وتعرُض . . . فالمخالي مخلوقةٌ للحمير

علّق الله في عذاريك مخلا . . . ةً ولكنّها بغير شعيروقال بعضهم : صارم الأحمق فليس له خير من الهجران . وقيل مكتوب في التوراة من اصطنع إلى أحمق معروفا فهي كخطيئة مكتوبة عليه . وقال سفيان الثوري هجران الأحمق قربة إلى الله تعالى . فمن ضرب المثل بحمقه وتغفله هبنقة واسمه يزيد وكان قد جعل في عنقه قلادة عظام وودع وقال أخشى أن أضيع من نفسي ففعلت ذلك لأعرفها فحولت أمه القلادة إلى عنق أخيه فلما أصبح ورآها قال يا أخي أنا أنت وضل له بعير فجعل يقول من وجده فهو له فقيل له فلم تنشده قال : لحلاوة الظفر . واختصمت بنو طفاوة وبنو راسب في رجل ادعى كل من الفريقين أنه منهم فقال هبنقة حكمه أن يلقى في الماء فإن طفا فهو من طفاوة وإن رسب فهو من راسب فقال الرجل إن كان الحكم هكذا فقد زهدت في الطائفتين .

ومنهم

أبو عيشان

وهو رجل من خزاعة كان يلي سدانة البيت فاجتمع مع قصي بن كلاب بالطائف على الشراب فلما سكر اشترى منه قصي ولاية سدانة البيت بزق من خمر وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة وقال يامعاشر قريش هذه مفاتيح أبيكم إسماعيل ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم وأفاق أبو غيشان فندم غاية الندم فقيل أحمق من أبي غيشان وقال شاعرهم :

باعتْ خزاعةُ بيتَ الله إذ سكرتْ . . . بزقّ خمرٍ فبئستْ صنعة البادي

باعت سدانتها بالخمر وانقرضتْ . . . عن المقام وظلّ البيت والنادي

ومنهم

ربيعة البكاء

سمي البكاء لأنه دخل على أمه وهي تحت زوجها فبكى وصاح أتقتل أمي فقالوا أهون مقتول أمٌ تحت زوج فذهبت مثلا .

ومنهم

حمزة بن بيض

قال يوما لغلامه أي يوم صلينا الجمعة بالرصافة فافتكر الغلام ساعة ثم قال يوم الثلاثاء . ومنهم حجى قال بعضهم كان من أذكياء الناس وإما كان بينه وبين قوم عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان وقيل كان من كبار الحمقى والمغفلين . قيل إنه دخل الحمام وخرج منه فضربته ريح باردة فمست خصيتيه فإذا إحداهما قد تقلصت فرجع إلى الحكمام وجعل يفتش الناس فقالوا له مالك فقال سرقت إحدى بيضتي ثم إنه دفئني الحمام وحمي فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكراً لله وقال كل شيء لا تسرقه اليد لا يفقد . واشترى يوما دقيقا وحمله على حمال فلما دخل الحمال في الزحام هرب فرآه حجى بعد أيام فاستتر منه لئلا يطالبه بالأجرة . وكان لهم جارية تسمى عميرة فضربتها ذات يوم أمه فصاحت الجارية فاجتمع الناس على الباب فخرج إليه فقال ما لكم عافاكم الله إنما هي أمي تجلد عميرة . ومنهم

ابن الجصاص قيل إنه كان يقصد التباله خيفة من الوزير ابن الفرات . فمن المنقول من حمقه أنه كان مع الوزير في مركب ومعه بطيخة فأراد أن يعطيها للوزير ويبصق في البحر فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في البحر هذا من المنقول عما ظهر عنه من التباله وإلا فقد روي عنه أنه قال لما ولي ابن الفرات الوزارة قصدني قصدا قبيحاً وأنفذ العمال إلى ضياعي وبسط لسانه بثلبي ونقصني في مجلسه فدخلت يوما داره فسمعت حاجبه وقد وليت يقول : هذا بيت مال يمشي على وجه الأرض ليس له من يأخذه فقلت هذا من كلام صاحبه وقد كان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عيناً سوى الجواهر والذخائر وغير ذلك فسهرت في ليلتي أفكر في أمري معه فوقع في نفسي في الثلث الأخير من الليل أن ركبت إلى داره على الفورفوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها فقال البواب من هذا قلت ابن الجصاص فقال ليس هذا وقت وصول الوزير نائم فقلت عرف الحجاب أني حضرت في مهم فعرفهم فخرج إلي أحدهم فقلت الأمر أهم من ذلك فأيقظه وعرفه عني ما قلت لك فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني فارتاع لدخولي وظن أني جئته برسالة من الخليفة أو حدثت حادثة وهو متوقع لما أورده عليه فنظر إلي وقال ما الذي جاء بك في هذا الوقت قلت خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئت إلا في أمر يخصني ويخص الوزير ولم تصلح مفاوضته إلا على خلوة فسكن روعه وقال لمن حوله انصرفوا فمضوا فقال هات فقلت أيها الوزير إنك قصدتني بأقبح قصد وشرعت في هلاكي وإزالة نعمتي وفي إزالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض وقد جعلت هذا الكلام عذرا بيني وبينك فإن نزلت تحت حكمي في الصلح وإلا قصدت الخليفة في هذه الساعة وحولت إليه ألف دينار وأنت تعلم قدرتي عليها وأقول له : خذ هذا المال وسلم إلي ابن الفرات وأسلمك لمن أختاره للوزارة ويقع في نفسي أنه يجيب إلى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن ولا أعتمد إلا على بعض

كتابك فإنه لا يفرق بينك وبينه إذا رأى المال حاضرا فيسلمك في الحال إليه ويفرغ عليك العذاب بحضوري ويأخذ منك المال المعين وأنت تعلم أن حالك تفي بها ولكنك تفتقر بعدها ويرجع الملإلي وأكون أهلكت عدوي وشفيت غيظي وزاد محلي بتقليدي وزيراً فلما سمع هذا الكلام سقط ي يده وقال يا عدو الله أو تستحل ذلك فقلت بل عدو الله من استحل مني هذا فقال وما تريد فقلت تحلف الساعة بما استحلفك من الأيمان المغلظة أن تكون معي لا علي في صغير أمري وكبيره و لاتنقص لي رسما ولا تضع مني ، بل تبالغ في رفعتي ولا تبطن علي فقال وتحلف أنت أيضاً لي بمثل هذا اليمني على جميل النية وحسن الطاعة فقلت أفعل فقال : لعنك الله والله لقد سحرتني واستدعى بدواة فعملنا نسخة يمين وحلف كل منا عليها فلما أردت القيام قال لي يا أباع عبد الله لقد عظمت في نفسي والله ما كان المقتدر يفرق بيني وبين أحسن كتابي إذا رأى المال فليكن ما جرى بيننا مطويا فقلت سبحان الله فقال إذا كان غدا فسر إلى المجلس فترى ما أعاملك به فقمت فأمر الغلمان أن يسيروا في خدمتي بأجمعهم إلى داري ولما أصبحت جئته فبالغ في الإكرام والتعظيم وأمر بانشاء الكتب إلى النواحي بإعزاز وكلائي وحماية أملاكي فشكرته وقمت فأمر الغلمان أيضا بالمشي بين يدي والحجاب والناس يتعجبون من ذلك ولم يعلم أحد ما السبب وما حدثت بهذا الحديث إلا بعد القبض عليه .وذكر ابن الجوزي في الباب السابع من كتاب الحمقى والمغفلين أن جماعة من العقلاء صدر عنهم أفعال الحمقى وأصروا على ذلك مستصوبين لها فصاروا بذلك الاصرار حمقى ومغفلين . فأول القوم ابليس لعنه الله تعالى فإنه صوّب نفسه وخطأ حكمة الله تعالى ورمى عن قوس الاعتراض في عدم السجود لآدم عليه السلام ثم قال أنظرني إلى يوم يبعثون فصارت لذته في أيقاع العاصي في الذنب كأنه يغبط ونسي عقابه الدائم فلا حمق كحمقه ولا عفلة كغفلته ولله در القائل في ابليس :

عجبتُ من ابليس في غفلته . . . وخبثِ ما أظهر من نيَّته

تاهَ على آدم في سجدةٍ . . . وصار قواداً لذريته الثاني فرعون في دعواه الربوبية وافتخاره بقوله أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي فافتخر بساقية لا هو أجراها ولا يعرف مبدأها ولا منتهاها ونسي أمثالها مما ليس تحت قدرته وليس في الحمق أعظم من ادعائه الألوهية وقد ضربت الحكماء بذلك مثلا فقالوا دخل أبليس على فرعون فقال له من أنت قال ابليس قال ما جاء بك قال جئت متعجبا من جنونك قال كيف قال أنا عاديت مخلوقا مثلي فامتنعت من السجود له فطردت ولعنت وأنت تدعي أنّك إله ، هذا والله هو الحمق والجنون البارد .ومن عجيب الحمق والتغفل اتخاذ الاصنام باليد والاقبال على عبادته والإله ينبغي أن يفعل ولا يُفعل . وكذلك نمروذ في بنائه الصرح ثم رميه بنشابة يريد أن يقتل أله السموات والأرض . وكذلك بنو اسرائيل حين جاوزوا البحر وقد أنجاهم الله تعالى من تلك الأهوال واستنقذهم من فرعون قالوا : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وكذلك قول النصارى إن عيسى إله وابن إله ثم يقرون أن اليهود صلبوه وهذا غاية البله والعفلة . وكذلك ارافضة يعلمون إقرار علي ببيعة أبي بكر وعمر واستيلاده الحنفية من سبي أبي بكر وتزويجه أم كلثوم ابنته من مر وكل ذلك دليل على رضاه ببيعتهما ثم في الرافضة من يسبهما وفيهم من يكفرهما وكل ذلك يطلبون به حب علي بزعمهم وقد تركوا حبّهم وراء ظهورهم .

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاءني رجل فقال إنيّ حلفت بالطلاق أن لا أكلم في هذا

اليوم من هو أحمق وكلم رافضيا أو نصرانيا لقلت له حشت فقال له ابن الديناري أعزك الله ولم صارا أحمقين قال لأنهما خالفا الصادقين .

أما الصادق الأول فعيسى عليه السلام قال للنصارى إني عبد الله وقال أن اعبدوا الله فقالوا لا وعبدوه جهلا وحمقا . والصادقالثاني الإمام علي رضي الله عنه فإنه قال عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أبي بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما .

ومن المنقول عن حمق النساء أن الأمين لما حوصر قال لجاريته غني فغنت :

أبكى فراقهُمُ عيني فأرّقها . . . إن التفرّق للأحباب نكباء

فقال لعنك الله أما تعرفين غير هذا فغنَّت :

وما اختلف الليل والنهار ولا . . . دارت نجوم السماء في فلك

إلا لينتقل السلطان من ملكٍ . . . قد غيب تحت الثرى إلى ملك

فقال لها قومي فقامت فعثرت بقدح بلور فكسرته فقال قائل قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ولما قتله المأمون دخل على زبيدة ليعزيها به فقالت إن أردت أن تسليني فتغدّ عندي فتغدى عندها فأخرجت له من جواري الأمين من تغنيه فغنت :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه . . . كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

فوثب المأمون مغضبا فقالت له زبيدة أحرمني الله أجره إن كنت دسسته إليها أو لقنتها فصدقها وإنصرف .ومن ذلك أن المعتصم لما فرغ من بناء قصر له أدخل الناس عليه فاستأذن إسحاق بن إبراهيم في الإنشاد فأذن له فأنشد :

يا دار غيَّرك البلى ومحاك . . . يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم وجميع من حضر المجلس وتعجبوا كيف يصدر من مثل إسحاق هذا التغفل المفرط ولم يجتمع بعد ذلك بالدار اثنان .

ومن لطائف المنقول عن الحمقى والمغفلين أن عيسى بن صالح تولى قنسرين والعواصم للرشيد وكان من الحمق على جانب عظيم قال بعضهم أتاني رسوله بالليل فأمرني بالحضور فتوهمت أن كتابا جاءه من أمير المؤمنين في مهم احتاج فيه إلى حضور مثلي فركبت إلى داره فلما دخلت سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر فقالوا لا فامضيت إلى الخدم فسألتهم فقالوا مثل مقالة الحجاب فصرت إلى الموضع الذي هو فيه فقال لي أدخل ليس عندي أحد فدخلت فوجدته على فراشه فقال : أعلم أني سهرت الليلة مفكراً في أمر إلى ساعتي هذه فقلت وما هو الأمر أصلح الله الأمير قال اشتهيت أن يصيرني الله حورية في الجنة ويجعل زوجي يوسف الصديق فطال لذلك فكري فقلت له هلا اشتهيت محمداً صلى الله عليه وسلم أن يكون زوجك فإنه سيد الأنبياء عليهم السلام فقال لا تظن أني لم أفكر في هذا قد فكرت فيه ولني كرهت أن أغيظ عائشة رضي الله عنها .ومن لطائف المقول عن المغفلين من الأعراب قيل صلى إعرابي خلف بعض الأئمة في الصف الأول وكان اسم الأعرابي مجرما فقرأ الإمام والمرسلات عرفاً فلما بلغ إلى قوله تعالى ألم نهلك الأولين تأخر الأعرابي إلى الصف الأخير فقال ثم نتبعهم الآخرين فرجع إلى الصف الأوسط

فقال كذلك نفعل بالمجرمين فولى هاربا وهو يقول والله ما المطلوب غيري .
ومثله صلى أعرابي خلف أمام صلاة الصبح فقرأ الإمام سورة البقرة وكان الأعرابي مستعجلا ففاته مقصوده فلما كان من الغد بكر إلى المسجد فابتدأ فقرأ سورة الفيل فقطع الأعرابي الصلاة وولى هارباً وهو يقول أمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها إلى نصف النهار واليوم تقرأ سورة الفيل ما أظنك تفرغ منها إلى الليل . ومنه كان أعرابي قائما يصلي فأخذ قوم يصفونه بالصلاح وهو يسمع فقطع الصلاة وقال وأنا مع هذا صائم . ومنه دخل خالد بن صفوان الحمام وفي الحمام رجل ومعه ابنه فأراد الرجل أن يعرف خالداً ما عنده من البيان والنحو فقال يا بني ابدأ بيداك ورجلاك ثم التفت إلى خالد فقال له يا أبا صفوان هذاكلام قد ذهب أهله فقال خالد هذا كلام ما خلق الله له أهلا .ومن لطائف المقول عن المغفلين من الشعراء أن بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة وقد نما خبر المهدي أنه مات وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك فقال رافعا صوته :
مات الخليفة أيُّها الثقلانِ
فقالوا هذا أشعر الناس فإنه نعى الخليفة إلى النس والجن في نصف بيت ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم إليه فقال :
فكأنني أفطرتُ في رمضان
قال فضحك الناس وصار شهرة في الحمق .
ومثله أن سيف الدولة بن حمدان أنصرف من الحرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل معهم رجل شامي فأنشده :
وكانوا كفأرٍ وسوسوا خلف حائطٍ . . . وكنت كسنَّورٍ عليهم تسقَّفا
فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببكائه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكي قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملي بكيت فقال سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النسل يكون له ذلك النظم كم كنت أملت قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف .ومن المنقول عن المغفلين على الإطلاق قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست إليهم وهم ينقصون من علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقمت من عندهم مغضبا فرأيت شيخاً جميلا يصلي فظننت به الخير فجلست إليه فقلت له يا عبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون علي بن أبي طالب وينقصونه وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال لي يا عبد الله لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي فقمت من عنده وخلفت لا أقيم بها .
ومن ذلك أن رجلاً سأل بعضهم وكان من الحمق على الجانب عظيم فقال إيما أفضل عندك معاوية أو عيسى بن مريم فقال ما رأيت سائلا أجهل منك ولا سمعت بمن قاس كاتب الوحي إلى نبي النصارى ، ومن ذلك أن لصا تسور روزنة وكان اللص مغفلا فنظر من خلال الروزنة فوجد رجلا وزوجته وهي تقول له يا رجل من أين اكتسبت هذا المال العظيم فقال لها كنت لصا وكنت إذا تسورت روزنة بيت صبرت إلى أن

يطلع القمر فإذا طلع اعتقت الضوء الذي في الروزنة وتدليت بلا حبل وقلت شولم شولم فنزلت فآخذ جميع ما في البيت ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت إلا ظهرت لي ثم أقول شولم شولم وأصعد في الضوء ولا ينتبه أحد من أهل البيت وأذهب بلا تعب ولا كلفة فسمع اللص ذلك فصبر إلى أن طلع القمر ونام أهل البيت فتعلق في ضوء الروزنة فوقع وتكسرتأضلاعه فقام إليه صاحب البيت وقبض عليه وأسلمه إلى صاحب الشرطة . ومنهم

يسوق الحمير ويعدها

من كان يسوق عشرة حمير فركب واحداً منها وعدها فإذا هي تسعة حمير فنزل وعدها فإذا هي عشرة فقال أمشي وأربح حمارا خير من أن أركب وأخسر حماراً فمشى حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته . ومنهم من مات بعض أقاربه فقيل له لم لا تبعث جنازته فقال هذا الكلام ما يقوله عاقل أكون منسيا فأذكر بنفسي ومن ذلك أن بعض المغفلين سمع رجلا ينشد :

وكان بنو عمّي يقولون مرحباً . . . فلما رأوني معدما مات مرحبُ فقال : كذب الشاعر مرحب قتله علي بن أبي طالب لم يمت إلا قتيلا ، ومنه من باع داراً وكان يؤذن بباب مسجد بالقرب منها فأنسى أنه باعها فصلى ورجل إليها ودخل من الباب فصاحت النسوة وقلن له يا رجل اتق الله فينا فقال اعذروني فإني ولدت في هذا الدار ولم أذكر البيع . ومنهم

أخبار وطرف

من رأى جاريته تحت رجل يجامعها فقال لها يا جارية ما حملك على هذا فقالت له يا مولاي حلفني بحياة رأسك وأنت تعلم صدق محبتي لك فسكت . ومنهم من سمع أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة فصام إلى الظهر وقال يكفيني ستة أشهر .ومنهم من جاء إلى الجب ونظر فيه فرأى خيال وجهه فذهب إلى أمه وقال يا أمي في الجبّ لص فجاءت الأم فنطلعت فيه فرأت خيال وجهها فقالت صدقت ومعه قحبة . ومنهم من دعا فقال اللهم اغفر لي ولأمي ولأختي ولامرأتي فقيل له لم تركت ذكر أبيك قال لأنه مات وأنا صبي لم أدركه ، وقال رجل لرجل كم يوم في هذا الشهر فنظر وقال والله لست من أهل هذه المدينة ، ومن ذلك أن هشام ابن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدمه يتأخر ، فقال له هشام ما هذا ، قال : يا سيدي فارِه ولكنّه شبّهك بيطار كان يعالجه فنفر . ومنهم من قيل له عندك مال جزيل وليس لك إلا والدة عجوز وإن مت ورثتك فأفسدت مالك فقال إنها لا ترثني قيل وكيف : قال : لأن أبي طلقها قبل أن يموت . ومنهم من جاء إليه جماعة يسألونه في كفن لجار له مات فقال ما عندي الآن شيء ولكن عودوني في وقت آخر قالوا أفنُملِّحه إلى أن يتيسر عندك شيء . ومنهم من تقدم يصلي المغرب بجماعة فأطال القيم فلما فرغ من الصلاة سجد سجدتي السهو ولم يكن سها فقيل نحن أنكرنا عليك طول القراءةفما الجواب عن سجدتي السهو ولم تكن سهوت فقال ذكرت أني صليت بكم على غير وضوء فسجدت للسهو .

ومن ذلك أن عبداً كان بين أثنين في الشركة فجعل أحدهما يضربه فلامه شريكه فقال إنما ضربت حصتي . ومنهم من قيل له كيف صنعتم في رمضان فقال اجتمعنا ثلاثين فأنفذناه في يوم واحد واسترحنا منه . قال الأصمعي خرج جماعة من بني غفار ومعهم رجل مغفل فأصابتهم ريح في البحر أيسوا معها من الحياة فأعتق

كل واحد منهم مملوكا أو مملوكة فقال ذلك الرجل اللهم إنك تعلم أني ليس لي مملوك ولا مملوكة ولكن امرأتي طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم .

معلمي الصبيان

قال ابن الجوزي في آخر كتاب الحمقى والمغفلين أن المعلمين للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكسيراً لقلة العقل وإبرازاً للحماقة . وقال عدَلَ عقل امرأة سبعين حائكا وعدل عقل حائك سبعين معلما وسبب قلة عقل المعلم أنه مع الصبيان بالنهار ومع النساء بالليل . وكان يحيى بن أكثم لا يقبل شهادة المعلم .وقيل لصبي ما لنا نراك كثير الحمق فقال لو لم أكن كذلك لكنت ولد زنا . وقيل لمعلم مالك تضرب ذا الصبي ولم يذنب قال إنما ضربته قبل أن يذنب لئلا يذنب . وقال الجاحظ مررت بمعلم وهو يقرىء صبيا ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك عن إخوتك فيكيدوا لك كيدا فقلت له ويحك قد أدخلت سورة في سورة . فقال نعم عافاك الله إذا كان أبوه يدخل شهراً في شهر فأنا أيضا أدخل سورة في سورة ولا آخذ شيئا ولا ابنه يتعلم شيئا انتهى . ما تخيرته من كتاب الأذكياء والحمقى والمغفلين .

سمير الوليد بن يزيد

ومما تخيرته من سلوان المطاع لابن ظفر أن الوليد ابن يزيد لما بلغه أن ابن عمه يزيد ابن الوليد بن عبد الملك قد شرد عنه القلوب واستجاش عليه أهل اليمن ونازعه في ملكه احتجب عن سمّاره ودعا في بعض الليالي خادما فقال له انطلق متنكرا حتى تقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس فإذا رأيت كهلا رث الهيئة يمشي مشياً هويناً وهو مطرق فسلّم عليه وقل له في أذنه : أمير المؤمنين يدعوك فأن أسرع في الإجابتة فائتني به وإناسترابت فدعه واطلب غيره حتى تجد رجلا على الشرط الذي ذكرت لك فانطلق الخادم فأتاه برجل على الشرط فلما دخل الرجل على الوليد حياه بتحية الخلافة فأمره الوليد بالجلوس والدنو منه وصبر إلى أن ذهب روعه وسكن جأشه ثم اقبل عليه فقال له أتحسن المسامرة للخلفاء فقال نعم يا أمير المؤمنين فقال الوليد إن كنت تحسنها فأخبرنا ما هي فقال يا أمير المؤمنين المسامرة أخبار لمنصت وأنصات لمخبر ومفاوضة فيما يعجب ويليق فقال له الوليد أحسنت لا أزيدك امتحانا فقل أسمع لقولك فقال الكهل نعم يا أمير المؤنين ولكن المسامرة صنفان لا ثالث لهما أحدهما الإخبار بما يوافق خبرا مسموعا والثاني الإخبار بما يوافق غرضاً من أغراض صاحب المجلس وإني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقة فأنحو نحوها وألزم أسلوبها فقال الوليد صدقت وها نحن نقترح لك ما تقتفيه قد بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى في ضرر ملكنا فأثر سعيه وشق ذلك علينا فهل سمعت بذلك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين فقال له الوليد قل الآن على حسب ما سمعت وعلى ما ترى من التدبير فقال يا أمير الممنين بلغني عن أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير وخرج بهم متوجها إلى مكة حرسها الله تعالى استصحب عمرو بن سعيد بن العاص وكان عمرو قد انطوى على فساد نية وخبث طويّة وطماعية في نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك إلا أنه كان يحترمه ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو بن سعيد فاستأذنأمير المؤمنين في العود إلى دمشق فأذن له فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة واستولى على دمشق ودعا الناس إلى خلع عبد الملك فأجابوه إلى ذلك وبايعوه

وحصّن بعد ذلك سور دمشق وحمى حوزتها فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير وبلغه مع ذلك أن والي حمص قد نزع يده من الطاعة وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف فأحضر وزراءه فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم دمشق ملكنا قد استولى عليها عمر بن سعيد وهذا عبد الله ابن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحرث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير وهذه المضرية بسيوفها تطالبنا بقتلى المرج فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم فقال لهم عبد الملك مالكم لا تنطقون هذا وقت الحاجة إليكم فقال أفضلهم وددت أن أكون طيراً على عود من أعواد تهامة حتى تنقضي هذه الفتن فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام أمرهم بلزوم موضعهم وركب منفردا وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ففعلوا وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف البدن سيىء الحال وهو يجمع سمّاقا فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديثه ثم قال له أيها الشيخ ألك علم بنزول هذا العسكر فقال الشيخ وما سؤالك عنه فقال عبد الملك أني أردت الانتظام في سلكه فقال له أني أرى عليك سمة الرياسة فينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الرأيفإن الأمير الذي أنت قاصده قد انحلّت عرا ملكه والسلطان في اضطراب أموره كالبحر إذا هاج فقال عبد الملك أيها الشيخ قد قوي عليّ جذب نفسي إلى صحبة هذا الأمير فهل لك أن ترشدني إلى رأي أتفق به عنده فلعله يكون سبب قربي منه فقال الشيخ أن هذه النازلة التي نزلت بهذا الأمير من النوازل التي لا تنفذ فيها العقول وإني لأكره أن أرد مسألتك بالخيبة فقال له عبد الله قبل جزاك الله خيراً فقال الشيخ إن هذا الخليفة خرج إلى قتال عدوه والإرادة غير قابلة لمراده والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يرد من قصده من محاربة ابن الزبير ووثوب عمرو بن سعيد على منبره واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته فإذا قصدت هذا الأمير وانتظمت في سلكه أنظر في أمره فإن رأيته قد أصر على قصده ابن الزبير فأعلم أنه مخذول فأجنبه وإن رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الأول فأرج له النصر والسلامة . فقال عبد الملك يا شيخ وهل رجوعه إلى دمشق إلا كمسيره إلى ابن الزبير فقال الشيخ إن الذي أشكل عليك لواضح وها أنا أزيل عنك اللبس وهو أن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان في صورة ظالم لأن ابن الزبير لم يطعه طاعة قط ولا وثب له على ملكة فإذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم لأنه نكث بيعته وخان أمانته ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيهمن قبله بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله وعمرو عليها متعد ، ومن الأمثال سمين الغضب مهزول ووليّ الغدر معزول وسأضرب لك مثلا يشفي النفس ويزيل اللبس . زعموا أن ثعلبا كان يسمّى ظالما وكان له جحر يأوي إليه وكان مغتبطاً به فخرج يوما يبتغي ما يأكل ثم رجل فوجد فيه حية فانتظر خروجها فلم تخرج فعلم أنها استوطنته وذلك أن الحية لا تتخذ جحراً بل إذا أعجبها جحر اغتصبته وطردت من به من الحيوان ولهذا قيل فلان أظلم من حية فهذا ظلمها ولما رأى ظالم أن الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى فانتهى به السير إلى جحر حسن الظاهر في أرض منيعة ذات أشجار ملفتة وماء معين فأعجبه وسأل عنه فقالوا هذا الحجر يملكه ثعلب اسمه مفوض وأنه ورثه عن أبيه فناداه ظالم فخرج إليه ورحب به وأدخله إلى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية فرق له مفوض وقال له الموت في طلب الثأر خير من الحياة في العار والرأي عندي أن تنطلق معي إلى مأواك الذي أخذ منك غصبا

حتى أنظر إليه فلعلي أهتدي إلى مكيدة تخلص بها مأواك فانطلقا معا إلى ذلك الجحر فتأمله مفوض وقال لظالم اذهب معي فبت الليلة عندي لأنظر ليلتي هذه فيما يسنح من الرأي والمكيدة ففعلا ذلك وبات مفوض مفكرا وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته وطيب هوائه وحصانته ما اشتد به حرصه عليه وطفق يدبر في حيلة اغتصابه ونفي مفوض عنهفلما أصبحا قال مفوض لظالم أني رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر والماء فأصرف نفسك عنه وهلم أعينك على احتفار جحر في هذا المكان المشتهى فقال ظالم هذا غير ممكن لأن لي نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا فلما سمع مفوض ما قاله ظالم وما تظاهر به من الرغبة في وطنه قال له أني أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبا ونربط منه حزمتين فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام فأخذنا قبس نار واحتملنا الحطب والقبس إلى مسكنك فنجعل الحزمتين في بابه نضرم النار فإن خرجت الحية احترقت وإن لزمت الجحر قتلها الدخان فقال له ظالم هذا نعم الرأي فذهبا واحتطبا حزمتين ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام فأخذ قبسا فعمد ظالم إلى إحدى الزمتين فأزالها إلى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الآخرة إلى باب مسكن مفوض فسده بها سدا محكما وقدر في نفسه أن مفوضا إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته فإذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاماً أدخره لنفسه فعول ظالم على أنه يقتات به إن حاصره مفوض وهو من داخل وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأي ثم إن مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب فظن أن ظالما قد حمل الحزمتين تخفيفا عنه وأنه سبقه إلى مسكنه الذي فيه الحية اشفاقا على مفوض فشق ذلك عليه وظهر له من الرأي أن يبادر إليه ويلحقه ليحمل معه الحطب فوضع القبس بالقرب من الحطب ولم يشعر أن الباب مسدود به لشدة الظلمة فما بعد عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لحقا به فعادوتأمل الباب فرأى الحطب قد صار ناراً فعلم مكيدة ظالم ورآه قد احترق ن داخل الجحر وحاق به مكره فقال هذا الباحث على حتفه بظلفه ثم إن مفوضا صبر حتى انطفأت النار فدخل جحره فأخرج جثة ظالم فألقاها واستوطن جحره آمنا فهذا المثل ضربته لك لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد في بغيه ومخادعته عبد الملك وحيلته في أخذ دار ملكه وتحصينها منه وهذا كفعل ظالم مع مفوض والله أعلم فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب أمثاله سر بذلك سروراً عظيما ثم أقبل عليه فقال جزيت عني خيراً وأني أريد أن تجعل بيني وبينك موعداً وتعرفني مكانك لألقاك به بعد يومي هذا فقال الشيخ وما تريد بذلك فقال له عبد الملك إني أريد مكافأتك على ما كان منك فقال له الشيخ إني أعطيت الله عهداً أن لا أقبل منة لبخيل فقال عبد الملك ومن أين علمت أني بخيل فقال لأنك أخرت صلتي مع القدرة فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك فقال عبد الملك أقسم بالله لقد ذهلت ثم نزع سيفه وقال له أقبل مني هذا واحرص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ إني لا أقبل صلة ذاهل فدعني وربي الذي لا يذهل ولا يبخل فهو حسبي فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه وعلم فضله في دينه فقال له أنا عبد الملك فأرفع حوائجك إلي فقال الشيخ وأنا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدانفانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فأنجح الله قصده وانتصر على أعدائه فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجح عقله واستظرف أدبه واستحسن محاضرته وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له : من جهل مثلك في

رعيته ضاع . فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين إن الملوك لا تعرف إلا من تعرف إليها ولزم أبوابها فقال له الوليد صدقت ثم أمر له بصدقة معجلة وعهد إليه في ملازمته فكان يتمتع بأدبه وحكمته إلى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهورخبر سابور بن هرمز وقيصر

ومما تخيرته من عجائب سلوان المطاع قيل لما عزم سابور ابن هرمز على الدخول إلى بلاد الروم متنكراً نهاه نصحاؤه وعقلاء وزرائه وحذروه من ذلك فعصاهم وكان يقال أوزر الناس وزراء الأحداث من الملوك وعشاق الفتيان من المشايخ ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيرا كان له ولأبيه من قبله وكان من أدهى الناس في الحزم وسداد الرأي واختلاف الأديان ولغاتها وكان من المتبحرين في العلوم والمبرزين بالمكايد فسلم إليه في سفره وأمر أن لا يتجاوزه في السير ولا يبعد عنه بحيث يراعي جميع أحواله في ليله ونهاره فتوجها نحو الشام ولبس ذلك الوزير زي الرهبان وتكلم بلسانهم وتحرف بصناعة الطب الجرائحي وكان معه الدهن الصيني الذي إذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة واندملت فكان ذلك الوزير في مسيره نحو بلاد الروم يداوي الجراحات بأدوية يضيف إليها يسيراً من ذلك الدهن فتبرأ بسرعة وإذا عني بأحد من ذوي الأقدار داواه بذلك صرفا فيبرأ على الفور ولا يأخذ على ذلك أجرة فانتشر ذكره في بلاد الروم وعقدت عليه الخناصر وأقبل عليه الناس وكان مع إنفراده عن سابور يراعي جميع أحواله فلم يزالا كذلك حتى طافا جميع الشام وقصدا القسطنطينية فقدماها فذهب الوزير إلى البطريرك وتفسير هذا الأسم أبو الآباء فاستأذن عليه فأذن له وسأله عن قصده فأخبره أنه هاجر إليه ليتشرف بخدمته ويدخلفي أتباعه ثم أهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته وأختبره فوجده عالما بدينهم بل مبرزا فأعجب به غاية الإعجاب وجعل الوزير يتأمل أحوال البطرك ليصحبه بما يلائمه وينفق عنده فوجده مائلاً إلى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار وكان الوزير في ذلك غاية فأخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة فصار البطرك لم يطق عن الوزير صبرا لأنه حلا لعينه وحل بقلبه وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ على ذلك عوضا فعظم قدره في الناس هذا وهو يتعاهد أحوال سابور في كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة وحضر الناس إليها على طبقاتهم فأراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر وعلى رتبته في قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه وتزيا بزي ظن أنه يتستر به ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من أن يطرق بلاده وتحسن له همته العالية وحدَّة الشبيبة ذلك ، صوّر سابور في مجلسه وعلى ستور بيته وعلى فرشه وفي آلات أكله وشربه ، ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر في مجلسه وأكل مع من حضر أتوا بالشراب في كؤوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم وكان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخص فرأى عليه مخايل الرياسة ولمازاد في تأمله وصل إليه دور الكاس فتأمل الصورة التي على الكأس وراجع النظر في سابور فما شك أنالصورة التي على الكأس وضعت على مثاله وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك الكأس في يده إمساكا طويلاً ثم قال رافعا صوته إن هذه الصورة التي على هذا الكأس تخبرني أخباراً عجيباً فقيل له وما الذي تخبرك فقال تخبرني أنّ الذي هي مثال له معنا في مجلسنا هذا ثم نظر إلى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ظنه فبلغ ذلك

قيصر فادناه وقربه وسأله فأخبره أن سابور معه في مجلسه وأشار إليه فأمر قيصر بالقبض عليه وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل لم تقبل فقال ذلك المتفرس أيها الملك لا تقبل قوله فإنه سابور لا محالة فهدده قيصر بالقتل فاعترف أنه سابور فحبسه قيصر مكرما وأمر أن يعمل له من جلود البقر صورة بقرة وتطبق عليه الجلود سبع طبقات ويتخذ لها باب وتجعل لها كوة لأجل المبال ويستقر سابور بها وتجمع يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة يمكنه معها تناول ما يعمل له من طعام وشراب وغير ذلك فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد فارس ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من ذوي البأس والشدة يحملونها وصرف أمره إلى المطران وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة تحمل بين يديه فإذا نزل العسكر نزلت الصورة التي فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور وسار قيصر محتفلا بجنوده وعساكره وقد عزم على خراب فارس ولما جد السير قال وزير سابور للبطرك أيها الأب إنما استفدت بخدمتك الرغبة في مصالح الأعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عنمجهود وجر منفعة إلى مضطر وقد علمت اجتهادي في مداواة الجرحى وإن نفسي تنازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا لا غير فلعل الله تعالى يستنقذ بي نفسا صالحة أو يشوقني إلى مداواة جريح من العسكر ليتقدم قلبي بهذه المثوبات ، فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت أنني لا أستطيع فراقك فكيف تطالبني بالسفر البعيد قال فلم يزل وزير سابور يتضرع إلى البطرك إلى أن استحى منه وسمح له بذلك وزوده وكتب معه إلى المطران يخبره برتبته عنده وأن يحله في أعلى المراتب ويستضيء برأيه إذا أشكل عليه أمر فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله في قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده وصار الوزير يستميله بما يميل إليه ويطرفه في كل ليلة بطرف الأخبار رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس في أحاديثه ما يريد أن يعلمه به ويبطنه من الأسرار فكان سابور يجد بذلك راحة عظيمة وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكايد رتبها عندما قدم على المطران منها أنه امتنع عن مؤاكلة المطران وأخبره أنه لا يخلط بطعام البطرك غيره لأجل بركته فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو ذلك الزاد الذي معه وأنفرد بالأكل وحده فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتل والسبي وتغوير المياه وقطع الأشجار وخراب القرى والحصون وهو مع ذلك يواصل السير ليستولي على دار ملك سابور قبل أن يشعروا فيملكوا عليهم رجلا منهمولم يكن للفرس هم إلا الفرار من بين يديه والاعتصام بالمعاقل والحصون فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار ولم يكن عندها قوة ولا منعة في دفعه أكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها وكل ذلك فهمه سابور من كنايات الوزير في محاضراته للمطران ولكن لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر في تلك الصورة فلما علم سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف على فتح البلد عيل صبره وساء ظنه ويئس من الحياة فلما جاء الموكل بطعامه قال له إن هذه الجامعة قد نالت مني منالا ضعفت قوتي عن احتماله فإن كنتم تريدون بقاء نفسي فنفسوا عني منها واجعلوا بينها وبين يدي وعنقي خرقا من الحرير فجاء الموكل بالطعام إلى المطران وأعلمه بالذي قاله سابور فسمعه الوزير وعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما أراد سابور فلما جنَّ الليل وجلس لمسامرة المطران قال له ذكرت الليلة

حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا وددت أنني كنت حدثت به البطرك قبل سفري فقال له المطران إني أرغب إليك أن تحدثني الليلة أيها الراهب الحكيم فقال الوزير حبا وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور ويفهم الغرض ويستأنس فقال اعلم أيها المطران أنه كان ببلادنا فتى وفتاة ليس في زمانهما أحسن منهما اسم الفتى عين أهله واسم الفتاة سيدة الناس وكانا زوجين مؤتلفين ولا يبتغي أحدهما بالآخر بدلا ثم أن عين أهله جلس يوما مع أصحابه فتذاكروا النساء إلى أن ذكر أحدهم امرأة أطنب في وصفهاوبالغ ، وذكر أن اسمها سيدة الذهب فوقع في قلب عين أهله حبها فسأل الواصف عن منزلها فذكر أنها ببلد بالقرب من بلده ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها فانطلق إلى البلد التي هي ساكنة بها وسأل عن منزلها فعرفه ولم يزل يتردد إلى بابها حتى رآها فرأى منظرا حسناً ولكن لم تكن بأحسن من امرأته بل ضرورات النفس حب التنقل في الأحوال ولازم عين أهله المعاودة إلى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلها وكان جافيا غليظ الطبع شديد البطش يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه ومزق ثيابه واستعان بجماعته عليه فاحتملوه إلى داخل دار الذئب وربطوه إلى سارية في الدار ووكل به عجوزاً مقطوعة اليد جدعاء عوراء شوهاء فلما جن عليه الليل أوقدت تلك العجوز النار بالقرب منه وجعلت تصطلي فذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز فبكى بكاء شديداً فأقبلت عليه العجوز وقالت له ما ذنبك الذي أوجب هذا فقال عين أهله ما علمت لي ذنباً فقالت العجوز هكذا قال الفرس للخنزير . وكذب فقال عين أهله للعجوز وما الذي كذب فيه الفرس عند الخنزير فقالت له العجوز ذكروا أن فرساً كان لأحد الشجعان فكان يبالغ في إكرامه ويحسن إليه ويعده لمهماته ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به في صحبته كل يوم فيزيل لجامعه وسرجه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى في كل مرج مخصب حتى يرتفع النهار فيرده وهو على يدهشم أنه خرج يوماً إلى المرج راكباً ونزل عنه فلما استقرت قدماه على الأرض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع وطلب أن يرعى فمنعه اللجام ورام أن يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يضطجع فمنعه الركاب فبات بشر فلما أصبح ذهب يبتغي فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه إلى جهته الأخرى فإذا هو بعيد القعر فسبح فيه كان حزامه ولببه من جلد ما اتقن في دبغه فلما خرج أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا واشتد عليه فورم موضع اللبب والحزم واشتد به الضرر وقوي به الجوع ومضت عليه أيام فتزايد ضعفه وعجز عن المشيء فمر به خنزير فهم بقتله فرآه ضعيفا جداً فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من أضرام اللجام واللبب والحزام وسأله أن يصنع معه معروفاً ويخلصه مما هو فيه فسأله الخنزير عن الذنب الذي أوقعه في تلك العقوبة فزعم الفرس أن لا ذنب له فقال له الخنزير كذبت ولو صدقت خلصتك مما أنت فيه ، ومن جهل ذنوبه وأصرّ عليها لم يرج فلاحه فحدثني يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك فصدقه الفرس وأخبره بجميع أمره وكيف كان عند فارسه مكرما وكيف فارقه وما لقي في طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزيرفقال الخنزير قاتلك الله لقد كفرت النعم وأكثر الذنوب ، منها خلافك لفارسك الذي بالغ في الإحسان إليك وأعدك لمهماته ومنها كفرك إحسانه ومنها تعديك على ما ليس لك

وهو السرج واللجام ومنها اساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست من أهله ولا لك عليه مقدرة ومنها إصرارك على ذنبك وكنت قادراً على العود إلى فارسك قبل أن يوهنك اللجام والجوع والحزام واللبب بالألم فقال الفرس للخنزير قد عرفت ذنبي فانطلق عني ودعني فإني أستحق أضعاف ما أنا فيه فقال الخنزير بعد أن عرفت وعدت على نفسك باللوم واخترت لها العقوبة على جهلها تعين الشروع في خلاصك ثم إن الخنزير قطع عذرا اللجام فسقط وقطع الحزام ففس عن الفرس قال فلما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز قال لها صدقت فيما نطقت قد أدبتيني فتأدبت ثم أعلمها بخبره ثم رغبها في أن تمنَّ عليه بالخلاص كما فعل الخنزير بالفرس فقالت العجوز الذي سألتني لا يمكنني فعله الآن ولعلي أجد لك فرجا ومخرجا عن قريب فعليك بالصبر وأمسكت العجوز عن مخاطبته قال فلما انتهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال إني أحس في أعضائي فتوراً وفي رأسي صداعا ولم أقدر الليلة على إتمام الحديث ولعلي أكون الليلة القابلة نشيطا إلى ذلك فنهض إلى مضجعه فجعل سابور يتأمل حديث الوزير ويتأمل الأمثال التي ضربها له ودسها في المسامرة ففهم أنالوزير كنَّى عن سابور بعين أهله وكنَّى عن مملكته بسيدة الناس وكنَّى عن بلاد الروم بسيدة الذهب وكنَّى عن قيصر بالذئب الذي ذكر أنه بعل سيدة الذهب وكنَّى عن طموح نفس سابور إلى مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى رؤية سيدة الذهب وكنَّى عن أخذ قيصر له بقبض الذئب على عين أهله وكنَّى عن نفسه وحاله وعجزه بالعجوز وأنه ساع في خلاصه فاستروح سابور ريح الفرج فسكنت نفسه ووثق بوزيره فلما كانت الليلة القابلة وتعشى المطران وأخذ مقعده للمسامرة قال الوزير أيها الحكيم الراهب أخبرني عن ما كان من أمر عين أهله وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا فقال الوزير سمعا وطاعة فشرع في حديثه وقال إن عين أهله أقام على حالته عدة أيام وكل يوم يدخل عليه الذئب ويهدده بالقتل ويزيده قيداً ثم إن العجوز جاءته في بعض الليالي وأضرمت لها بالقرب منه ناراً وجلست تصطلي ثم أقبلت على عين أهله وقالت له ساعدني على خلاصك بالصبر فقال لها عين أهله وهان على الطليق ما لقي الأسير فقالت العجوز حداثة سنك قصرت فهمك عن إدراك الحقائق أفتسمع حديثاً لك فيه سلوة قال نعم فقالت العجوز ذكروا أن بعض التجار كان له ولد وكان مشغوفا به فأتحفه بعض معارفه بخشف غزال فعلق قلب الصبي بذلك الخشف الصغير فكان لا يفارقه وجعلوا في جيده حليا نفيساً وربطوا له شاة ترضعه حتىاشتد ونجم قرناه فأعجبه بريقهما وسوادهما وقال لأهله ما هذا الذي ظهر في رأس الخشف قالوا قرناه وقالوا له إنهما سيكبران ويطولان فقال الغلام لأبيه إني أحب أن أرى غزالا كبيرا له قرنان كاملان فأمر أبوه بعض الصيادين أن يصيد له غزالا كبيرا فأحضر له غزالا قد استكمل قوة ونموا فأعجب الغلام وحلى جيده أيضا فتأنس الغزال الكبير بالخشف الصغير للمجانسة الطبيعية فقال الخشف للغزال ما كنت أظن لي في الأرض شكلا قبل أن أراك فقال له الغزال إن أشكالك كثيرة فقال الخشف وأين هي فأخبره الغزال بتوحشها وانفرادها في فلوات الأرض وتناسلها فارتاح الخشف لذلك وتمنى أن يراها فقال له الغزال هذه أمنية لا خير لك فيها لأنك نشأت في رفاهية من العيش ولو تحصلت على ما تمنيت لندمت فقال الخشف للغزال لابد من اللحاق بأشكالي فلما رأى الغزال أن الخشف غير راجع لم يجد بدا من قضاء اربه لحرمة الألفة فرصدا وقتا وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الخشف فرح ومرح

ومر يعدو ولا يلتفت إلى ما وراءه فسقط في اخدود ضيق قد قطعه السيل فانتظر أن يأتيه الغزال فيخلصه فلم يأته وأما ولد التاجر فإنه تنكد لفقد الخشف والغزال وأشفق أبوه فاستدعى كل من يعاني الصيد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الخشف والغزال ووعدهم بالمكافأة على ذلك وركب التاجر معهم وفرق أتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من يأتي من الصيادين وانطلق هو وعبيده حتى دخلوا الصحراء فرأوا على بعد رجلا منكبا على شيء بين يديه فأسرعوا نحوه فرأوا صيادا قد أوثق غزالا كبيرا وقد عزم على ذبحهفتأمله التاجر فإذا هو الغزال الكبير الذي لولده فخلصه من الصياد وأمر عبيده ففتشوه فوجدوا معه الحلي الذي كان على الغزال فسأله كيف ظفر به وأين وجده فقال إني بت في هذه الصحراء ونصبت شركا ومكثت قريبا منه فلما أصبحت مر عليَّ الغزال ومعه خشف يعدو ويمرح في جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الغزال يمشي حتى حصل فيه فقنصته وقصدت به المدينة فلما بلغت هذا الموضع ظهر لي أني مخطىء في إدخال هذا الظبي إلى المدينة حيا لعلمي أنه إذا رؤي حيا طولبت بما كان عليه من الحلي فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما فهذا خبري فقال له التاجر لقد جنى عليك طمعك الخيبة فماذا عليك لو اطلقته وخلصت ما كان عليه من الحلي ثم إن التاجر أرسل الغزال إلى ولده مع أحد عبيده وقال للصياد ارجع معي فاريني الجهة التي رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به إلى تلك الجهة فسمع من قريب صوته فصاح به التاجر فعرف الخشف صوته فصرَّت فسمع التاجر الصوت فأدركه فإذا هو في ذلك الأخدود ملقى فأخذوه ووهب التاجر للصياد ما رضي به وصرفه ورجع التاجر بالخشف إلى ولده فكملت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الخشف والغزال فلم يقدروا على ذلك فبينما الخشف نائم في كناسه إذ دخل عليه الغزال فايقظه وعاتبه على نفاره منه فقال الخشف أما أنت الذي غدرت وقد علمت احتياجي في غربتي إلى معاونتك فقال له والله ما أخرني عن ذلك إلاوقوعي في شرك الصياد وقص عليه القصة فقبل عذره وعادا إلى الألفة كما كانا فلما سمع عين أهله خطاب العجوز فهم كنايتها عن عجزها في تخليصه أمسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحديث سكت فقال له المطران أيها الحكيم الراهب ما هذا السكوت فقال الوزير قد عاودني ذلك الفتور الذي أجده في أعضائي فقال المطران لا تفعل فإن ذلك يشق علي فقال الوزير نعم أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ثم اندفع يحدثه قال وبات عين أهله تلك الليلة في أضيق الأحوال ولما اصبح دخل عليه الذئب فنال منه وهدده بالقتل وخرج من عنده فجعل يعلل نفسه بقية نهاره ويمنيها بالفرج فلما أقبل في تلك الليلة فأقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال للعجوز لم أحظ في هذه الليلة بمؤانستك فقالت له قد جرحت قلبي لقولك لي هان على الطليق ما لقي الأسير لو اعتبرت باطن حالي لعلمت أن أسري اشد من أسرك فاستمع لي أحدثك . واعلم أيها الفتى أني كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لي محبا فكنت معه في ارغد عيش وولدت له أولادا كثيرة فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه فقتله وقتل أولادي الذكور وباعني أنا وبناتي فاشتراني هذا الفارس الذي عدا عليك واحتملني إلى هذه البلدة وأساء إلى وكلفني من العمل ما لاأطيق ولي معه على هذه الحالة سبع سنين ثم فررت منه فظفر بي فقطع يديد وعود عسفي ومضرتي وقد عزمت على تخليصك الليلة وما أشك أنه يقتلني وجل قصدي ذلك لأجل الراحة مما أنا فيه ولأجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج إليك وأنا في غاية الحيرة من الفزع والجزع

ثم أنها فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكينا لتقتل نفسها فقال لها عين أهله وإن تركتك تقتلين نفسك فقد شاركتك في دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومي اذهبي معي لكي ننجو معا أو نعطب معا فقالت إن كبر سني وضعف بصري يمنعاني من اتباعك فقال لها عين أهله إن الليل متسع والموضع الذي أنا فيه قريب ولي قوة على حملك فقالت له العجوز إذا عزمت على هذا فإني لا أحوجك إلى حملي وخرجا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا حيث أمنا فجزاها عين أهله خيرا على ما صنعت واتخذها أمّا ، فهذا ما بلغني من ذلك فقال المطران ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت أني لا أفارقك أبدا ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ففهم أن الخشف مثل سابور وأن الغزال الكبير مثل الوزير وأن خروج الخشف مع الغزال إلى الصحراء وحصول الخشف في الأخدود مثل لصحبة سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به إلى المدينة ليلا وأن المدينة قريبة منهما وأنه يحمله إن عجز عن المشي فأيقن سابور بالفرجولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ بها الطعام للمطران وبها الموكلون بقبة سابور نائمون ينتظرون الطعام فنحيل إلى أن ألقى في الطعام مرقدا قوي الفعل ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به العادة فلم تكن إلا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير إلى فتح باب البقرة واستخرج سيده وأزال الجامعة عن عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتهيا معا إلى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك سابور ثم عرفهم نفسه فابتدروا لهما وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم فإذا ضربت نواقيس النصارى الضرب الأول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم فإذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون بأجمعهم فامتثلوا أمره ثم أن سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم ما يلي الجهة التي فيها أخبية قيصر فلما ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا من كل جهة وقصد سابور أخبية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهموهم وأخذ سابور قيصر أسيرا وغنم جميع ما في عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينج من جنوده إلا اليسير ثم عاد سابور إلى مدينته ودار مملكته فقسم الغنائم بين أهل عسكره وأحسن إلى حفظة ملكه وفوض جميع أموره إلى الوزيرثم أنه أحضر قيصر فلاطفه وأكرمه وقال له إني مبق عليك كما أبقيت علي وغير مجاز لك على التضييق ولكن آخذك بإصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك ما أسارى الفرس . فضمن له جميع ذلك ووفى به فلما أتم سابور ما أراد من ذلك كله أحسن إلى قيصر وأطرفه وجهزه إلى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد إلى طاعته

عفاف ومروءة

. . ومن غرائب المنقول وعجائبه عن الأمير بدر الدين أبي المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب أنه قال حكى الأمير شجاع الدين محمد الشيرازي متولي القاهرة في الأيام الكاملية سنة ثلاث وستمائة قال بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير فحضر

له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال فقلنا له هؤلاء أولادك فقال نعم وكأني بكم وقد أنكرتم بياضهم فقلنا له نعم : قال هؤلاء أمهم إفرنجية أختها في أيام الملك الناصر صرح الدين وأنا شاب فقلنا وكيف أخذتها قال حديثي بها عجيب قلنا أتحفنا به قال : زرعت كتانا في هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائةدينار ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك فحملته إلى القاهرة فلم يصل إلى أكثر من ذلك فأشير علي بحمله إلى الشام فحملته فما زاد على تلك القيمة شيئا فوصلت به إلى عكا فبعت بعضه بالأجل والبعض تركته عندي واكتريت حانوتا أبيع فيه على مهلي إلى حيث انقضاء المدة فينما أنا أبيع إذ مرت بي امرأة إفرنجية ونساء الأفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب فأتت تشتري مني كتانا فرأيت من جمالها ما بهرني فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت إلي بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرَّة الأولى فتكررت إلي وعلمت أني أحبها فقلت للعجوز التي معها أنني قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة فقالت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأ ، ت وهو فقلت لها : قد سمحت بروحي في حبها واتفق الحال على أن أدفع خمسين دينارا صورته فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت نحن الليلة عندك فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلواء فجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل ولم يبق غير النوم فقلت في نفسي أما تستحي من الله وأنت غريب تعصي الله مع نصرانية اللهم أني قد عففت عنها في هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت إلى الصبح فنامت إلى الصبح وقامت في السحر وهي غضبى ومضت ومضيت أنا إلى حانوتي فجلست فيه وإذا هي قد عبرت علي هي والعجوز وهي مغضبة وكأنها القمر فهلكت فقلت في نفسي من هو أنت حتى تترك هذه البارعة في حسنها ثم لحقت العجوز وقلت ارجعي فقالت وحق المسيح ما أرجع إليك إلا بمائة دينار فقلت نعم رضيت فوزنت مائة دينار فلما حضرت الجارية عندي لحقتني الفكرة الأولى وعففت عنها وتركتها حياءمن الله تعالى ثم مضت ومضيت إلى موضعي ثم عبرت بعد ذلك علي وكانت مستغربة فقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بي عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمداً فارتعدت لذلك وعزمت أنني اصرف عليها ثمن الكتان جميعه فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي معاشر المسلمين إن الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة فانقضت عني وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه وأخذت معي بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفي قلبي من الإفرنجية ما فيه فوصلت إلى دمشق وبعت البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومنّ الله بكسب وافر وأخذت أتجر في الجواري عسى أن يذهب ما بقلبي من الإفرنجية فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين وأخذه جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل بإذن الله تعالى فطلب مني جارية للملك الناصر فأحضرت جارية حسناء فاشتريت له بي بمائة دينار فأوصلوا إلى تسعين دينارا وبقيت لي عشرة دنانير فلم يلتقوها في الخزانة ذلك اليوم لأنه أنفق جميع الأموال فشاوروه على ذلك فقال امضوا به إلى الخزانة التي فيها السبي من نساء الإفرنج فخيروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة الدنانير التي له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتي الإفرنجية فقلت أعطوني هاتيك فأخذتها ومضيت إلى خيمتي وخلوت بها وقلت لها أتعرفينني قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر الذي جرى لي معك ما جرى وأخذت مني الذهب وقلت ما بقيت تبصرني إلا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانيرفقالت مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله فأسلمت وحسن إسلامها فقلت والله لا وصلت غليها إلا بأمر القاضي فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ما جرى فعجب وعقد لي عليها وباتت تلك الليلة عندي فحملت مني ثم رحل العسكر وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيراً من الرجال والنساء ولم يبق إلا التي عندي فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندي وطلبت مني فحضرت وقد تغير لوني وأحضرتها معي بين يدي مولانا السلطان الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك فقد فككنا أسرك وأسر غيرك فقالت يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحبلت وهابطني كما ترونه وما بقيت الإفرنج تنتفع بي فقال لها الرسول أيما أحب إليك هذا المسلم أو زوجك الإفرنجي فلان فأعادت عبارتها الأولى فقال الرسول لمن معه من الإفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لي الرسول خذ زوجتك فوليت بها فطلبني ثانيا وقال إن أمها أرسلت معي وديعة وقالت إن ابنتي أسيرة واشتهي أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة ومضيت إلى الدار وفتحت القماش فإذا هو قماشها بعينه قد سيّرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينار كما هما بربطتي لم يتغيرا وهؤلاء الأولاد منها وهي التي صنعت لكم هذا الطعام .إبراهيم بن المهدي والمأمون

ومن لطائف المنقول من المستجاد قال الواقدي كان إبراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة لنفسه بالريّ وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثني عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندي ما حكاه لي ، قال : لّما دخل المأمون الري في طلبي وجعل لمن أتاه بي مائة ألف درهم خفت على نفسي وتحيرت في أمري فخرجت من داري وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدري أين أتوجه فوقفت في شارع غير نافذ وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون إن عدت على أثري يرتاب في أمري فرأيت في صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب دار فتقدمت إليه وقلت هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار نعم وفتح الباب فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة ثم أغلق الباب علي ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة فيَّ وأنه خرج ليدل عليّ ، فبقيت على مثل النار فبينما أنا كذلك إذ أقبل حمال عليه كل ما يحتاج إليه من خبز ولحم وقدر جديدة وجرة نظيفة وكيزان جدد فحط عن الحمال ثم التفتإلي وقال جعلني الله فداك أنا رجل حجَّام وأنا أعلم أنك تتقرف مني لما أتولاه من معيشتي فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان بي حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قِدْراً ما أذكر أني أكلت مثلها فلما قضيت أربي من الطعام قال هل لك في شراب فإنه يسلي الهم فقلت ما أكره ذلك رغبة في مؤانسته فأتى بقطرميز جديد لم تمسه يد وجاءني بدست شراب مطينة وقال لي روق لنفسك فروقت شرابا في غاية الجودة وأحضر لي قدحا جديدا وفاكهة وأبقالا مختلفة في طسوت فخار جدد ثم قال بعد ذلك أتأذن لي جعلت فداءك أن اقعد ناحية وآتي بشرابي فاشربه سرورا بك فقلت به افعل فشربت وشرب ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عودا مصفحا ثم قال يا سيدي ليس من قدري أن أسألك في الغناء ولكن قد وجبت على مروءتك حرمتي فإن رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأي فقلت ومن أين لك أني أحسن الغناء فقال يا سبحان الله مولانا اشهر من ذلك أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دله عليك مائة ألف درهم فلما قال ذلك عظم في عيني وثبتت مروءته عندي فتناولت العود وأصلحته وغنيت وقد مر بخاطري فراق أهلي وولدي :

وعسى الذي أهدى ليوسفَ أهله . . . وأعزَّه في السجن وهو أسيرُ

أن يستجيب لنا فيجمعَ شملنا . . . والله ربُّ العالمين قديرُفاستولى عليه الطرب المفرط وطاب عيشه كثيراً ومن شدة طربه وسروره قال لي يا سيدي أتأذن لي أن أغني ما سنح بخاطري وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة فقلت هذا زيادة في أدبك ومروءتك فأخذ العود وغنى :

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا . . . فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لأنّ النوم يغشى عيونهم . . . سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا

إذا ما دنا الليل المضرُّ بذي الهوى . . . جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنَّهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فو الله أحسست بالبيت قد سار بي وذهب عني كل ما كان بي من الهلع وسألته أن يغني فغنى :

تعّيرنا أنّا قليلٌ عديدنا . . . فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرّنا إنّا قليلٌ وجارنا . . . عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل

وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً . . . إذا ما رأته عامرٌ وسلول

يقرِّبُ حبُّ آجالَنا لنا . . . وتكرهه آجالهم فنطول

فداخلني من الطرب ما لا مزيد عليه إلى أن عاجلني السكر فلم أستيقظ إلا بعد المغرب فعاودني فكري في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه فقمت وغسلت وجهي وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير لها قيمة فرميت بها إليه وقلت له استودعتك الله فإنني ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ولك عندي المزيد أن أمنت من خوفي فاعادها علي منكّداً وقال : يا سيدي أن الصعاليك منا لا قدر لهمعندكم أآخذ على ما وهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندي ثمنا والله لئن راجعتني في ذلك لأقتلنَّ نفسي فاعدت الخريطة إلى كمّي وقد أثقلني حملها فلما انتهيت إلى باب داره قال لي يا سيدي إن هذا المكان أخفى لك من غيره وليس في مؤنتك عليّ ثقل فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة ولم يفعل فأقمت عنده أياما على تلك الحالة في الذ عيش فندمت من الإقامة في مؤنته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالا وقمت فتزييت بزي النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف أمر شديد وجئت لأعبر الجسر فإذا أنا بموضع مرشوش بماء فبصر بي جندي ممن كان يخدمني فعرفني فقال هذه حاجة المأمون فعلق بي فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما في ذلك الزلق فصار عبرة وتبادر الناس إليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر ودخلت شارعا فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز فقلت يا سيدة النساء أحقني دمي فإني رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتني إلى غرفة مفروشة وقدمت لي طعاما وقالت ليهدأ روعك فما علم بك مخلوق وإذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب وإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدوخ الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت يا هذا ما دهاك فقال ظفرت بالمغنِّي وأنفلت عنّي ، فأخبرها بالحال فأخرجت خرقا وعصبته بها وفرشت له ونام عليلا وطلعت إلى وقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم قالت لابأس عليك ثم جددت لي الكرامةوأقمت عندها ثلاثا ثم قالت إني خائفة

عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فيتّم بك فانج لنفسك فسالتها المهلة إلى الليل ففعلت فلما دخل الليل لبست زي النساء وخرجت من عندها فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة فظننت خيرا فما شعرت إلا إبراهيم الموصلي بنفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتني إليه فرأيت الموت عيانا وحملت بالزي الذي أنا فيه إلى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني إليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له على رسلك يا أمير المؤمنين ، إن وليَّ الثأر محكّم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب فإن تأخذ فبحقك وإن تعف فبفضلك ثم أنشدت :

ذنبي إليك عظيمٌ . . . وأنت أعظَمُ منه
فخذ بحقّك أولا . . . فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالي . . . من الكرام فكنه

فرفع إلي رأسه فبدرته وقلت :

أتيت ذنباً عظيماً . . . وأنت للعفو أهل فأن عفوت فمنٌّ . . . وإن جزيت فعدل

فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة من شمائله ثم أقبل على ابنه العباس وأخيره أبي إسحاق وجميع من حضر خاصته فقال ما ترون فيأمره فكلّهمُ أشار بقتلي إلا أنهم اختلفوا في القتلة كيف تكون فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد ما تقول يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين : إن تقتله وجدنا مثلك قتل مثله وإن عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت في الأرض وأنشد متمثلا :

قومي همُ قتلوا أميمَ أخي . . . فإذا رميت يصيبني سهمي

فكشفت المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت عفا والله عني أمير المؤمنين فقال المأمون لا بأس عليك يا عم فقلت ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول :

إن الذي خلق المكارم حازها في صُلب آدم للإمام السابع
مُلئتْ قلوبُ الناس منك مهابةً . . . وتظلُّ تكلؤهم بقلبٍ خاشع
ما إن عصيتك والغواة تمدّني . . . أسبابها إلاَّ بنيّة طائع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله . . . عفوٌ ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا . . . وحنين والدةٍ بلبٍّ جازع

فقال المأمون لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت :

رددت مالي ولم تبخل عليَّ به . . . وقبل ردِّك مالي قد حقنت دمي
فلو بذلتُ دمي أبغي رضاك به . . . والمالَ حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عاريةٍ رجعت . . . إليك لو لم تعرها كنت لم تلم
فإن جحدتك ما أوليتَ من كرمٍ . . . إني إلى اللؤم أولى منك بالكرمفقال المأمون : إن من الكلام درراً وهذا

منه : وخلع عليه وقال يا عم إن أبا إسحق والعباس أشارا بقتلك فقلت إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ما خفت بما رجوت فقال المأمون يا عم أمنت حقدي بحياة عذرك وقد عفوت عنك ولم أجرعك مرارة امتنان الشافعين ثم سجد المأمون طويلا ورفع رأسه وقال يا عم أتدري لم سجدت قلت شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكراً لله الذي ألهمني العفو عنك فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورتة أمري وما جرى لي مع الحجام والجندي والمرأة والمولاة التي تَمت عليَّ فأمر المأمون بإحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة فقال لها ما حملك على ما فعلت مع سيدك فقالت الرغبة في المال فقال لها هل لك ولد أو زوج قالت لا فأمر بضربها مائتي سوط وخلد سجنها ثم قال أحضروا الجندي وامرأته والحجام فاحضروا فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل فقال الرغبة في المال فقال المأمون أنت يجب أن تكون حجّاما ووكل به ما يلزمه الجلوس في دكان الحجام لتعلم الحجامة وأكرم زوجه وأدخلها إلى القصر وقال هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات ثم قال للحجام لقد ظهر من مروؤتك ما يوجب المبالغة في إكرامك وسلم إليه دار الجندي بما فيها وخلع عليه وأنعم عليه برزقه وزيادة ألف دينار في كل سنة ولم يزل في تلك النعمة إلى أن مات .منتهى الكرم

ومما يضارع ذلك أنه لما أفضت الخلفة إلى بني العباس اختفت رجال بني أمية ومهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك وكان إبراهيم رجلاً عالماً عاملاً أديباً كاملاً وهو في سن الشبيبة فأخذوا له أماناً من السفاح فقال له يوما حدثني عما مر بك في اختفائك قال كنت يا أمير المؤمنين مختفياً بالحيرة في منزل بشارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدني فخرجت من الدار متنكرا حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحدا أختفي عند فبقيت في حيرة فإذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه فقال من أنت وما حاجتك فقلت رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك فأدخلني منزله ثم صيرني في حجرة تلي حرمه وكنت عنده في ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من حالي إلا أنه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يوما أراك تدمن الركوب ففيم ذلك قال إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبرا وقد بلغني أنه مختف فأنا أطلبه لأدرك منه ثأري فكثر والله تعجبي وقلت القدر ساقني إلى حتفي في منزل من يطلب دمي وكرهت الحياةفسألت الرجل عن أسمه واسم أبيه فأخبرني فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه فقلت له يا هذا وجب عليّ حقك ومن حقك أن أدلك على خصمك وأقرب إليك الخطوة قال وما ذاك قلت أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثأرك فقال إني أحسبك رجلا قد مضّه الاختفاؤ فأحببت الموت فقلت لا والله ولكن أقول لك الحق يوم كذا وذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقي تغيّر لونه واحمرت عيناه واطرق مليا ثم قال : أمّا أنت فستلقى أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره وأمّا أنا فغير مخفر ذمتي فأخرج عني فلست آمن عليك من نفسي وأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين .

جابر عثرات الكرام

ومن لطائف ما نقلته من المستجاد حدث أبو الحسن بن صالح البلخي بمصر قال أخبرني بعض عمال شيوخنا

عن شيبة بن محمد الدمشقي قال كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة ابن بشر من بني أسد مشهور بالمروءة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى أخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم فواسوهحينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها يا بنت العم قد رأيت من اخواني تغيُّرا وقد عزت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ثم أغلق بابه عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقي حائرا في حاله فكان عكرمة الفياض واليا على الجزيرة فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ جري ذكر خزيمة ابن بشر فقال عكرمة ما حاله فقالوا صار في أسوأ الأحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته فقال عكرمة الفياض وما سمي الفياض إلا للافراط في الكرم فما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولا مكافئا فأمسك عن ذلك فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر باسراج دابته وخرج سراً من أهله فركب ومعه غلام واحد يحمل المال ثم سار حتى وقف باب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة فقال له أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك قال له ما جئت في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني قال خزيمة فما أقبله أو تخبرني من أنت قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدني قال لا : ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها أبشري فقد أتى الله بالفرج فلو كان في هذا فلوس كانت كثيرة قومي فاسرجي قالت لا سبيل إلى السراج فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير ولا يصدق

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

ورجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفرداً فارتابت وشقت جيبها ولطمت خدها فلما رآها تلك الحالة قال لها ما دهاك يا ابنة العم قالت سوء فعلك بابنة عنك ، أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة من الليل منفرداً عن غلمانه في سرّ من أهله إلا إلى زوجة أو سريّة فقال لقد علم الله ما خرجت لواحدة منهما قالت لابد أ ، تعلمني قال فاكتميه إذاً قالت افعل فأخبرها بالقصة على وجهها ثم قال أتحبين أن أحلف لك قالت لا قد سكن قلبي ثم أصبح خزيمة فصالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهوراً لمروءته وكان الخليفة به عارفا فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال يا خزيمة ما أبطأك عنا فقال سوء الحال يا أمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة إلينا قال ضعفي قال فمن أنهضك قال لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابي وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لأنه كان متنكرا وما سمعت منه إلا جابر عثرات الكرام قال فنلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال لو عرفناه لأعنّاه على مروءته ثم قال علّي بقناة فأتي بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه وأمره بالتوجه إلى الجزيرةفخرج خزيمة متوجها إليها فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد فنزل خزيمة في جار الإمارة وامر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبه خزيمة بالمال فقال مالي إلى شيء منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل إليه أني لست ممن يصون ماله لغرضه فأصنع ما شئت فأمر به فكبل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهراً فأضناه ثقل الحديد وأضر به وبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضي الساعة إلى باب هذا الأمير فقولي عندي نصيحة فإذا طلبت منك قولي ولا أقولها إلا للأمير خزيمة فإذا دخلت عليه سليه الخلوة فإذا فعل قولي له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوأتاه جابر عثرات الكرام غريمي قالت نعم فأمر من وقته بدابته فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيراً قد أضناه الضر فلما نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى إنكب على رأسه فقبله فرفع رأسه إليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعلك وسوء مكافأتي قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وأن توضع في رليه فقال عكرمة تريد ماذا قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الإنصراففلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال أغير من حالك وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فأخليت ودخلا جميعاً ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمل إليه مالاً كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له فاعتذر إليها وتذمم من ذلك ثم سأله أني سير معه إلى

أمير المؤمنين وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك فسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبدالملك فدخل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال : والي الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ما هذا إلا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم ما وراءك يا خزيمة قال خير يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له في الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلس وقال يا عكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من التحف والظرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية واذربيجان وقال له أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال بد أرده إلى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته .مرنة بنت مروان والخيزران ويضارع ذلك من المستجاد أيضا ما روي عن أبي موسى محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر قال حدثني أبي قال كنت أتردد إلى زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وأخدمها فتوجهت إلى خدمتها يوماً فقالت أقعد حتى أحدثك حديثاً كان بالأمس يكتب على الآماق ، كنت أمس عند الخيزران ومن عادتي أن أجلس بإزائها وفي الصدر مجلس للمهدي يجلس فيه وهو يقصدنا في كل وقت فيجلس قليلاً ثم ينهض فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواريها فقالت أعز الله السيدة ، بالباب امرأة ذت جمال وخلقة حسنة ليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية ، تستأذن عليك وقد سألتها عن اسمها فامتنعت من أن تخبرني فالتفتت إلي الخيزران وقالت ما تريدين فقلت أدخليها فإنه لا بد من فائدة أو ثواب فدخلت امرأة من أجمل النساء لا تتوارى بشيء فوقفت بجنب عضادة الباب ثم سملت متضائلة ثم قالت أنا زنة بن مروان بن محمد الأموي فقالت الخيزران لا حيّاك الله ولا قربك فالحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك في الأذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهن وأسمعتيهن ما لا سمعن قبل وأمرت فأخرجن على تلك الحالة التي أخرجن عليهافضحكت مزنة فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ، ثم قالت يا بنت العم أي شيء أعجبك من حسن صنيع الله بي على العقوق حتى أردت أن تتأسي بي فيه ، والله إن فعلت بنسائك ما فعلت فأسلمني الله لك ذليلة جائعة عريانة ، وكان ذلك مقدار شرك لله تعالى على ما أولاك بي ، ثم قالت السلام عليكم ثم ولت مسرعة فصاحت بها الخيزران فرجعت ، قالت زينب : فنهضت إليها الخيزران لتعانقها فقالت وليس في لذلك موضع مع الحال التي أنا عليها فقالت الخيزران لها فالحمام إذا وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب فأخذت في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي ثم قالت لها الخيزران هل لك في الطعام فقالت والله ما فيكن أحوج مني إليه فعجعلوه ، فأي بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة إلى أن اكتفت ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك مما تعتنين به قالت ما خارج هذه الدار من بيني وبينه نسب فقالت إذا كان الأمر هكذا فقومي حتى تختاري لنفسك مقصوردة من مقاصيرنا وتحولي لها جميع ما تحتاجين إليه ثم لا نفترق إلى الموت فقامت ودارت بها في المقاصير فاختارت أوسعها وأنزهها ولم تبرح حتى حولت

إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكسوةقالت زينب ثم تركناها وخرجنا عنها فقالت الخيزران هذا المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها الضر وليس يغسل ما في قلبها إلا المال فاحملوا إليها خمسمائة ألف درهم فحملت إليها وفي أثناء ذلك وافى المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها به فوثب مغضبا وقال للخيزران هذا مقدار شكر الله على أنعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها فوالله لولا محلك بقلبي لحلفت أن لا أكلمك أبداً فقالت الخيزران يا أمير المؤمنين قد اعتذرت إليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذا فلما علمي المهدي ذلك قال لخادم كان معه أحمل إليها مائة بدرة وأدخل إليها وأبلغها مني السلام وقل لها والله ما سررت في عمري كسروري اليوم وقد وجب على أمير المؤمنين إكرامك ولولا احتشامك لحضر إليك مسلماً عليك وقاضيا لحقك فمضى الخادم بالمال والرسالة فأقبلت على الفور فسلمت على المهدي بالخلافة وشكرت صنعه وبالغت في الثناء على الخيزران عنده وقالت ما على أمير المؤمنين حشمة إنا في عدد حرمه ثم قامت إلى منزلها ، فخلفتها عند الخيزران وهي تتصرف في المنازل والجواري كتصرف الخيزران فأخّها عندك فإنها من أحسن النوادر .حديث في التطفل

وروي عن عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجال سماهم ، أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا بالزندقة فحملوا فرآهم أحد الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع هؤلاء إلى لوليمة فدخل معهم ومضى بهم الموكلون إلى البحر وأطلعوهم في زورق قد أعد لهم فقال الطفيلي لا شك أنها نزهة فصعد معهم في الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر وساروا بهم إلى أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون مثلوا بين يديه أمر بضرب اعناقهم فاستدعوهم باسمائهم حتى لم يبق إلى الطفيلي وهو خارج عن العدة فقال لهم المأمون من هذا قالوا والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون ما قصتك قال يا أمير المؤمنين امرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رأيتم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى وليمة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفل إن أحلّ صاحبه هذا المحل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب قال إبراهيم بن المهدي هبّهُ لي وأحدثك بحديث عن نفسي في التطفل عجيب قال المأمون قد وهبته لك هات حديثكقال يا أمير المؤمنين خرجت يوماً متنكراً للتنزه فأنتهى بي المشي إلى موضع شممت منه روائح طعام وأبازير قد فاحت فتاقت نفسي إليها ووقفت يا أميرالمؤمنين لا أقدر على المضي فرفعت بصري وإذا بشباك ومن خلفه كفٌّ والمعصم ما رأيت أحسن منهما فوقفت حائراً ونسيت روائح الطعام بذلك الكفّ والمعصم وأخذت في إعمال الحيلة فإذا خياط من ذلك الموضع فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت لمن هذه الدار قال لرجل من التجار قلت ما أسمه قال فلان بن فلان فقلت هو ممن يشرب الخمر قال نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس ينادم إلى التجار فبينما نحن في الكلام إذا أقبل رجلان نبيلان راكبان فأعلمني أنهما أخص الناس بصحبته واعلمني بأسميهما فحركت دابتي فلقيتهما وقلت جعلت فداءكما قد استبطأكما أبو فلان وساررتهما حتى أتيا الباب فدخلت وخلا فلما رآني صاحب الدار معهما لم يشك أني منهما فرحب بي وأجلسني في أفضل المواضع ثم جيء بالمائدة فقلت في نفسي هذه الألوان قد منَّ الله عليَّ

ببلوغ الغرض منها بقي الكف والمعصم ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة فرأيت مجلسا محفوفا باللطائف وجعل صاحب المجلس يتلطف بي ويقبل عليّ في الحديث لظنه أني ضيف لأضيافه وهم على مثل ذلك حتى شربنا أقداحا إذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتي بعود فأخذته وجسَّته فإذا هي حاذقة واندفعت تقول :أليس عجيباً أن بيتاً يضمني . . . وإياك لا نخلو ولا نتكلمُ

سوى أعينٍ تبدي سرائرَ أنفسٍ . . . وتقطيعُ أنفاسٍ على النار تُضرم

اشارةُ افواهٍ وغمزُ حواجبٍ . . . وتكسير أجفانٍ وكفٌّ يُسلِّم

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلي فطربت لحذقها وحسن شعرها الذي غنت به فحسدتها وقلت قد بقي عليك يا جارية شيء فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون البغضاء في مجالسكم فندمت على ما كان مني ورأيت القوم قد أنكروا عليَّ ذلك فقلت في نفسي فاتني جميع ما أملت فقلت أثمّ عود قالوا نعم فأحضروا عوداً فأصلحت ما أرت فيه ثم أندفعت فغنيت :

هذا محبّك مطويٌّ على كمده . . . صبٌّ مادامعهُ تجري على جسده

له يدٌ تسأل الرحمن راحتهُ . . . مما به ويدٌ أخُرى على كبده

يا من رأى كلفاً مستبعداً دنفاً . . . كانت منيتهُ في عينه ويده فوثبت الجارية فاكبت على رجلي تقبلها وقالت المعذرة إليك يا سيدي والله ما علمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة ثم أخذ القوم في إكرامي وتبجيلي بعدما طربوا غاية الطرب وسألني كل منهم الغناء فغنيت لهم نوبات مطربة فغلب القوم السكر وغابت عقولهم فحملوا إلى منازلهم وبقي صاحب المنزل فشرب معي أقداحا ثم قال يا سيدي ذهب ما مضى من عمري مجاناً إذ لم أعرف مثلك فبالله يا مولاي من أنت لا أعرف نديمي الذي من الله عليَّ به في هذه الليلة فأخذت أداري وهو يقسم عليَّ فأعلمته فوثب قائما وقال قد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك ولقدأسدى إليَّ الزمان يداً لا أقوم بشكرها ومتى طمعت أن تزروني الخلافة في منزلي وتنادمني ليلتي وما هذا إلا في المنام فأقسمت عليه أن يجلس فجلس وأخذ يسالني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها وما سترت منها شيئا ثم قلت أما الطعام فقد نلت منه بغيتي فقال والكف والمعصم إن شاء الله ثم قال يا فلانة قولي لفلانة تنزل ثم جعل يستدعي واحدة بعد واحدة يعرضها عليّ وأنا لا أرى صاحبتي إلى أن قال والله ما بقي إلا أمي وأختي ووالله لتنزلان فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداءك تبدأ بالأخت قال حبا وكرامة ثم نزلت أخته فأراني يدها فإذا هي التي رأيتها فقلت هذه الحاجة فأمر غلمانه لوقته فأحضروا الشهود وأحضروا بدرتين فلما حضر الشهود قال لهم هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة وأشهدكم إني قد زوجتها له وأمهرتها منه عشرين ألف درهم فقلت قبلت ذلك ورضيت فشهدوا فدفع البدرة الواحدة إلى أخته والأخرى فرقها على الشهود ثم قال يا سيدي أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك فاحشمني ما رأيت من كرمه وتذممت أن أخلوا بها في داره ثم قلت بل أحضر عمارتي وأحملها إلى منزلي فقال افعل ما شئت فأحضرت عمارتي وحملتها إلى منزلي فوحقِّك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليَّ من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدي أمير المؤمنينفعجب المأمون من كرم هذا الرجل وقال لله دره ما سمعت قط بمثلها وأمر إبراهيم بإحضار

الرجل ليشاهده فأحضره بين يديه فاستطقه فأعجبه وصيره من جملة خواصه ومحاضريه .

مشيئة ابن معمر

ومن غريب المنقول إن فتى من ذوي النعم قعد به زمانه وكانت له جارية حسناء محسنةً في الغناء فضاق بهم الخناق واشتد بهما الحال في عدم ما يقتاتان به فقال لها قد ترين ما قد صرنا إليه من هذه الحالة السيئة ووالله لموتي وأنت معي أحسن وأهون علي مما أذكره لك فإن رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك ويغسل عنك ما أنت فيه وأنفرج أنا بما لعله يصير إليَّ من الثمن ولعلك تحصلين عند من تتوصلين إلى نفعي معه فقالت والله لموتي على تلك الحالة معك آثر عندي من أنتقالي إلى غيرك ولو كان خليفة ولكن أصنع ما بدا لك قال : فخرج وعرضها للبيع فأشار عليه أحد أصدقائه ممن له رأي أن يحملها إلى ابن معمر أمير العراق فحلمها إليها فلما عرضت عليها استحسنها فقال لمولاها كم كان شراؤها عليك قال مائة ألف درهم وقد أنفقت عليها مالاً كثيراً حتى صارت في رتبة الأستاذين قال أما ما أنفقت عليها فغير محتسب لك به لأنك أنفقته في لذاتك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرةأسفاط من الثياب وعشرة رؤوس من الخيل وعشرة رؤوس من الرقيق أرضيت قال نعم أرضى الله الأمير فأمر بالمال فأحضر وأمر قهرمانة بإدخال الجارية إلى الحرم فأمسكت بجانب الستر وبكت وقالت :

هنيئاً لك المالُ الذي قد أفدتهُ . . . ولم تُبقِ في كفَّيَّ غير التفكُّر

أقولُ لنفسي وهي في كرباتها . . . أقليِّ فقد بان الحبيبُ أو أكثري

إذا لم يكن للأمر عندكِ موضعٌ . . . ولم تجدي بدًّا من الصبر فاصبري

فبكى مولاها وأجاب قائلا :

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن . . . يفرقنا شيءٌ سوى الموت فأعذري

أروح بهمٍّ من فراقك موجعٍ . . . أناجي به قلباً قليل التصبُّر

عليك سلامي لا زيارة بيننا . . . ولا قرب إلا أن يشاء ابنُ معمر

فقال له ابن معمر قد شئت فخذها بارك الله لك فيها وفيما وصل إليك منها فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حسنت حاله .

الحجاج وإبراهيم بن طلحة

ومما جنيته من ثمرات الأوراق أن الحجاج لما وليّ قتل عبد الله ابن الزبير رحل إلى عبد الملك بن مروان ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما قدم على عبد الملك سلم عليه بالخلافة وقال قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والأبوة وكمال المروءة والأدب وحسن المذهب والطاعة والنصيحةمع الغزلة وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله فافعل بها يا أمير المؤمنين ما يستحق أني فعل بمثله في أبوته وشرفه فقال عبد الملك : يا أبا محمد أذكرتنا حقا واجبا ائذنوا لابراهيم فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس في صدر المجلس وقال له عبد الملك : إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفه منك من الأبوة والشرف فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته إلا سالتها فقال إبراهيم أما الحوائج التي نبتغي بها الزلفى ونرجو بها الثواب فما كان لله خالصاً ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة لا أجد بدًّا من

ذكري إياها قال أهي دون أبي محمد قال نعم : قال قم يا حجاج فنهض الحجاج خجلاً لا يبصر أين يضع رجله ثم قال عبد الملك قل يا ابن طلحة فقال تالله يا أمير المؤمنين إنك عمدت إلى الحجاج في ظلمه وتعديه على الحق واصغائه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبناء المهاجرين والأنصار يسومهم الخسف ويطأهم العسف بطغام أهل الشام ومن لا رؤية له في إقامة الحق ولا إزاحة الباطل قال فاطرق عبد الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال : كذبت يا ابن طلحة ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك قم فربما ظن الخير بغير أهله قال فقمت وأنا ما أبصر طريقا قال وأتبعني حرسياً وقال أشدد به قال إبراهيم فما زلت جالساً حتى دعا الحجاج فما زالا يتناجيان طويلا حتى ساء ظني ولا أشك أنه في أمري ثم دعا بي فلقيني الحجاج في الصحن خارجا فقبل بين عيني وقال أحسن الله جزاءك . فقلت في نفسيإنه يهزأ بي ودخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الول ثم قال يا ابن طلحة هل اطلع على نصيحتك أحد فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ولا أردت إلا الله ورسوله والمسلمين وأمير المؤمنين علم ذلك فقال عبد الملك قد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهته لهما وأعلمته أنك استقللت ذلك عليه وسألتني له ولاية كبيرة ولقد وليته العراقين وقررت له أن ذلك بسؤالك ليلزمه من حقك ما لابد له من القيام به فأخرج معه غير ذامٍّ لصحبته .

الإسكندر وملك الصين

ومن لطائف المنقول عن القاضي أبي الحسين بن عبد المحسن بن علي التنوخي رحمه الله تعالى أن الاسكندر لما انتهى إلى الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره فقال له رسول ملك الصين يستأذن عليك فقال ائذن له فلما دخل عليه وقف بين يديه وسلم وقال إن رأى الملك أن يخلي مجلسه فليفعل فأمر الإسكندر من يخدمه بالانصراف ولم يبق غير حاجبه فقال له الرسلو الذي جئت به لا يجمل أن يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شيء ن السلاح فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مجرداً وقال له قل ما ئشت ثم أخرج جميع من عندهفلما خلا المكان قال له الرسول أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسالك عما تريد فإن كان مما يمكن الانقياد إليه ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه وغنيت أنا وأنت عن الحرب فقال له الإسكندر وما الذي أمنك مني : قال علمي بأنك رجل عاقل وليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بدخل ومتى قتلتني أقاموا غيري ولم يسلموا إليك البلد ثم تنسب أنت إلى غير الجميل وضد الحزم فأطرق الاسكندر متفكراً في مقاله وعلم أنه رجل عاقل فقال له أريد ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاعه في كل سنة قال أجبتك قال فكيف تكون حالك قال أكون قتيلاً أو محارباً قال فإن قنعت منك بارتفاع سنتين كيف حالك قال أصلح مما تقدم ذكره قال فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة قال يكون مضرا بين ومذهبا لجميع لذاتي قال فإن اقتصرت منك على السدس قال يكون السدس موفراً والباقي لجيشي ولأسباب الملك قال : قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف ، فلما أصبحت وطلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض واختلط بجيش الإسكندر فارتعب وتواثبت أصحابه فركبوا واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك إذ ظهر ملك الصين وعليه التاج فلما رأى الإسكندر ترجل فقال له الإسكندر أغدرت قال لا والله قال فما هذاالجيش قال أردت أن أعلمك أني لم أطعك من ضعف

ولا من قلة وما غاب عنك من الجيش أكثر لكني رأيت العالم الكبر مقبلا عليك ممكنا لك فعلمت أنه من حارب العالم الأكبر غلب فأردت طاعته بطاعتك والذلة لأمره بالذلة لأمرك فقال الإسكندر ليس مثلك يؤخذ منه شيء فما رأيت بين وبينك أحداً يستحق التفضيل والوصف بالفضل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك فقال ملك الصين أما إذ فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الاسكندر اتبعه ملك الصين من الهدايا والتحف بضعف ما كان قدره عليه .

زيد الخيل

ومن غريب المنقول عن أبي الفرج الأصبهاني أنه قال أخبرني عمي عن أبيه عن الكلبي عن أبيه قال أخبرني شيخ من بني نبهان قال أصابت بني نبهان سنة ذهبت بالأموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة وقال كونوا قريبا من الملك يصبكم من خيره حتى أرجع إليكم ومضى على وجهه يسوق راحلته سبعة أيام حتى انتهى إلى عطن إبل عندتطفيل الشمس فإذا خباء عظيم وقبة من أدم قال فقلت في نفسي ما لهذا الخباء بد من أهل وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من ابل فنظرت في الخباء فإذا شيخ كبير قد أوهاه الكبر وهو شبه النسر فجلست خلفه فلما انصرم النهار أقبل فارس لم أر أعظم من شكله وفي خدمته أسودان يمشيان بين جنبيه وإذا مائة من الإبل معها فحلها فبرك الفحل وبركن حوله فقال لأحد عبيده احلب فلان فحلبها ثم وضع اللبن بين يدي الشيخ فكرع منه وأخذه وقدمه إلي فشربت نصفه ثم أمر بشاة فذبحت وشويت وأكلنا منها جميعاً فأملهت حتى إذا ناموا وحكم عليهم النوم ثرت إلى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بي وتبعته الإبل فمشيت إلى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحدا ولما تعالى النهار التفت فإذا أنا بخيال كأنه طائر فما زال يدنو تى تبينته فإذا هو فارس على فرس وإذا هو صاحبي بالامس فعقلت الفحل وعمدت إلى كنانتي فقال : إحلل عقاله فقلت كلا لقد خلفت خلفي عيالا جياعاً بالحيرة قال فإنك ميت حل عقاله لا أم لك وانصب علي خطامه واجعل فيه خمس عقد وقل لي أين تحب أن أضع سهمي فقلت في هذا الموضع فكأنما وضعها بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم فرددت نبلي وحططت قوسي ووقفت مستسلمافدنا مني وأخذ القوس والسيف ثم أردفني خلفه وقد عرف أني الذي شربت اللبن عنده وأكلت اللحم فقال كيف ظنك بي فقلت أحسن ظن فقال أبشر إنه لن ينالك شر وقد كنت ضيف مهلهل فقلت أزيد الخيل أنت قال نعم أنا زيد الخيل فلماً انتهينا إلى منزله قال لو كانت هذه الإبل لي لسلمتها إليك ولكنها لابنة مهلهل فأقم عندي فأقمت عنده أياما فشن الغارة على بني نمير فأصاب مائة بعير فقال هذه أحب إليك أم تلك قلت هذه قال دونكها وبعث معي خفراء من ماء إلى ماء إلى أن وردت الحيرة فلقيني نبطي فقال يا أعرابي احتفظ بابلك فقد قرب مخرج النبي صلى الله عليه وسلم الذي يملك هذه الأرض ويطرد أهلها حتى أن أحدكم ليبتاع البستان بثمن بعير قال فاحتملت بأهلي إلى النبط حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا على يديه وما مضت إلا أيام حتى اشتريت بثمن بعير من ابلي بستاناً بالحيرة والله أعلم .

إيثار نادر

ونقل عن الواقدي قال كان لي صديقان أحدهما هاشمي والآخر نبطي فكنا في الصداقة كنفس واحدة فنالتني

ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي أما نحن فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد تقطّع قلبيعليهم رحمة لأنهم يرون صبيان جيراننا وقد تزينوا في عيدهم وهم فرحون ولا بأس بالاحتيال فيما نصرفه في كسوتهم قال فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليَّ بشيء فوجه إليَّ كيسا فيه ألف درهم فما استقر قراره حتى كتب إليَّ صديقي الآخر يشكو إلى مثل ما شكوته إلى الهاشمي فوجهت إليه بالكيس على حاله وخرجت إلى المسجد وأنا مستح من امرأتي فلما دخلت عليها لم تعنفني لعلمها بالحال فبينما أنا كذلك إذ أقبل صديقي الهاشمي ومعه الكيس بختمه فقال أصدقني عما فعلته فيما وجهتُ به إليك فاعلمته بالخبر فقال إنك وجهت به إليَّ ولا أملك إلا ما بعثت به إليك وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إليَّ كيس بختمه فاخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي أثلاثا ونما الخبر إلى المأمون فاحضرني وسألني عن الخبر فشرحته له فأمر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا .

من نوادر الكرم

ويضارع ذلك ما هو منقول عن الأصمعي قال قصدت في بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابا فمنعني من الدخول إليه ثم قال والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله وقصور يده فكتبت رقعة فيها :إذا كان الكريم له حجابٌ . . . فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له أوصل رقعتي إليه ففعل وعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها :

إذ كان الكريم قليل مالٍ . . . تحجّب بالحجاب عن الغريم ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر فلما رآني قال من أين يا أصمعي قلت من عند رجل أكرم الأحياء حاشى أمير المؤمنين قال ومن هو فدفعت إليه الورقة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال هذا من بيت مالي ولا بد لي من الرجل فقلت والله يا أمير المؤمنين إني أستحي أن أروعه برسلك فقال لبعض خاصته امض مع الأصمعي فإذا أراك الرجل قل له أجب أمير المؤمنين من غير ازعاج قال فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له أما أنت الذي وقعت بالامس وشكوت رقة الحال وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الأصمعي ببيت واحد فدفعتها إليه فقال نعم يا أمير المؤمنين والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال لكن استحيت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلى كما أعادني أمير المؤمنين فقال له المأمون لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك ثم بالغ في إكرامه وجعله من جملة ندمائه .اوارث أنت بني أمية

ومن لطائف المنقول ما هو منقول عن الربيع إنه قال ما رأيت رجلا أثبت ولا أربط جأشا من رجل رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرته ودخلت به إليه فقال له المنصور قد رفع إلينا الودائع والأموال التي لبني أمية عندك فأخرج لنا منها فقال يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية قال لا ، قال فوصي قال لا ، قال فما سؤالك عما في يدي من ذلك قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال : إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم فقال يا أمير المؤمنين تحتاج في ذلك إلى إقامة البينة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين فإن بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين قال فأطرق

المنصور ساعة ثم رفع رأسه إلي وقال صدق الرجل يا ربيع ما وجب عليه عندنا شيء ثم بش في وجهه فقال هل لك من حاجة فقال نعم يا أمير المؤمنين حاجتي أن تنفذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فقد راعهم اشخاصي وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين قال ما هي قال تجمع بيني وبين من سعى بي إليك فو الله ما لبني أمية عندي ولا في يدي وديعة ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني رأيت ما قلته أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فقال هذا غلامي ضرب على ثلاثة آلاف من مالي وابق فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه وكذب عليه خوفا من الوقوع في يده فقال المنصور للرجل نسألك أن تصفح عنه فقال يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه وأبرأته من المال وأعطيته ثلاثة آلاف دينار أخرى فقال المنصور ما على ما فعلت مزيد في الكرم قال بلى يا أمير المؤمنين هذا حق كلامك وانصرف وكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول ما رأيت مثل هذا الرجل يا ربيع .

رحلة الإمام الشافعي

قال الربيع بن سليمان سمعت الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول : فارقت مكة وأنا ابن أربعة عشرة سنة لا نبات بعارضي من الأبطح إلى ذي طوى وعلّي بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا علي السلام ووثب إلّي شيخ كان فيهم قال سألتك بالله إلا ما حضرت طعامنا قال الشافعي رضي الله عنه ما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت كأخذهم كي لا يستبشع عليهم مأكلي والشيخ ينظر إلي ثم أخذت السقاءفشربت وحمدت الله وأثنيت عليه فأقبل عليَّ الشيخ وقال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي ثم أقبلت عليه وقلت يا عم بم استدللت عليَّ قال أما في الحضر فبالزي وأما في النسب فبأكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك في قريش خصوصا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله تعالى والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد بني أصبح مالك ابن أنس رضي الله تعالى عنه قال الشافعي رضي الله عنه فقلت واشوقاه إلى مالك فقال لي قد بل الله شوقك أنظر إلى هذا البعير الاورق فإنه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها وأركبوني البعير الاورق وأخذ القوم في السير وأخذت أنا في الدرس فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنوت من القبر فسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس متزرا ببردة متوشحا بأخرى قال حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شافعي رضي الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقي على يدي والإمام مالك رضي الله عنه ينظر إلي من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرني مالك أن أنصرف فلم يرني انصرفت فأشار إليفدنوت منه فنظر

إلي ساعة ثم قال أحرمي أنت قلت حرمي قال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي قال كملت أوصافك لكن فيك إساءة أدب قلت وما الذي رأيت من سوء أدبي قال رأيتك وأنا أملي ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك يدي إليه فقال ما أرى عليها شيئا فقلت إن الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ما حدثت به منذ جلست وحفظته إلى حين قطعت فتعجب الإمام مالك من ذلك فقال أعد عليَّ ولو حديثا واحدا .

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه . قال الشافعي رحمه الله فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي القبلة في البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء . قال الشافعي رضي الله عنه فما لبث مالك رضي الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملاً طبقا فوضعه من يده وسلم الإمام عليَّ ثم قال للعبد اغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الاناء وأراد أن يغسل عليَّ أولاً فصاح عليه مالك قال الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف .قال الشافعي رضي الله عنه فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه فقال أنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدىء بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه .

قال الشافعي رضي الله عنه فكشف الإمام رضي الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان في إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء .

قال الشافعي رضي الله عنه فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع عليَّ مالك الباب فقال لي الصلاة يرحمك الله فرأيته حاملاً إناء فيه ماء فتبشع عليَّ ذلك فقال لي لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض .

قال الشافعي رضي الله عنه فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه .قال الشافعي رضي الله عنه فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطأ . قال الشافعي فأمليت عليهم حفظاً منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وأبن القاسم قال الربيع وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبي صلى الله

عليه وسلم .
قال الشافعي رضي الله عنه فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده فقال العراق قلت أي العراق فقال لي الكوفة قلت من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة رضي الله عنه .
وقال الشافعي رضي الله عنه فقلت ومتى عزمتم تظعنون فقال لي في غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة في طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل في طلب العلم فقال لي : العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه . قال الشافعي رضي الله عنه فلما أزمعت على السفر زودني الإمام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت بم تكتري وليس معك ولا معي شيء فقال لي انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع عليَّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرةفيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكترى لي بأربعة دنانير ودفع إليَّ باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت إليه ناصحا فقلت له أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا عليَّ صلاتي قط وخرج معجبا ينفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا اللهم لا قال ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا اذهب إليه فقل له بم تخل في الصلاة .
قال الشافعي رضي الله عنه فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة فقلت بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا اذهب إليه فقل له ما الفرضان وما السنة فأتى إليَّ فقال ما الفرضان وما السنة فقلت له أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الاحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إليَّ أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالا اذهب إليه وقل له أجب الشيخين .وقال الشافعي فلما أتاني علمت إني مسؤول عن شيء من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما إليَّ فلما سلما عليَّ قمت غليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن وقال أحرمي أنت فقلت نعم فقال أعربي أم مولى فقلت عربي فقال من أي العرب فقلت من ولد المطلب قال من ولد من قلت من ولد شافع قال رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بداوة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسئلة وجعل بين كل مسئلتين بياضا ودفع إليَّ

الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ .
قال الشافعي رضي الله عنه فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك إليك . قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم سألني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد إن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل إلا راكبا . قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له قدم فقدم إلي بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي باطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن فرايت أبوابا ودهاليز ومنقوشة بالذهب والفضة ، فذكرت ضيقأهل الحجاز وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل عليَّ محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال لا يروعك يا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض وإني أخرج زكاتها في كل عام فأسرَّ بها الصديق وأكبت بها العدو . قال الشافعي رضي الله عنه فما بت حتى كساني محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فأخرج إليَّ الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبي حنيفة فنظرت في أوله وفي آخره ثم ابتدأت الكتاب في ليلتي أتحفظه فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشيء من ذلك وكان المشهور بالكوفة بالفتوى والمجيب في النوازل فبينما أنا قاعد عن يمينه في بعض الأيام إذ سئل عن مسئلة أجاب فيها وقال هكذا قال أبو حنيفة فقلت قد وهمت في الجواب في هذه المسئلة والجواب عن قول الرجل كذا وكذا وهذا المسئلة تحتها المسئلة الفلانية وفوقها المسئلة الفلانية في الكتاب . فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه إلى ما قلت ولم يخرج إلي كتاباً بعد هذا .
قال الشافعي واستأذنته في الرحيل فقال ما كنت لآذن لضيف بالرحيل عني وبذل لي في مشاطرة نعمته فقلت ما لذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتي إلى في السفر قال فأمر غلامه أن يأتي بكل ما في خزانته من بيضاء وحمراء فدفع إلي ما كان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم وألقى الرجال حتى صرت ابن إحدى وعشرينسنة ثم دخلت العراق في خلافة هارون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بي غلام فلاطفني وقال لي ما أسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن إدريس الشافعي فقال مطلبي فقلت أجل فكتب ذلك في لوح كان في كمه وخلى سبيلي فأويت في بعض المساجد أفكر في عاقبة ما فعل حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد واقبلوا يتأملون وجه كل رجل حتى أتوا إلي فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة ثم أقبلوا علي وقالوا أجب أمير المؤمنين فقمت غير ممتنع فلما بصرت بأمير المؤمنين سلمت عليه سلاماً بينا فأستحسن الألفاظ ورد عليَّ الجواب ثم قال تزعم أنك من بني هاشم فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم في كتاب الله باطل فقال ابن لي عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لي الرشيد ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة إلا في رجل من ولد المطلب هل لك أن أوليك قضاء المسلمين وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيه حكمك وكمي على ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واجتمعت عليه الأمة فقلت يا أمير المؤمنين لو سألتني أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبداً فبكى الرشيد وقال تقبل من عرض الدنيا شيء

قلت يكون معجلاً فأمر لي بألف دينار فما برحت من مقامي حتى قبضتها ثم سألني بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتي فلم تسع المروءة إن كنت مسؤولاً غير المقاسمة فيما أنعم الله به علي فخرج لي قسم كأقسامهم ثم عدت إلى المسجد الذي كنت فيه في ليلتي فتقدم يصلي بنا غلام صلاة الفجر في جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو ولم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروجفقلت له بعد السلام أفسدت علينا وعلى نفسك أعد فأعاد مسرعاً وأعدنا ثم قلت له أحضر بياضاً أعمل لك باب السهو في الصلاة والخروج منها فسارع إلى ذلك ففتح الله عز وجل عليَّ فألفت له كتاباً من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزءاً يعرف بكتاب الزعفران وهو الذي وضعته بالعراق حتى تكامل في ثلاث سنين وولاني الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى في قبته فلما أشرت إليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف وأشار إليَّ بالكلام فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز أجاب بخير ثم عاودته إلى السؤال عن مالك فقال لي أشرح لك أو أختصر قلت في الاختصار البلاغة فقال في صحة جسم وله ثلثمائة جارية يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود إليه إلى سنة فقد اختصرت لك خبره . قال الشافعي رضي الله عنه فاشتهيت أن أراه في حال غناه كما رأيته في حال فقره فقلت له أما عندك من المال ما يصلح للسفر فقال إنك لتوحشني خاصة وأهل العراق عامة وجميع مالي فيه لك فقلت له فيم تعيش قال بالجاه ثم نظر إلي وحكمني في ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فأتيت حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسي شعثاً فدعوت المزين فلما بدأ برأسي وأخذ القليل من شعري دخل قوم من أعيان البلد فدعوه إلى خدمتهم فسارع إليهم وتركني فلما قضوا ما أرادوا منه عاد إلي فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت إليه أكثر ما كان معيمن الدنانير وقلت له خذ هذه وإذا وقف بك غريب لا تحتقره فنظر لي متعجبا فإجتمع بعض من كان في الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابي لهم فإنحدر عن البلغة بعد أن استوى عليها وقال لي أنت الشافعي فقلت نعم فمد الركاب مما يليني وقال بحق الله اركب ومضى بي الغلام مطرقاً بين يدي حتى أتيت إلى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت في منزله فأظهر البشاشة ثم دعا بالغسل فغسل علينا ثم حضرت المائدة فسمى وحبست يدي فقال مالك يا عبد الله فقلت له طعامك حرام عليَّ حتى أعرف من أين هذه المعرفة فقال أنا ممن سمع منك الكتاب الذي وضعته ببغداد وأنت لي أستاذ .

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت العلم بين أهل العقل رحم متصلة فأكلت بفرحة إذ لم يعرف الله تعالى إلا بيني وبين أبناء جنسي وأقمت ضيفه ثلاثاً فلما كان بعد ثلاثاً قال : إنّ لي حول حرّان أربع ضياع ما بحرَّان أحسن منها أشهد الله أن أخترت المقام فإنها هدية مني إليك فقلت فيم تعيش قال بما في صناديقي تلك وأشار إليها وهي أربعون ألف درهم وقال أتجرها فقلت ليس إلى هذا قصدت ولا خرجت من بلدي لغير طلب العلم فقال لي فالمال إذا من شأن المسافر فقبضت الأربعين ألفا وودعته وخرجت من مدينة حران وبين يدين أحمال ثم تلقاني الرجال وأصحاب الحديث منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعي فأجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معي إلا عشرة دنانير فاشتريت بها

راحلةواستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتى وصلت إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم بعد سبعة وعشرين يوماً بعد صلاة العصر فصليت العصر ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطي مصر مكتوب عليها لا إله إلى الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الشافعي رضي الله عنه وحوله أربعمائة دفتر أو يزدن وبينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضي الله عنه قد دخل من باب النبي صلى الله عليه وسلم وقد فاح عطره في المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذيوله منهم أربعة فلما وصل قام إليه من كان قاعداً وجلس على الكرسي فألقى مسئلة في جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعني الصبر فقمت قائماً في سور الحلقة فرأيت إنساناً فقلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فأضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل ففرح الجاهل بإصابته فلما ألقى السؤال الثاني أقبل عليَّ الجاهل يطلب من الجواب فقلت له الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت إليه مالك فأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل .

قال الشافعي رضي الله عنه فلما ألقى السؤال الثالث قلت له قل الجواب كذا وكذا فبارد بالجواب فأعرض مالك عنه وأقبل على أصحابه فخالفوا فقال أخطأتم وأصاب الرجل ثم قال للرجل أدخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجلس بين يديه فقال له مالك فراسة قرأت الموطأ قال لا قال فنظرت ابن جريج قال لا قال فلقيت جعفر بن محمدالصادق قال لا قال فهذا العلم من أين قال إلى جانبي غلام شاب يقول لي قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول ، قال فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضي الله عنه فقال للجاهل قم فأمر صاحبك بالدخول إلينا . قال الشافعي رضي الله عنه فدخلت فإذا أنا من مالك بالموضع الذي كان الجاهل فيه جالساً بين يديه فتأملني ساعة وقال أنت الشافعي فقلت نعم فضمني إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال أتمم هذا الباب الذي نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل الذي هو لك ، المنسوب إلي .

قال الشافعي رضي الله عنه فألقيت اربعمائة مسئلة في جراح العمد فما أجابني أحد بجواب واحتجت إلى أن آتي بأربعمائة جواب فقلت الأول كذا وكذا والثاني كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيد إليَّ فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال مم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعت الآخرة بالدنيا قلت هو والله ذلك قال طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر والهدايا تجيء من أقاصي الدنيا وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويرد الصدقة وإن لي ثلثمائة خلعة من زي خراسان وقباطي مصر وعندي عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية مني إليك وفي صناديقي تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك مني نصفها قلت إنك موروث وأنا موروث فلا يبيت جميع ما وعدتني به إلا تحت خاتمي ليجري ملكي عليه فإن حضرني أجلي كان لورثتي دون ورثتك وإن حضرك أجلك كان لي دون ورثتك فتبسم في وجهي وقال أبيت إلا العلم فقلت لا يستعمل أحسن منه وما بت إلا وجميع ما وعدني به تحت ختميفلما كان في غداة غد صليت الفجر في جماعة وانصرفت إلى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده في يد صاحبه إذ رأيت كراعاً على بابه من جياد خراسان وبغالاً من مصر فقلت له

ما رأيت أحسن من هذا فقال هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت له دع لك منها دابة فقال إني أستحي من الله أن أطأ فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة .

قال الشافعي رضي الله عنه فعلمت أن ورع الإمام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثاً ثم ارتحلت إلى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم أنفذت من يعلم بخبري فلما وصلت إلى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتني إلى صدرها وضمتني بعدها عجوز كنت آلفها أدعوها خالتي وقالت :

ليس امُّك اجتاحت المنايا . . . كلّ فؤادٍ عليك أمُّ

قال الشافعي رضي الله عنه وهي أول كلمة سمعتها في الحجاز من امرأة فلما هممت بالدخول قالت لي العجوز إلى أين عزمت فقلت إلى المنزل فقالت هيهات تخرج من مكة بالأمس فقيراً وتعود إليها مترفاً تفخر على بني عملك بذلك فقلت ما أصنع فقالت ناد بالأبطح في العرب بإشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت به وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل وبلغ ذلك مالكاً فبعث إليَّ يستحثني على الفعل ويعدني أنه يحمل إليَّ في كل عام مثل ما صار إليَّ منه وما دخلت إلى مكة وأنا أقدر على شيء مما جاء معي إلى على بغلة واحدة وخمسين ديناراً فوقعت المقرعة فناولتني إياها أمة على كتفها قربة فأخرجت لها خمسة دنانير فقالت له العجوز ما أنت صانع فقلت أجيزها على فعلها فقالت أدفع إليهاجميع ما تأخر معك قال فدفعت إليها ودخلت إلى مكة فما بت تلك الليلة إلا مديونا وأقام مالك رضي الله عنه يحمل إليَّ في كل عام مثل ما كان دفع إليَّ أولا إحدى عشرة سنة فلما مات ضاق بي الحجاز وخرجت إلى مصر فعوضني الله عبد الله بن عبد الحكيم فقام بالكلفة فهذا جميع ما لقيته في سفري فإفهم ذلك يا ربيع قال الربيع وسألني المزني املاء ذلك بحضرته فما وجدنا للمجلس فرغة فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيري . ومن لطائف المقول ما نقله القرطبي في كتابه المسمى بالأعلام عن صدق محبة أبي طالب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته فقام عبد الله بن الزبعري فأخذ فرثا ورماه فلطخ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم فانتقل النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته وأتى إلى أبي طالب عمه وقال يا عم ألا ترى ما فعل بي فقال له أبو طالب من فعل بك هذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن الزبعري فقام أبو طالب فوضع سيفه على عاتقه ومشى حتى أتى القوم فلما رأوه قد أقبل نهضوا له فقال أبو طالب والله إن قام رجل جللته بسيفي هذا ثم قال يا بني من الفاعل بك هذا فقال عبد الله بن الزبعري فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول فنزلت هذه الآية الشريفة وهم ينهون عنه وينأون عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عم نزلت فيكآية قال وما هي تمنع قريشا أن يأذوني وتأبى أن تؤمني بي فقال أبو طالب

والله لن يصلوا إليك بجمعهم . . . حتى أوسَّد في التراب دفينا

فامضِ لأمرك قد زعمتك ناصحي . . . فلقد صدقت وكنت ثمّ أمينا

وعرضت ديناً قد عرفتُ بأنّه . . . من خير أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبّةٍ . . . لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هي تنفع نصرة أبي طالب قال نعم رفع عنه بذلك الفعل إنه لم يقرن مع الشياطين ولم يدخل جب الحيات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منها دماغه وهو أهو أهل النار عذابا . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب قل لا إله إلى الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب لولا أن يعايروني بها يعني قريشاً يقولون إنما حمله الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

وأما عبد الله بن الزبعري فإنه أسلم عام الفتح وحسن إسلامه واعتذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل عذره وكان شاعراً مجيداً فقال يمدح النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات منها في حكاية حاله :

إني لمعتذرٌ إليك من الذي . . . أسديت إذ أنا في الضلال مقيم

فاعفر فداؤك والديّ كلاهما . . . وأرحم فإنك راحمٌ مرحومتبع الأول

ومن غريب ما نقله القرطبي في الأعلام أن الأنصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من أولاد العلماء والحكماء الذين كانوا مع تبع الأول فيما ذكر ابن إسحاق وكان تبع من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها وكان كثير الوزراء فاختاروا واحداص منهم وأخرجه معه لينظر في ملكه فكان إذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل ثم الذين اختارهم من البلدان وهذا القدر غير محسوب من الجيش فلما انتهى إلى مكة لم تخضع له أهل مكة كخضوع أهل البلاد ولم تعظمه فغضب لذلك ودعا وزيره وكان اسمه عماريا فقال له كيف شاهدت هذه البلد فإنهم لم يهابوني ولم يخشوا عسكري فقال إنهم عرب لا يعرفون شيئاً ولهم بيت يقال له الكعبة وهم معجبون به ويسجدون فيه للأصنام قال فنزل الملك بعسكره ببطحاء مكة وعزم على هدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء فأخذه الله بالصداع وتفجر من عينيه وأذنيه ومنخريه وفمه ماء منتن فلم يصبر عنده أحد طرفة عين من نتن الريح فاستيقظ لذلك وقال لوزيره أجمع العلماء والحكماء والأطباء وتكلم معهم في أمري فاجتمع عنده العلماء والحكماء والأطباء فلم يقدروا على الجلوس عنده ساعة وعجزوا عن مداواته وقالوا نحن نقدر على مداواة ما يعرض من أمور الأرض وهذا شيء من السماء لا نستطيع له رداً ثم اشتد أمره ونفرت الناس عنه ولم يزل أمره في شدة حتى أقبل الليل فجاء أحد العلماء إلى وزيره فقال له إن بيني وبينكسراً وهو إن كان الملك يصدقني في حديثه عالجته فاستبشر الوزير بذلك وقال له قل ما شئت فقال أريد الخلوة فأخلي له المكان فلما خلا مجلس الملك قال له العالم أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوء قال نعم نويت خرابه وقتل رجاله وسبي نسائه فقال له العالم أيها الملك هذه النية هي التي أحدثت لك هذا الداء ورب هذا البيت قادر يعلم الأسرار فبادر وأخرج من قلبك ما هممت به من أمر هذا البيت وأهله ولك خير الدنيا والآخرة قال الملك قد أخرجت ذلك من قلبي ونويت لهذا البيت المبارك ولأهله كل خير فلم يخرج العالم من عنده حتى برىء من علته وعافاه الله تعالى بقدرته فآمن بالله من ساعته وخلع على الكعبة سبعة أثواب وهو أول من كسار الكعبة وخرج إلى يثرب وهي يومئذ بقعة فيها عين ماء ليس فيها بيت فنزل على رأس العين هو وعسكره وجميع العلماء الذين كانوا معه ومعهم رئيسهم عماريا الذي يرى الملك برأيه ثم إن العلماء

والحكماء أخرجوا من بينهم أربعمائة وهم أعلمهم وبايع كل واحد منهم صاحبه أن لا يخرجوا من ذلك المقام ون قتلهم الملك فلما علم الملك بما عزموا عليه قال للوزير ما شأنهم يمتنعون عن الخروج معي وأنا محتاج إليهم واي حكمة أقتضت نزولهم في هذا المكان واختيارهم إياه على سائر النواحي فسألهم الوزير عن ذلك فقالوا أيها الوزير إن ذلك البيت وهذه البقعة التي نحن فيها يشرفان برجل يبعث في آخر الزمان يقال له محمد ووصفوه له ثم قالوا طوبى لمن أدركه وآمن به ونحن على رجاء أن ندركه أو تدركه أولادنا فلما سمع الوزير مقالتهم هم بالمقام معهم فلما جاء وقتالرحيل أمرهم الملك أن يرتحلوا فقالوا لا نفعل وقد أعلمنا الوزير بحكمة مقامنا فدعا بالوزير فأخبره بما سمع منهم فتفكر الملك وهم أن يقيم معهم رجاء أن يدرك محمداً صلى الله عليه وسلم فأقام وأمر الناس أن يبنوا أربعمائة دار على عدة العلماء والحكماء واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوجها برجل منهم وأعطى كل واحد عطاء جزيلا وأمرهم أن يقيموا في ذلك المكان إلى أن يجيء زمان النبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب الكتاب وختمه بخاتم من ذهب ودفعه إلى عالمهم الكبير وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه وإلا فيوصي به أولاده مثل ما أوصاه به وكذلك الأولاد حتى يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الكتاب ، أما بعد فإن آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك وبكل ما جاء من ربك من شرائع الإيمان والإسلام فإن أدركتك فيها نعمت وإلا فإشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإن من أمتك الأولين وقد بايعتك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ومن بعد وكتب عنوانه إلى محمد بن عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيين ورسول رب العالمي صلى الله عليه وسلم من تبع الأول الحميري ودفع الكتاب إلى الرجل العالم الذي أبرأه من علته وسار تبع من يثرب حتى وصل إلى بلاد الهند فمات بها وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تزيد ولا تنقص وكانت الأنصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماءفلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم فكانوا يتعلقون بناقته وهو يقول خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبي أيوب وكان من أولاد العالم الذي أبرأ تبعاً برأيه ثم استشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف في إيصال الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولما ظهر خبره قبل أبو ليلى وكان من الأنصار فدفعوا الكتاب إليه وأوصوه بحفظه فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في قبيلة بني سليم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه وقال أنت أبو ليلى قال نعم ومعك كتاب تبع الأول قال نعم فبقي أبو ليلى متفكراً وقال في نفسه إن هذا من العجائب ثم قال له أبو ليلى من أنت فإني لست أعرفك وتوهم أنه ساحر وقال في وجهك أثر السحر فقال له بل أنا محمد رسول الله هات الكتاب فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى علي كرم الله وجهه فقرأه عليه فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تبع قال مرحباً بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة ليبشرهم بقدومه عليهم . سول رب العالمي صلى الله عليه وسلم من تبع الأول الحميري ودفع الكتاب إلى الرجل العالم الذي أبرأه من علته وسار تبع من يثرب حتى وصل إلى بلاد الهند فمات بها

وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تزيد ولا تنقص وكانت الأنصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم فكانوا يتعلقون بناقته وهو يقول خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبي أيوب وكان من أولاد العالم الذي أبرأ تبعاً برأيه ثم استشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف في إيصال الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولما ظهر خبره قبل أبو ليلى وكان من الأنصار فدفعوا الكتاب إليه وأوصوه بحفظه فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في قبيلة بني سليم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه وقال أنت أبو ليلى قال نعم ومعك كتاب تبع الأول قال نعم فبقي أبو ليلى متفكراً وقال في نفسه إن هذا من العجائب ثم قال له أبو ليلى من أنت فإني لست أعرفك وتوهم أنه ساحر وقال في وجهك أثر السحر فقال له بل أنا محمد رسول الله هات الكتاب فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى علي كرم الله وجهه فقرأه عليه فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تبع قال مرحباً بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة ليبشرهم بقدومه عليهم .

وقال أبو عبد الله منحمد القرطبي نور الله ضريحه ما ذكرت هذا الخبر وإن كان فيه طول إلاّ لما احتوى عليه من فضل مكة والمدينة والتصديق بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أيجاده بالف عام .أول من جحد الدين

ومن لطائف ما نقلته من كتاب الاعلام للقرطبي ما أورده من مسند أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل إذا تداينتهم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه إلى آخر الآية إن أول من جحد الدين آدم عليه السلام لأنه لما أراه الله تعالى ذريته رأى فيهم رجلاً أزهر ساطع النور فقال يا رب من هذا قال ابنك داود قال يا رب فما عمره قال ستون سنة قال يا رب زد في عمره قال لا إلا أن تزيده من عمرك قال وما عمري قال ألف سنة قال آدم فقد وهبته أربعين سنة قال فكتب الله عليه كتاباً وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة قال بقي من عمري أربعين سنة فقيل له قد وهبتها لابنك داود قال ما وهبت لأحد شيئاً فأخرج الله ذلك الكتاب وفيه شهادة الملائكة . وفي رواية إن الله جل جلاله أتم لداود مائة سنة ولآدم ألف سنة أخرجه الترمذي بمعناه وصححه وفيه فقال عليه الصلاة والسلام نسي آدم فنسيت ذريته وجحد آدم فجحدت ذريته والله أعلم .

من غرائب التفسير

ومن غرائب التفسير ما نقلته من الأعلام أن في قوله تعالى ووجدك ضالاً فهدى أقوالاً ذكرت في أحكام مخارج القرآن أحسنها ما ذكره بعضالمتكلمين إن العرب كانت إذا وجدت شجرة منفردة في فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيهتدى بها على الطريق فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالاً فهدى أي وجدتك لا أحد على دينك فهديت بك الخلق إليّ .

حنان أبي بكر

ومن شهي المجتنى من ثمرات الأوراق ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه مر على طائفة بالمدينة

أيام خلافته فإذا بجارية تبكي وتقول :

وهويته من قبل قطع تمائمي . . . متناشياً مثل القضيب الناعم

فكأنّ نور البدر سنَّة وجهه . . . يمشي ويصعد من ذؤابة هاشم

فقرع الباب فخرجت إليه فقال لها أحرة أنت أم أمة فقالت بل أمة يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من هويت فبكرت وقالت بحق صاحب هذا القبر إلا انصرفت عني فقال لست بمنصرف من مكاني حتى تعلميني وتقول لي فقالت :

إن الذي عمل الفراق بقلبها . . . فبكت بحبّ محمد بن القاسم

فسار أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه وبعث بها إلى علي ابن القاسم بن جعفر بن أبي طالب عفي عنه .عمر بن الخطاب في بيت المقدس

ومن مناقب الإمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في فتح بيت المقدس إن المسلمين تكامل لهم فتوح الشام فأقاموا على دمشق شهراً فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين واستشارهم في المسير إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس فقال له معاذ بن جبل أيها الأمير أكتب لأمير المؤمنين عمر فحيث أمرك أمتثله قال له أصبت الرأي يا معاذ ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بذلك وأرسل الكتاب إلى عرفجة بن ناصح النخعي فسار حتى وصل المدينة فسلم الكتاب إلى عمر رضي الله عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم فقال عليّ رضي الله تعالى عنه يا أمير المؤمنين مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس فإذا فتح الله بيت المقدس صرف وجهه إلى قيسارية فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم وصدقت يا أبا الحسن ثم دعا بدواة وبياض وكتب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه وقد وصلني كتابك تستشيرني إلى أي ناحية تتوجه وقد أشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسير إلى بيت المقدس فإن الله يفتحها على يدك والسلام فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس وتقدمه الجيش إلى بيت المقدس وأقام المسلمون في القتال عشرةأيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح لعدم الخوف فلما كان يوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن يساره فضج الناس ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير فوقع الرعب في أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقمامة وهي البيعة المعظمة عندهم فلما وقفوا بين يدي البطرك قال لهم ما هذه الضجة التي أسمع قالوا يا أبانا قد قدم أمير المؤمنين ببقية المسلمين فلما سمع البطرك منهم ذلك انخطف لونه وتغير وجهه وقال أنا وجدنا في علمنا الذي ورثناه إن الذي يفتح الأرض هو الرجل الأحمر صاحب نبيهم محمد فإن كان قدم عليكم فلا سبيل إلى قتاله ولابد أن أشرف عليه وأنظر إلى صفته فإن كان هو أجبته إلى ما يريد وإن كان غيره فلا بأس عليكم ثم وثب قائما والقسس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصلبان على رأسه فصعدوا إلى السور إلى أن ورد أبو عبيدة رضي الله عنه فناداهم رجل من الروم بإذن البطرك يا معاشر المسلمين كفوا على القتال حتى نسألكم فأمسك المسلمون عنهم فناداهم الرجل بلسان عربي أعلموا أن الرجل الذي يفتح بلدتنا هذه وجميع الأرض صفته عندنا فإن كانت

في أميركم لم نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم تكن هذه صفته فلا نسلم إليكم أبداً فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم فنظر البطرك وحقق صوته فقال ليس هو الرجل فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحريمكم وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبرج فأقاموا عليها أربعة أشهر في أشد قتال مع الصبر على المطر والثلج فلمانظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار في ذلك الفصل الصعب وما نزل بهم من المسلمين وقفوا بين يدي البطرك وقالوا له قد عظم الأمر ونريد منك أن تشرف على القوم وتسأل من الذي يريدون فإن كان أمراً صعباً فتحنا الأبواب وخرجنا إليهما فأما نقتل عن آخرنا أو نهزمهم عنا فأجابهم البطرك إلى ذلك وصعد السور والجتمع القسيسون والرهبان حوله ونادى منهم رجل بالعربي وقال يا معشر الفرسان عمدة دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم فليدنُ منا أميركم فقام أبو عبيدة يمشي ومعه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان فلما وقف بإزائهم قال ما الذي تريدون هذا أمير العرب فقال البطرك إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا إلى فتح بلدتنا أبداً وإنما يفتحه رجل موصوف وليست الصفة معكم قال أبو عبيدة وما صفة من يفتح بلدكم قال البطر لا نخبركم بصفة ولكن قرآنا إن هذا البلد يفتحه صاحب لمحمد اسمه عمر بن الخطاب ويعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم فلما سمع أبو عبيدة كلام البطرك تبسم وقال فتحنا البلد ورب الكعبة ثم أقبل على البطرك وقال إن رأيت الرجل تعرفه قال نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندنا قال أبو عبيدة هو والله خليفتنا وصاحب نبينا صلى الله عليه وسلم قال البطرك فإذا كان الأمر على ما ذكرتم فأحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتي فإذا رأيناه وتبينا نعته فتحنا له البلد وأعطيناه الجزيةفانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال وأعلمهم بالخبر فكبروا وكتب أبو عبيدة إلى الإمام عمر رضي الله عنه يعلمه بالخبر على يد ميسرة بن مسروق فلما وصل الكتاب إلى عمر رضي الله عنه فرح وقرأه على المسلمين وقال ما ترون رحمكم الله فيما كتب إلينا أمين الأمة فكان أول من تكلم عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد أذل الروم فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف فلا يثبتون إلا يسيراً فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيراً وقال هل عند أحدهم منك رأي غير هذا فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه نعم عندي غير هذا الرأي وأنا أبديه إليك رحمك الله فقال له عمر وما هو أبا الحسن قال إن القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذل وهو على المسلمين فتح وقد أصابهم جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام وإن سرت إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة وكان لك في مسيرك الأجر العظيم ولست آمن منهم إنهم إذا آيسوا منك أن يأتيم المدد من طاغيتهم فيحصل للمسلمين بذلك الضرر والصواب أن تسير إليهم ففرح عمر بمشورة علي وقال لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو وعلي أحسن النظر للمسلمين جزاهما الله خيراً ولست آخذ إلا بمشورة علي فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الطلعة ثم إن عمر أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة وهو على بعير له أحمر عليه غرارتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر وبين يديه قربة وخلفه جفنةالزاد وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس فالتقاه أبو عبيدة فلما رآه أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجلا ومد أبو عبيدة يده وصافح عمر وتعانقا وسلم كل منهما على صاحبه وأقبل

المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم إلى أن حضرت صلاة الظهر أذن بلال في ذلك اليوم فلما قال الله أكبر خشعت جوارحهم واقشعرت أبدانهم فلما قال أشهد أن لا إله إلى الله . وأشهد أن محمداً رسول الله أبكى الناس بكاء شديداً عند ذكر رسوله وكاد بلال أن يقطع الأذان فلما فرغ الأذان صلى عمر وجلس ثم أمرهم بالركوب فلما همّ بالركوب من بعيره وعليه مرقعة الصوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من آدم قال المسلمون يا أمير المؤمنين لو ركبت غير بعيرك جواداً ولبست ثيابا لكان ذلك أعظم لهيبتك في قلوب أعدائك وأقبلوا يسألونه ويتلطفون به إلى أن أجابهم إلى ذلك ونزع مرقعته ولبس ثياب بيضا قال الزبير أحسبها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشرة درهما وطرح على كتفيه منديلاً من الكتان دفعه إلى أبو عبيدة وقدذم له برذونا أشهب من براذين الروم فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج به فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً وقال أقيلوا عثرتي أقالكم الله عثراتكم يوم القيامة لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر ثم إنه نزع البياض وعاد إلى لبس مرقعته وركوببعيره فعلت ضجة المسلمين بالتهليل والتكبير فقال البطرك للروم أنظروا ما شأن العرب فأشرف رجل من المتنصرة فقال يا معشر العرب ما قضيتكم فقالوا أن عمر بن الخطاب قد قدم علينا من مدينة نبينا صلى الله عليه وسلم فرجع المتنصر وأعلم البطرك فأطرق ولم يتكلم فلما كان من الغد صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم قال لأبي عبيدة تقدم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى فما تصنعون فيما قلتم فاعلم البطرك بذلك فخرج من قمامة وعليه المسوح ومن حوله الرهبان والقسس ثم علا السور وأشرف على أبي عبيدة وقال ما هذا أيها الشيخ قال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين من بينكم حتى نراه فرجع أبو عبيدة إلى عمر فأخبره بما قال البطرك فهم عمر بالقيام فقال له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى عليك من الإنفراد بلا عدة فقال عمر قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ثم لبس مرقعته وركب بعيره وأبو عبيدة سائر بين يديه إلى أن أتى بإزاء البطرك قريباً من الحصن فقال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين فمد البطرك عنقه ونظر إليه فزعق زعقة قال هذا والله الذي صفته ونعته في كتبنا ثم قال يا أهل بيت المقدس انزلوا إليه وخذوا منه الأمان والذمة فهذا والله صاحب محمد بن عبد اللهفنزلوا مسرعين وكان أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار وفتحوا الباب وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد فلما رآهم عمر رضي الله عنه في تلك الحالة تواضع لله سبحانه وتعالى وخر ساجداً على قتب بعيره ثم أقبل عليهم وقال ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد فرجع القوم إلى البلد ولم يغلقوا الباب ورجع عمر فلما كان من الغد وهو يوم الأثنين دخل إليها وأقام بها إلى يوم الجمعة وخطّ بها محراباً وهو موضع مسجد وتقدم وصلة بالمسلمين صلاة الجمعة وأقام في بيت المقدس عشرة أيام وبها أسلم كعب الأحبار على يده وارتحل معه إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن كتب الإمام عمر لأهل بيت المقدس وأقرهم في بلدهم على عهدهم وأداء الجزية .

الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر والعجوز

قال أبو الحسن المدائني خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر رضي الله عنه حجاجا

ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقال أحدهم هل من شراب قالت نعم فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة فقالت احلبوها فاشربوا لبنها ففعلوا فقالوا هل من طعام قالت لا إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوافلما ارتحلوا قالوا نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألّمي بنا فإنّا صانعون إليك خيرا فارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب وقال ويحك تذبحين شاتي لقوم لا أعرفهم ثم تقولين نفر من قريش ثم بعد مدة ألجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا يلتقطان البعر ويعيشان بثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي على باب داره فعرف العجوز وهي منكرة فبعث إليها غلامه فدعا بها فقال لها يا أمة الله أتعرفيني قالت لا قال أنا ضيفك بالأمس يوم كذا وكذا قالت بابي أنت وأمي ثم اشترى لها من شاة الصدقة ألف شاة وأمر لها بألف دينار بعث بها مع غلامه إلى الحسين رضي الله عنهما فأمر لها بمثل ذلك وبعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال عنه فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين قالت بألفي شاة وألفي دينار فقال لها لو بدأت بي لأتعبتهما في العطاء أعطوها عطيتهما فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة .بين الحسين وأخيه محمد بن الحنفية

ومما يضارع هذه اللطائف أنه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد بن الحنيفة رضي الله عنهما كلام فانصرفا متغاضبين فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعة وكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين بن علي ابن أبي طالب أما بعد فإن لك شرفا لا أبلغه وفضلا لا أدركه فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعليك وسر إليَّ فترضيني وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام فلما قرأ الحسين رضي الله عنه الرقعة لبس رداءه ونعليه ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه .

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

قال أبو الفرج الاصفهاني حدثني أحمد بن محمد الجعدي ومحمد بن يحيى قالا حدثنا محمد بن زكريا العلاثي قال حدثنا ابن عائشة قال حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد ومعه رؤساء أهل الشام فطاف وجهد أن يستلم الحجر فلم يقدر من الازدحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس فأقبل علي بن الحسين رضي الله عنهما وهو أحسن الناس وجها وأنظفهم ثوبا وأطيبهم رائحة فلما طاف بالبيت وبلغ الحجر تنحى الناس كلهم إجلالا له فاستلم الحجر وحده فغاظ ذلك هشاما وبلغ منه فقال رجل من أهل الشام لهشامّمن هذا أصلح الله الأمير قال لا أعرفه وكان عارفا ولكن خاف من رغبة أهل الشام فقال الفرزدق وكان حاضرا أنا أعرفه يا شامي قال من هو قال :

هذا ابنُ من تعرف البطحاء وطأته . . . والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

هذا ابن خير عباد الله كلِّهم . . . هذا التقيُّ الطاهر العلم

إذا رأته قريشٌ قال قائلُهُمْ . . . إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

هذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهلُهُ . . . بجدّه أنبياء الله قد ختموا

يكاد يمسكه عرفان راحته . . . رُكن الحطيم إذا ما جاء يستلم
أي الخلائق ليست في رقابهم . . . لأوليه هذا فأوله نِعمُ
من يعرف الله يعرف أولية ذا . . . فالدين من بيت هذا ناله الأمم
وليس قولك من هذا بضائره . . . فالعرب تعرف من أنكرت والعجم

فحسبه هشام ثم أطلقه فوجه إليه علي بن الحسين عشرة آلاف درهم وقال أعذرنا يا أبا فراس فلوا كان معنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به فردها الفرزدق وقال ما قلت ما كان إلا الله فقال له علي بن الحسين قد رأى الله مكانك ولكننا أهل بيت إذا أنفذنا شيئاً لم نرجع فيه وأقسم عليه فقبلها .رأي أريب أو خدعة أديب

ومن غالي جواهر العقد لابن عبد ربه قال يزيد حدثني أبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم من المدينة إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية في موكب نبيل فأعرض عنه عمر فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن بن عوف أتعبت الرجل فأقبل عليه وقال يا معاوية أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك قال لأنا في بلاد لا تمنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت قال إن كان الذي قلت حقاً فإنه رأي أريب وإن كان باطلاً فإنها خدعة أديب فلا آمرك ولا أنهاك عنه .

إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء

ومن لطائف معاوية أنه كان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرض معاوية فيها عبيد له من الزنوج ويعمرونها فدخلوا في أرض عبد الله فكتب إلى معاوية أما بعد فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من أرضي وإلا كان لي ولك شأنفلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد فلما قرأه قال له ما ترى قال أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه قال يا بني عندي خير من ذلك عليَّ بداوة وقرطاس وكتب ، وقفت على كتابك يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءني والله ما ساءك والدنيا هينة عندي في جنب رضاك وقد كتبت على نفسي رقماً بالأرض والعبيد وأشهدت عليّ فيه ولتضف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه إلى ابنه يزيد فلما قرأه أسفر وجهه فقال يا بني إذا رميت بهذا الداء دواه بهذا الدواء .

إيثار بحياة ساعة

قال الأستاذ أبو علي لما سعى غلام خليل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فأما الجنيد فإنه استتر بالفقه وأما الشخام والرقام والثوري وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم فتقدم الثوري فقال لهالسياف أتدري لماذا تتقدم قال نعم قال فما يعجلك قال أوثر أصحابي بحياة ساعة فتحير السياف ونما الخبر إلى الخليفة فردهم إلى القاضي ليعرف أحوالهم فألقى القاضي على أبي الحسن الثوري مسائل فقهية فأجاب عن الكل ثم أخذ يقول إن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا بالله وسرد حتى بكى القاضي فأرسل إلى الخليفة إن كان هؤلاء زنادقة فما هو وجه الأرض مسلم فأكرمهم وأطلقهم .

لا يهاب الموت

ومن المروي عن أحمد بن أبي داود القاضي أنه قال ما رأيت رجلاً عرض على الموت فلم يكترث به إلا تميم بن جميل الخارجي كان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جيء به أسيراً فأدخل عليه في يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاما ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه نظر المعتصم فأعجبه شكله وقده ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكرة فيه ثم استنطقه لينظر في عقله وبلاغته فقال يا تميم إن كان لك عذر فأت به فقال أما إذا أذن أمير المؤمنين جبر الله به صدع الدين ولَمَّ به شعث المسلمين وأخمد شهاب الباطل وأنار سبل الحق فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنوتصدع الأفئدة وأيِّم الله لقد عظمت الجريمة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمتك الطاهرة ثم أنشد :

ارى الموت بين السيف والنطع كامناً . . . يلاحظني من حيثُ لا أتلفَّتُ

وأكثر ظنيّ أنك اليوم قاتلي . . . وأيُّ امرىءٍ مما قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يأتي بعذرٍ وحجةٍ . . . وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَت

وما جزعي من أن أموت وإنني . . . لأعلم أنّ الموت شيءٌ موقّت

ولكن خلفي صبيةً قد تركتهم . . . وأكبادُهُم من حسرةٍ تتفتَّت

كأنيّ أراهم حين أُنعى إليهمُ . . . وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا

وإن عشت عاشوا سالمين بغبطةٍ . . . أذود الردى عنهم وإن متُّ موِّتوا

وكم قائلٍ لا يبعد الله داره . . . وآخر جذلان يسرُّ ويشمت

قال فبكى المعتصم وقال ابن من البيان لسحراً ثم قال كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل وقد وهبتك لله ولصبيتك وأعطاه خمسين ألف درهم .

سماحة غسان بن عبادة

ومن لطائف المنقول من المستجاد أنه كان بين غسان بن عباد وبين علي بن عيسى القمر عداوة عظيمة وكان علي بن عيسى ضامنا أعمال الخراج والضياع ببلده فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار فألح المأمون عليهبطلبها إلى أن قال لعلي بن صالح الحاجب أمهله ثلاثة ايام فإن أحضر المال وإلا فأضربه بالسياط حتى يؤدي المال أو يتلف فإنصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيسا من نفسه وهو لا يدري وجها يتجه إليه فقال له كاتبه لو عرجت على غسان بن عباد وعرفته خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك فقال له على ما بيني وبينه من العداوة فقال نعم فإن الرجل أريحي كريم فدخل على غسان فقال إليه وتلقاه بالجيمل وأوفاه حقه بالخدمة ثم قال له الحال الذي بيني وبينك على حاله ولكن دخولك إلى داري له حرمة توجب بلوغ ما رجوته مني فأذكر أن كان لك حاجة فقص عليه القصة فقال أرجو أن يكفيكه الله تعلى ولم يزده على ذلك شيئاً فنهض علي بن عيسى وخرج آيسا نادما على قصد غسان وقال لكاتبه ما أفدتني بالدخول على غسان غير تعجيل الشماتة والهوان فلم يصل علي بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه البغال عليها المال فتقدم وسلمه وبكر إلى دار أمير المؤمنين فوجد غسان قد سبقه إليها ودخل على المأمون وقال يا أمير المؤمنين أن لعلي بن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة وسالف أصل وقد لحقه من الخسران

في ضمانه ما تعارفه الناس وقدتوعدته بضرب السياط بما أطار عقله وأذهب لبَّه فإن رأى أمير المؤمنين أن يجيزني على حسن كرمه ببعض ما عليه فهي صنيعة يجددها على تحرّس ما تقدمها من إحسانه ولم يزل يتلطف إلى أن حط عنه النصف واقتصر على عشرين ألف دينار فقال غسان على أن يجدد عليه أمير المؤمنين الضمان ويشرفه بخلعة تقوّي نفسه وترهف عزمه ويعرف بها مكان الرضا عنه فأجابه المأمون إلى ذلك قال فيأذن أمير المؤمنين أم أحمل الداوة إلى حضرته ليوقع ما رآه من هذا الإنعام قال افعل فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين فوقع ذلك وخرج علي بن عيسى بالخلعة والتوقيع بيده فلما حضر في داره حمل من المال عشرين ألف دينار وأرسلها إلى غسان وشكره على جميل فعله معه فقال غسان لكاتبه والله ما شفعت عند أمير المؤمنين إلا لتوفر عليه وينتفع بها فأمض بها إليه فلما ردها كاتبه إلى علي بن عيسى علم قدر ما فعل غسان فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر .عبيد بن شرية عند معاوية

قيل لمعاوية ابن أبي سفيان إن بالحيرة رجلاً من بني جرهم قد عمّر ورأى أعاجيب فقال معاوية عليَّ به فلما حضر قال من الرجل قال عبيد بن شربة قال ثم ممن قال من قوم لم يبق منهم بقية قال فكم مضى من عمرك قال عشرين ومائتا سنة قال أخبرني بأعجب ما رأيت في عمرك قال نعم يا أمير المؤمنين كنت في حي من أحياء العرب فمات عندهم ميت يقال له عشير بن لبيد العذري فمشيت في جنازته وتأسيت بجماعته فلما دفن في قبره وأعول النساء في أثره أدركتني عليه عبرة ولم أستطع ردها وتمثلت بأبيات كنت سمعتها قديما وعلق الآن على خاطري منها هذه الأبيات :

يا قلب إنك من أسماءُ مغرور . . . فأذكر وهل ينفعنك اليوم تذكيرُ

قد بحت بالحبِّ ما تخفيه من أحدٍ . . . حتى جرت لك اطلاقاً محاظير

فلست تدري ولا تدري أعاجلها . . . أدنى لرشدك أمْ ما فيه تأخير

فاستقدر الله خيراً وارضيَنَّ به . . . فبينما العسر إذا دارت مياسير

وبينما المرء في الأحياء مغتبطٌ . . . إذا هو الرّمس تعفوه الأعاصير

يبكي الغريب عليه ليس يعرفُهُ . . . وذو قرابته في الحيّ مسرور

وذاك أخر عهدٍ من أخيك إذا . . . ما المرء ضمّنه اللحد الخناسيرفبينما أنا أردد هذه الأبيات وعيناي ينسكبان إذ قال لي رجل إلى جنبي من عذرة يا عبد الله هل تعرف قائل هذا الشعر قلت لا والله قال قائله هذا الميت الذي دفناه وأنت الغريب الذي تبكي عليه ولا تعرفه ولا تعلم إنه قائل هذه الأبيات وذو قرابته الذي ذكرته مسرور هو ذاك وأشار إلى رجل في الجماعة فرأيته لا يستطيع كتمان ما هو عليه من المسرة فقال معاوية يا أخا جرهم سل ما شئت قال ما مضى من عمري ترده والأجل إذا حضر تدفعه قال ليس ذلك لي سل غيره قال يا أمير المؤمنين ليس إليك رد شبابي ولا الآخرة فتكرم مآبي والمآل فقد أخذت عنه في عنفواني ما كفاني قال لابد أن تسألني قال أما إذا شئت فأمر لي برغيفين أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخرة واتق الله وأعلم أنك مفارق ما أنت فيه وقادم على ما قدمت ، فأمر له معاوية بأشياء من حنطة وغيرها فردها وقال إن أعطيت المسلمين كلهم مثلها أعطيتني وإلا فلا حاجة لي في ذلك ثم ودعه وانصرف .

كرم عبد الله بن جعفر

وقيل وفد عبد الله بن جعفر رضي الله عنه على أحد خلفاء بني أمية فقال له الخليفة كم كان أمير المؤمنين يعطيك يعني أباه قال كان رحمه الله يعطيني ألفألف درهم قال زدناك لترحمك عليه ألف ألف درهم قال بأبي أنت وأمي قال وبهذه ألف ألف لا أقولها لأحد بعدك قال ولهذه ألف ألف قال منعني من الأطناب في وصفك الإشفاق عليك من جودك قال ولهذه ألف ألف فقيل : فرَّقتَ يا أمير المؤمنين بيت مال المسلمين على رجل واحد قال إنما فرقته على أهل المدينة أجمعين ثم وكل به من يعلمه بخبره من حيث لا يشعر فلما قدم المدينة فرق جميع ما معه حتى احتاج بعد شهر إلى القرض .

فكاهة ظريفة

ومن لطائف المنقول أن رجلاً قال لهشام القرطبي كم تعد قال من واحد إلى ألف ألف وأكثر قال لم أرد هذا كم تعد من السن قال اثنتين وثلاثين سنا ستة عشر من أعلى وستة عشر من أسفل قال لم أرد هذا كم لك من السنين قال والله ليس لي منها شيء والسنون كلها لله قال يا هذا ما سنك قال عظم قال أبِنْ لي أبِنْ كم أنت قال اثنين رجل وامرأةقال كم أتى عليك قال لو أتى علي شيء قتلني قال كيف أقول قال تقول كم مضى من عمرك .

جوار سعيد بن العاص

قيل عرض محمد بن الجهم دارة للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص فقالوا له والجوار يباع قال كيف لا يباع جوار من إن سألته أعطاك وإن سكت عنه ابتدأك وإن أسأت إليه أحسن إليك فبلغ ذلك سعيداً فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك دارك عليك .

قيل عرض محمد بن الجهم دارة للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص فقالوا له والجوار يباع قال كيف لا يباع جوار من إن سألته أعطاك وإن سكت عنه ابتدأك وإن أسأت إليه أحسن إليك فبلغ ذلك سعيداً فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك دارك عليك .

أسخى من عبد الله بن جعفر

قيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها فأتى بثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا منه فرمى إليه بالأول وبالثاني والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت الكلب قال لان أرضنا ما هي بأرض كلاب وأخاله جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت ردهقال فما كنت صانعاً اليوم قال أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر الأمر مبني على السخاء والله إن هذا لاسخى مني فاشترى النخل والعبد فأعتقه ووهب ذلك له .

الأولى بالتقديم

ومن لطائف المنقول لأنه رفع للرشيد موت العباس بن الأحنف وإبراهيم الموصلي المعروف بالنديم وعشيمة الخمارة في يوم واحد فخرج للصلاة عليهم فصفوا بين يديه فقال من الأول فقالوا إبراهيم الموصلي فقال أخروه وقدموا العباس بن الأحنف فقدم وصلى عليه فلما فرغ وانصرف ، دنا منه هاشم بن عبد الله الخزاعي وقال يا أمير المؤمنين كيف آثرت العباس بالتقديم على من حضر فقال بقوله :

وسعى بها قومٌ وقالوا إنّما . . . لهي التي تشقى بها وتكابد

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهّم . . . إني ليعجبني المحبُّ الجاحد

ثم قال أتحفظهما قلت نعم قال أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقديم فقلت بلى والله يا أمير المؤمنين مواصفات العدل.

قلت ويضارع هذا ما حكاه صاحب الأغاني حكي أن رجلا أدى شهادة عند بعض القضاة فقال القاضي هل يعرفك أحد من ذوي العدالة قال نعم فلان فلما حضر قال له القاضي هل تعرف هذا قال نعم أعرفه عدلا وما ذاك إلا أني سمعته ينشد لجرير :

إن الذين غدوا بلبِّك غادروا . . . وشلاً بعينك لا يزال معينا

فغضضن من أبصارهنّ وقلن لي . . . ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فعلمت أن هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن .

رقائق تقي الدين السروجي

وقال الشيخ أثير الدين أبو حبان رحمه الله كانت رقائق الشيخ تقي الدين السوجي تسلب العقول وكان يغنّى بها في عصره لأنها في الطريق الغرامي غاية لا تدرك فمن ذلك قوله رحمه الله :

أنعم بوصلك لي فهذا رقتهُ . . . يكفي من الهجران ما قد ذُقتهُ

أنفقت عمري في هواك وليتني . . . أُعطي وصولاً بالذي أنفقته

يا من شُغِلت بحبِّه عن غيره . . . وسلوت كلَّ الناس حين عشقتهكم جال في ميدان حسنك فارسٌ . . . بالسبق فيك إلى رضاك سبقته

أنت الذي جمع المحاسن وجهه . . . لكن عليه تصبُّري فرّقته

قال الوشاة قد ادّعى بك نسبةً . . . فسررت لّما قلت قد صدَّقته

بالله إن سألوك عنّي قل لهم . . . عبدي وملك يدي وما أعتقته

أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم . . . أدري بذا وأنا الذي شوَّقته

قلت لو كان الشيخ تقي الدين السورجي رحمه الله في جملة من صلى عليه الرشيد لم يقدم غيره عليه ، قال الشهاب محمود وكان الشيخ تقي الدين السروجي مع دينه وورعه وزهده وعفته مغرما بالجمال وكذلك قال الشيخ أثير الدين وكان يكره مكانا فيه امرأة ومن دعاه من أصحابه قال شرطي معروف وهو أن لا يحضر بالمجلس امرأة . قال الشهاب محمود وكنّا يوما في دعوة فأحضر صاحب الدعوة شواء وأمر بإدخاله إلى النساء ليجعلنه في الصحون فلما أحضر بعد ذلك تقرّف منه وقال كيف وقد مسسنه بأيديهن .

قال الشيخ أثير الدين ولما توفي الشيخ تقي الدين بمصر رابع رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وستمائة حلف أبو محبوبة أن لا يدفنه إلا في قبر ابنه وقال كان الشيخ يهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات هذا لما كان يعلمه من دينه وعفافه .توثيق بالبديع

ومن لطائف المنقول ما نقله الشيخ الإمام العالم العلامة الحبر زين الدين أبو حفص عمر بن الوردي رحمه الله تعالى لما دخل دمشق المحروسة في أيام قاضي القضاة نجم الدين بن مصري الشافعي تغمده الله برحمته ورضوانه فأجلسه في صفة الشهود المعروفة بالشباك وكان الشيخ زين الدين يلبس زي أهل المعرفة فاستزاره

الشهود فحضر كتاب مشترى فقال بعضهم أعطوا المعري يكتبه فقال الشيخ زين الدين ترسمون أكتبه نظما أو نثرا فزاد استهزاؤهم فقالوا نظما فأخذ القرطاس وكتب :

آله الخلق هذا ما اشترى . . . محمدُ بن يونس بن سنقرا

من مالك بن أحمد بن الأزرق . . . كلاهما قد عرف من جلّق

فباعه قطعة أرضٍ واقعه . . . بكورة الغوطة وهي جامعة

لشجرٍ مختلف الأجناس . . . والأرض في البيع مع الغرّاس

وذرع هذي الأرض بالذراع . . . عشرون في الطول بلا نزاع

وذرعها في العرض أيضاً عشره . . . هي ذراعٌ باليد المعتبرة

وحدّها من قبلةٍ ملك التقي . . . وحائز الروميّ حدّ المشرق

ومن شمالٍ ملك أولاد علي . . . والغرب ملك عامل بن جهبل

وهذه تعرف من قديم . . . بأنها قطعة بيت الرومي

بيعاً صحيحاً لازماً شرعيًّا . . . ثم شراءً قاطعاً مرعيًّا . . .بثمن مبلغه من فضَّه . . . وازنةٌ جيّدةٌ مبيضّه

جاريةٌ للناس في المعاملة . . . ألفان منهما النصف ألفٌ كامله

قبضها البائع منه وافيه . . . فعادت الذّمة منه خاليه

وسلّم الأرض إلى من اشترى . . . فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق . . . طوعاً فما لأحدٍ تعلّق

ثم ضمان الدرك المشهور . . . فيه على بائعه المذكور

وأشهدا عليهما بذاك في . . . رابع عشر رمضان الأشرف

من عام سبعمائة وعشرة . . . من بعد خمسٍ تلوها للهجرة

والحمد لله وصلى ربي . . . على النبيَّ وآله والصحب

يشهد بالمضمون من هذا عمر . . . ابن المظفر المعرِّي إذ حضر

فلما فرغ الشيخ زين الدين وتأمل الجماعة سرعة بديهته مع استيعاب الشروط الشرعية اعترفوا بفضله واعتذروا إليه لما علموا أنه ابن الوردي وأجلسوه في الصدر ولكنهم عجزوا عن رسم الشهادة نظما وسألوه ذلك فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن رسول :

قد حضر العقد لذاك أحمدُ . . . ابنُ رسولٍ وبذاك يشهدتحفة من فوائد كتاب الإنشاء

عبد الحميد الكاتب

قال عبد الحميد كاتب

قال عبد الحميد كاتب مروان ملوك بني أمية : لو كان الوحي ينزل على أح بعد الأنبياء لنزل على كتاب الإنشاء . وقال : البلاغة هي ما رضيته الخاصة ، وفهمته العامة . ومن كلامه : خير الكلام ما كان فحلا ومعناه بكرا .

إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد

كتب إلى يحيى بن خالد ، في شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه جمع من الشكر والاستزادة بأبلغ عبارة وأوجز .عمرو بن مسعدة كاتب المأمون

كتب إليه كتابي هذا وأجناد أمير المؤمنين على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم فقال المأمون لأحمد بن يوسف لله در عمرو ما أبلغه ألا ترى إلى ادماجه المسئلة في الأخبار وإعفائه من الإكثار .

إبراهيم الصولي كاتب المعتصم والواثق والمتوكل

كان يقول التصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منشئه وكان يقول الخبر ليومه والطيخ لساعته والنبيذ لسنته .

ومن بديع نثره ما كتبه عن أمير المؤمنين إلى بعض الخارجين يتهددهم ويتوعدهم أما بعد فإن لأمير المؤمنين أناة فإن لم تغن عقب بعدها وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائمه والسلام . وهذا الكلام وجازته في غاية الإبداع وينشأ منه بيت شعر وهو :

أناةٌ فإن لم تغنِ عقّب بعدها . . . وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه

وكان يقول ما اتكلت في مكاتبي إلا على ما يتخيله خاطري ولا يجلس في صدري إلا قولي وصار ما يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم يعتقلهموقولي من أخرى فانزلوه من معقل إلى عقال وبدلوه آجالا من آمال فإني ألممته بقولي آجالا من آمال بقول مسلم بن الوليد الإنصاري المعروف بصريع الغواني :

موفٍ على مهجٍ في يوم ذي وهجٍ . . . كأنّه أجلٌ يسعى إلى أمل

وفي المعقل والعقال بقول أبي تمام

فإن باشر الأضحى فبالبيض والقنا . . . قِراه وأحواض المنايا مناهله

وإن تبن حيطاناً عليه فإنما . . . أولئك عقّالاته لا معاقله

وإلاّ فأَعلمه ساخطٌ . . . عليه فإنّ الخوف لا شك قاتله

ومن رقيق شعره حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر فقال ارتجالا :

صدّ عنّي وصدَّق الأقوال . . . وأطاع الوشاة والعذّالا

أتراه يكون شهر صدودٍ . . . وعلى وجهه رأيت الهلالا

فطرب المتوكل واهتز وخلع عليه .

ومن رقيق شعره أيضا قوله :

دنت بأناسٍ عن تناءٍ زيارةٌ . . . وشطّ بليلى عن دنوٍّ مزارها

وإنّ مقيماتٍ بمنعرج اللوى . . . لأقرب من ليلى وهاتيك دارهاالحسن بن وهب

سئل عن مبيته فقال شربت البارحة على عقد الثريا ونطاق الجوزاء فلما تنبه الصبح نمت فلم استيقظ إلاّ بلبسي قميص الصبح .

بديع الزمان الهمذاني

الحمد لله الذي بيّض القار وسماه الوقار وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد .

ومن إنشائه البديع قد يوحش اللفظ وكله ود ويكره الشيء وليس منه بد هذه العرب تقول لا أبا لك ولا يقصدون الذم وويل أمه لأمر إذا هم وسبيل ذوي الألباب في الدخول من هذا الباب أن ينظروا في القول إلى قائله فإن كان وليا فهو للولاء وإن خشن ، وإن كان عدواً فهو للبلاء وإن حسن .أبو القاسم المغربي

ومن إنشاء أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بالمغربي وصلت الرقعة فاستجفيت النسيم بالإضافة إلى لطافتها واستثقلت عقود اللؤلؤ بالقياس إلى خفة موقعها .

ومن بديع إنشائه وغرقت في هواجس الفكر ووساوس الذكر حتى نسيتكم من شدة التذكر أو لقيتكم من حدّة التصور ولله تعالى أسأل أن يسقط أنيننا في تشاكي ألم الفراق وإسناد القلم بمشافهة الفم للفم .

أبو الحسن بن بسام

من إنشائه عارض إذا همع استوشلت البحار ونجم إذا طلع تضاءلت الشموس والأقمار وسابق لا يمسح وجهه إلا بهيادب الغيوم وصارم لا يجلي غمده إلا بإفراد النجوم .ضياء الدين ابن الأثير الجزري

ودولته هي الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس وهي خير دولة أخرجت للدهر ورعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لا تهرم وأنها لا تزال محبوة من أبكار السعادة بالوصل الذي لا يصرم .

وله في القلم فهو الملقب بالجواد المضمر وإذا أخذت السوابق في احضارها بلغ الغاية وما أحضر وله لون تحقق فيه القول النبوي لو جمعت الخيل في صعيد لسبقها الأشقر .

تاج الدين بن الأثير

ومن إنشاء القاضي تاج الدين بن الأثير والمنجنيقات تفوَّق غليهم قسيّها وتخيّل لهم أنها ساعية بحبالها إليهم وعصيها وهي للحصون من آكد الخصوم وإذا أمَّت حصناً حُكم بأنه ليس بإمام معصوم ومتى امترى خلق في آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من الممتري وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباحالمنذرين تدعى إلى الوغى فتكلم وما أقيمت صلاة حرب عند حصن إلا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلم .

أبو إسحاق الصابي

ولقد سهوت عن الصابىء وكان في هذا الفن أمة وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند معز الدولة بن بويه وكان متشددا في دينه واجتهد معز الدولة أن يسلم فلم يفعل وكان يصوم شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ واستعمله في رسائله والصابىء عند العرب من خرج عن دين قومه .

قيل للصابىء أن الصاحب بن عباد قال ما بقي من أوطاري وأغراضي إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب الصابىء ويكتب عني وأغير عليه فقال الصابىء ويكتب عني وأغير عليه فقال الصابىء ويغير علي وإن أصبت .

ومن إنشائه ما كتب به إلى أبي الخير عن رقعة وصلت تتضمن أنه أهدى إليه جملا ، وصلت رقعتك ففضضتها عن بلاغة يعجز عنها عبد الحميد في بلاغته وسبحان في خطابته وتصرف بين جد أمضى من القدر وهزل ارق من نسيم السحر إلا أن الفعل قصر عن القول لأنك ذكرت جملا جعلته لصفتك جملا وكان

المعيدي أن تسمع لا أن تراه صغر عن الكبر وكبر عن القدم يعجبالعاقل من حلول الحياة به ومن تأتّي الحركة فيه لأنه عظم مجلد قد طال الكلأ فقده وبعد بالمرعى عهده لم ير القتّ إلاّ نائما ولا عرف الشعير إلا حالما وقد كنت ملت إلى استبقائه لما تعرفه من محبتي للتوفير ورغبتي في التثمير فلم أجد فيه مستبقى لبقاء ولا مدفعا لعناء لأنه ليس بأنثى فنلد ولا بفتى فينسل ولا بصحيح فيرعى ولا بسليم فيبقى فقلت اذبحه ليكون وظيفة للعيال وأقيمه رطبا مقام قديد الغزال فأنشدني وقد أضرمت النار وحدت الشفار :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً . . . أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولست بذي لحم فاصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي ولا بذي جلد يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمي ولا بذي صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصت وبري إلا أن تطالبني بذحل أو بيني وبينك دم فوجدته صادقا في مقالته ناصحا في مشورته ولم أعلم من أيّ أمر به أعجب أمن مطالبته الدهر بالبقاء أم من قدرتك عليه مع عدم مثله أم من هديتك غياه للصديق مع خساسة قدره ويا ليت شعري ما كنت مهدياً لو أني رجل من عرض الكتاب كأبي علي وأبي الخطاب ما كنت مهديا إلا كلبا أجرب أو قردا أحدب والسلام .

• و – له من رسالة هو أخفض قدرا ومكانة وأظهر عجزا ومهانة من أن يستقل به قدم في مطاولتنا أو تطمئن له ضلوع في منابذتنا وهو في نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة والظلامة المردودة وكان له عبد اسمه يمن وكان يهواه وله فيه المعاني البديعة فمن ذلك قوله فيه :قد قال يمنٌ اسود للذي . . . ببياضه استعلى علوّ الخائنِ

ما فخر وجهك بالبياض وهل ترى . . . أن قد أفدت به مزيد محاسن

ولو أنّ منه فيَّ خالاً زانه . . . ولو أنَّ منه فيَّ خالاً شانني

الصاحب بن عباد

من بلاغته المخترعة إنه قيل له ما هو أحسن السجع ، قال ما خف على السمع قيل مثل ماذا ، قال مثل هذا . وسئل ابن العميد عن بغداد فقال بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد .

وله جواب كتاب وصل كتاب مولاي فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح وواسطته أنفس من واسطة العقد وخاتمته أشرف من خاتم الملك . ومن شعره يرثي كثير بن أحمد الوزير :

يقولون قد أودى كثير بنُ أحمدٍ . . . وذلك رزءٌ في الأنام جليلُ

فقلت دعوني والعلا نبكه معاً . . . فمثل كثيرٍ في الرجال قليلالقاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم

علم المتقدمين والمتأخرين وزير السلطان صلاح الدين بن أيوب الملقب بالملك الناصر تمكن منه غاية التمكين وبرز في صناعة الإنشاء على المتقدمين قال ابن خلكان في تاريخه أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها .

وذكر ابن خلكان في تاريخه أيضا أن العماد الكاتب قال في الخريدة هو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع وكانت ولادته خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان وولي ابوه القضاء ببيسان فلهذا نسبوه إليها . وقال الفقيه عمارة اليمني في كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء

المصرية في ترجمة العادل بن الصالح بن رزيك ومن ايامه الحسنة التي لا توازى بل هي اليد البيضاء التي لا تجازى خروج أمره إلى والي الاسكندرية بإحضار القاضي الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته في الديوان فإنه عروس الدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء اصلها ثابت وفرعها في السماء .

وتوفي الفاضل في ليلة الأربعاء سابع ربيع الأول سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن في تربة بسفح المقطم في القرافة الصغرى .قال ابن خلكان كان القاضي الفاضل من محاسن الدنيا وهيهات أن يخلف الزمان مثله .

فمن إنشائه المرقص المطرب قوله وقد كان يقال أن الذهب الابريز لا تدخل عليه آفة وإن يد الدهر البخيلة به كافة وأنتم يا بني أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم وأيام هذه البشارة بالزيادة الوافرة ، وينشق من طيبها نشراً فقد حملت له من دولتكم أعراس ومآتم فيها لا على الأموال مآثم والجود في إيديكم خاتم ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم .

ومن إنشائه في كاحل كأنه غاسل يدخل إلى إنسان العين بحنوط من كحله الملعون لعلة المنون ، ويدرجه في كفن من الخرقة السوداء التي يلبسها سواد العيون ، ينقل العين إلى بياض الثغور ويسلبها سواد اللما وما برحت عصيه مردودة ولديها عصا العما ، قد انتهى إلى فوق ما يضرب به المثل ، إذ قيل يسرق الكحل من العين فهذا يسرق العين من الكحل ، وهو لص من أكابر اللصوص وسموا كحالين وهم صاغة لما يركبون فوق العين من الفصوص قد أودع كحله حزن يعقوب فمن كحل منه أبيضّت عيناه وجحد معجزة القميص اليوسفي ، فلو مروا به على ناظر انقرحت جفناه وهو من الذين إذا رفعوا أميالهم فإنما هي لشمس العيون مزولة ، وإذا أولج أحدهم الميل في المكحلة فهو أولى بالرجم ممن أولج الميل في المكحلة ، ومن إنشائه سقى الله ثراه والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور ، والحر وصاليه في هذا النحو جار ومجرور ، والمهامه قد نشرت فيها ملاءالسراب ، وزخرفيها بحر ماء ولد لغير رشدة على غير فراش السحاب ، وحر الرمل قد منع حث الرمل ، ونحن في أكثر من جموع صفين إلا أننا نخاف وقعة الجمل ، ووردنا ماء هذه العيون وهو كالمحابر ، يغترف منه المجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطىء نقرة مقتله ، وهو مع هذا قليل كأنه مما جادت به الآماق في ساحات النفاق لا في ساعات الفراق فيا لك من ماء لا تتميز أوصافه من التراب ولا يرتفع به فرض التيُّمم كما لا يرتفع بالسراب ، ولا يعد ما وصف به أهل الجحيم في قوله تعالى وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب ، فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عليلا لا يرد الجواب ، بل يندبون ميتا قد حال بينه وبينهم التراب ، يجهز للدفن ونعشه المراد ويحفر عليه ليقوم من قبره وذلك خلاف المعتاد . وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع . على أنه لو كان دمعا لما بلّ الأجفان ، ولو كان مالا لما رفع كفة الميزان .

ومن إنشائه إلى أن يرد كتب العسكر وأعلامها من مدات ألفاته ، ورؤوس العدا قطعات همزته .

ومنه فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج نجومها الأسنة وطارت إليهم عقبان الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة ، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها ، وقصدت أنهار السيوف صدورهم لتروي أكبادها .

ومنه وما أحسب الأقلام جعلت ساجدة إلا لأن طرسه محراب ، ولا أنها سميت خرسا إلا قبل أن ينفث سيدنا في روعها رائع هذا الصواب ، ولا أنها اضطجعت إلا ليبعثها ما ينفخ فيها من روحه من مرقدها ، ولا سودت رؤوسهاإلا لأنها أعلام عباسية وتناولتها الحضرة بيدها ، لا جرم أنها تحامي الحمى وتسفك دما وتحقن دما وتتشيح بها يده عنانا وترسلها ، فتعلم الفرسان أن في الكتاب لفرسانا ، وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الألسنة أن في الأيدي كما في الأفواه لسانا .

قلت ومن مخترعاته قوله وأن ادعى سحر البيان أنه يقضي أيسر حقوقه ، ويثمر ما يجب من شكر فروعه وعروقه ، كنت أفضح باطل سحره وأذيقه وبال أمره ، وأصب الخواطر السحارة على جذوع الأقلام ، وأعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الألسنة عن الكلام . ومن إنشائه في وفاء النيل المبارك عن الملك الناصر صلاح الدين نور الله ضريحه نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا ، وأضفاها سبوغا ، وأصفاها ينبوعا ، وأسناها منفوعا وأمدها بحر مواهب وأضمنها حسن عواقب النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويقبضها مدّه وجزره ويربى النبات حجره ويحيي مطلقه الحيوان ويجبي ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان وينشر مطوي حريرها وينشر مواتها ويوضح معنى قوله عز وجل وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فاسفر وجه الأرض وإن كانت تنقب ، وأمن يوم بشراه من كان خائفا يترقب ، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التي حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقد أعلمناك لتوفي حقه من الإذاعة وتبعده من الإضاعة ، وتتعرف على ما يصرفك في الطاعة ، وتشهر ما أورده البشير بأبانته وتمده بإيصال رسمه مهناً على عادته .ابن حجة [المؤلف]

ورسم لي في الأيام المؤيدية وأنا منشىء الديوان الشريف المؤيدي سنة تسع عشرة وثمانمائة أن انشىء رسالة بوفاء النيل المبارك لم أسبق إليها ممّن تقدمني من المنشئين بالديار المصرية حتى أن المقر الأشرف المرحومي القاضوي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي سقى الله ثراه قرأ على المسامع الشريفة هذه الرسالة المسطرة ورسالة من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وكان غرضه في ذلك إختبار الألفاظ والمعاني من الرسالتين فأنشأت بعد المستعان بالله . ونبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا فيه بالحسنى وزيادة ، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة ، وخلق أصابعه ليزول الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة ؛ كسر جسره فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا ؛ وأتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدي مكسورا ، دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه ، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه ، وشبب خريره في الصعيد بالقصب ؛ ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب ، فضرب الناصرية واتصل بأم دينار ، وقلنا أنه صبغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار ، وأطال الله عمر زيادته فتردد في الآثار ، وعمته البركة فأجرى سواقي مكة إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار ، وحضن مشتهى الروضة في صدره وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم :

وأرشَفَنَا على ظمأٍ زلالاً . . . ألذّ من المدامة للنديموراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والعناب ، فالق النوى والحب فأرضع جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأب ، وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية ،

ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية ، ونسي الزهر بحلاوة لقائه مرارة النوى ، وهامت به مخدرات الأشجار فارخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى ، واستوفى النبات ما كان له في ذمة الريِّ من الديون ومازح الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون ، وانجذبت إليه الكباد وامتد ولكن قوي قوسه لما حظي منه بسهم لا يرد ، ولبس شربوش الأترج وترفّع إلى أن لبس بعده التاج وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراح فتناول مقالم الشنبر وعلم بأقلامها ورسم لمجوس كل سد بالإفراج وسرّح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بمخلق بشائره وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره وحظي بالمعشوق وبلغ من كل منية مناه فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه بعد ما تفقه واتقن باب المياه ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الجسر وزاد بسرعته فاستحلى المصريون زائده على الفور ونزل في بركة الحبش فدخل التكرور في طاعته وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته وأظهر في مسجد الخضر عين الحياة فاقر الله عينه وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه ، وطلب المالح رده بالصدر وطعن في حلاوة شمائله فما شعر إلا وقد ركب عليه ، ونزل في ساحله وأمست واوات دوائه على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجواريفاضطربت كالخائفة ، ومال شبق النخيل إليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالفه ، وأمست سود الجواري كالحسنات في حمرة وجناته ، وكلما زاد الله في حسناته ، فلا فقير سد إلا حصل له من فيض نعماه فتوح ، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح ، ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع ، فقال له المقياس عندي قبالة كل عين أصبع ، فنشر أعلام قلوعه وحمل وله على ذلك الخرير زمجره ورام أن يهجم على غير بلاده فبادر إليه عزم المؤيدي وكسره ، وقد أثر ذا المقر بهذه البشرى التي عم فضلها برا وبحرا ، وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالا وصدرا ، ليأخذ حظه من طيبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة ، والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعة الكريم ليصير بها في كل وقت مشنَّفا ، ولا برح من نيلها المبارك وإنعامنا الشريف على كلا الحالين في وفا .

قلت تقدم قولي أن الشيء بالشيء يذكر وقد ذكرت بوصف النيل المبارك هنا رسالتي البحرية التي كتبت بها إلى علامة عصرنا الشيخ بدر الدين الدماميني فسح الله في أجله من القاهرة المحروسة إلى ثغر الاسكندرية المحروسة عند دخولي إليها من ثغر طرابلس الشام وقد عضّت عليَّ أنياب الحرب بثغرها شائبا من أهوال برها وبحرها وذلك في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة .

وهييقبل الأرض التي سقي دوحها بنزول الغيث فأثمر الفواكه البدرية ، وطلع بدر كمالها من المغرب فسلمنا لمعجزاتها المحمدية ، وجرى لسان البلاغة في ثغرها فسما على العقد بنظمه المستجاد ، وأنشد وقد ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد :

لقد حسنت بك الأيام حتى . . . كأنك في فم الدهر ابتسام

فأكرم به مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام ، ومدينة علم تشرفت بالجناب المحمدي فعلى ساكنها السلام ، ومجلس حكم ما ثبت للباطل به حجة ، وعرفات أدب إن وقفت بها وقفة كنت على الحقيقة ابن حجة ، وافق معال بالغ في سمو بدره فلم يقنع بدون النجوم ، وعيدان عرشه تجول به فرسان

الفصاحة من بين مخزوم ، وتالله ما لفرسان الشقراء والأباق في هذا الميدان مجال ، وإذا اعترفوا بما حصل للفارس المخزومي عندهم من الفتح كفى الله المؤمنين القتال ، وينهى بعد أدعية ما برح المملوك منتصباً لرفعها ، وثغر ثلاثية ما لسجع المطوق في الأوراق النباتية حلاوة سجعها ، واشواق برحت بالمملوك ولكن تمسك في مصر بالآثار .

وابرح ما يكون الدهر يوماً . . . إذا دنت الديار من الديار وصول المملوك إلى مصر محتمياً بكنانتها ، وهو بسهام البيت مصاب مذعور لما شاهده من المصارع عند مقابلة الفرسان في منازل الأحباب مكلماً ، من ثغر طرابلس الشام بأسنة الرماح محمولاً على جناح غراب ، وقد حكم عليه البين أن لا يبرح من سفره على جناح ،وكان في البين ما كفاني . . . فكيف بالبين والغراب

يا مولانا لقد قرعت من هذا الثغر بأصابع السهام ، وقلع منه ضرس الأمن ولم يبق له بعد ما شعر به البيت نظام ، وكثرت الحرب في ثناياه عن أنياب ، وأقتلعنا منه مع أنهم لم يتركوا لنا فيه ثنية ولا ناب ، وأمست شهب الرماح قافية على آثارنا والسابق السابق منا الجواد ، ولزمت الروى من دمائنا لئلا يظهر لقافيتها عند نظم الحرب سناد ، وفسد انسجام تلك الأبيات المنظومة على ذلك البحر المديد ، وبدلت جنتها بنار الحرب التي كم تقول لها هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، ونفذ حكم القضاء وكم جرح خصم السيف في ذلك اليوم شهوداً ، واتصل الحكم بقضاء القضاة فلم يسلم منهم إلا من كان مسعوداً ، ووقع غالبنا في القبض من عروض حربهم الطويل ، وتبدلت محاسن طرابلس الشام بالوحشة فلم نفارقها على وجه جميل ، وتالله لم يدخلها المملوك في هذه الواقعة إلا مكرها لا بطل ، وكم قلت لسارية العزم لما كشف لي عن مضيق سهلها يا سارية الجبل ، ولم يطلق المملوك عروس حماته إلا جبرا أظهروا به كسره ، والعلوم الكريمة محيطة كيف يكون طلاق المكره . يا مولانا :

بوادي حماة الشام من أيمن الشطّ . . . وحقِّك تطوي شقة الهمّ بالبسط
بلادٌ إلى ما ذُقت كوثر مائها . . . أهيم كأنّي قد ثملت بإسفنط
ومن يجتهد في أنّ بالأرض بقعةً . . . تشاكلها قل أنت مجتهدٌ مخطي
وصوب حديثي ماؤها وهواؤها . . . فإن أحاديث الصحيحين ما تخطي
بمعصمها إن دار ملوي سوارها . . . فما الشام بالخلخال أو مصر بالقرطتنظم بالشطين درٌّ ثمراها . . .
عقوداً لها العاصي رأيناه كالسمط
وترخي علينا للغصون ذوائباً . . . يسرِّحها كفّ النسيم بلا مشط
ومذ مدَّ ذاك النهر ساقاً مدملجاً . . . وراح بنقش النبت يمشي على بسط
لوينا خلاخيل النواعير فالتوت . . . وأبدت لنا دوراً على ساقط البسط
سقى سفحها إن قلّ دمعي سحابةٌ . . . مطنّبةٌ بالدمع منهلّة النقط
ويا أسطرَ النبت التي قد تسلسلت . . . بصفحتها لا زلت واضحة الخط
ولا زال ذاك الخط بالطلِّ معجماً . . . ومن شكل أنواع الأزاهر في ضبط
لويت عناني في حماها عن اللوى . . . وهمت بها لا بالمحصّب والسقط

ولذّ عناق الفقر لي بفنائها . . . وفي غيرها لم أرض بالملك والرهط
منازل أحبابي ومنبت شعبتي . . . وأوطان أوطاري بها ورضا سخطي
نعمت بها دهراً ولكن سُلبته . . . برغمي وهذا الدهر يسلب ما يعطي
وقد جاء شرط البيت أني أغيب عن . . . حماها لقد أوفى فؤاديَ بالشرط
وحطّ عليَّ الدهر عمداً وشالني . . . إلى غيرها صبراً على الشيل والحطّ
وسبحة جمع الشمل كان لنا بها . . . منظّمةٌ لكنْ قضى الدهر بالفرط
أُمثِّلُ شوقاً شكلها في ضمائري . . . فتُتْبِعُ عيني ذلك الشكل بالنقط
وقد سار يمشي الهمُّ نحوي بسرعةٍ . . . فيا ليته لو كان في مشيه يبطي

وأصبح نظمي راجعاً بي إلى ورا . . . كأنّيَ في الديوان أكتب بالقبطي يا مولانا وأبثك ما لقيت من أهوال هذا البحر وأحدث عنه ولا حرج ، فكم وقع المملوك في أعاريضه في زحافٍ تقطّع منه القلب لما دخل إلى دوائر اللجّ ، وشاهدت منه سلطاناً جائراً يأخذ كل سفينة غصباً ، ونظرت إلىالجواري الحسان وقد رمت أزر قلوعها وهي بين يديه لقلة رجالها تسبي ، فتحققت أن رأى من رجاء يسمى في الفلك جالساً غير صائب ، واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب ، وزاد الظمأ بالمملوك وقد أتخذ بالبحر سبيلاً ، وكم قلت من شدة الظمأ يا ترى قبل الحفرة هي أطوي من البحر هذه الشقة الطويلة .

وهل أباكر بحر النيل منشرحاً ، . . . وأشرب الحلو من أكواب ملاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف وحملنا على نعش الغراب ، وقامت واوات دوائره مقامع فنصبتنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب ، وقارن العبد فيه سوداء استرقت مواليناوهي جارية ، وغشيهم منها ما غشيهم فهل أتاك حديث الغاشية ، واقعها الحرب فحملت بنا ودخلها الماء فجاءها المخاض ، وانشق قلبها لفقد رجالها وجرى ما جرى على ذلك القلب وفاض ، وتوشحت بالسواد في هذا الماء ثم سارت على البحر وهي مثل ، كم سمع للمغاربة على ذلك التوشيح زجل ، برح ما بين ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت ، وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسندة من تبطنها عدَّ من المصبرين في تابوت ، تأتي بالطباق ولكن بالقلوب لأن صغيرها كبير وبياضها سواد ، وتمشي على الماء وتطير مع الهواء وصلاحها عين الفساد ، إن نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود ، ورقص على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود ، نتشامم وهي كما قيل أنف في السماء وإست في الماء ، وكم نطيل الشكوى إلى قامة صاريها عند الميل وهي الصعدة الصماء ، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين ، وتتصابى إذا هبت للصبا وهي بنت أربعمائةوثمانين ، وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في موج كالجبال ، وتدعي براءة الذمة وكم استغرقت لهم من أموال ، هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج ، وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاديفها في مقلة البحر احتلاج ، وكم أسبلت على وجنته طرة قلعها فبالغ الريح في تشويشها ، وكم مر على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها ، تتعاضم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعد ، ولقد رأيناها بعد ذلك قد تبت وهي حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ، وخلص المملوك من كدر المالح إلى النيل المبارك فوجده من أهل الصفا وإخوان الوفا

، وتنصّل من ذلك العدو الأزرق ذي الباطن الكدر ، وجمع من عذوبة النيل ونضارة شطوطه بين عين الحياة والخضر ، وتلا لسان الحال على المملوك وأصحابه أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين وقضي الأمر ، وقيل بعداً للقوم الظالمين .

وبعد فإن المملوك يسأل الإقالة من عثرات هذه الرسالة فقد علم الله أنها صدرت من فكر تركه البيت مشتتاً ، وأعضاء مع كثرة بردها قد خرجت من البحر عارية في فصل الشتاء ، وليستر عوراتها بستائر الحلم وينظر إليها من الرحمة بعين ، وليكن ضربها بسيف النقد صفحا فقد كفى ما جرحت بسيوف البين ، وتالله لم يسلك المملوك هذه الجادة إلا ليجد له سبيلا إلى نهارة من عذب تلك الموارد ، ويعود على الضعيف الذي قطعت صلاته من صفاء هذا المشرب عائد ، ويصير العبد مسعوداً إذا عدَّ للأبواب العالية من جملة الخدام ، ويحصللكبده الحرّاء من ذلك النسيم الغربي برد وسلام ، والله تعالى يمنُّ بقرب المثول بين يديه ، ليحصل للمملوك بعد التخلص من البين حسن الختام .

القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك

وإن الشوق بحر وقلبه والله لغريقٌ بأمواجه وجمرً صدره المظلم بسراجه .

ومن انشائه فالإسلام من طلقائه ، والكفر مجاهد ولكن باتقائه ، وسيوفه تحسن في الأجسام البسط وفي الأرواح القبض ، ورماحه تكاد لطولها تمسك السماء أن تقع على الأرض .

ومن انشائه وكيف لا يحمد المملوك تلك الأشواق وهي تقربه من المولى بالتخيل إذا أبعدته الأيام ، وتمثل المقام الكريم فيقابله كل ساعة بالسجود ويشافهه بالسلام ، ويرفع ناظره فلولا نظره إليه لكانت عينه مطرقة ، وستور أهدابه مسبلة ، وأبواب جفونه مغلقة ، ولولا اشتغالها بمطالعة طلعته لا لتهب من دموعها بمياه محرقة ، فهو منها في نار وجنَّه ، مغلول بغلّه مطوّق بمنّه . ومن انشائهولقد أنساه فراق مولاه حروف المعجم فما يعرف منها حرفاً أو عاقب خاطره الذي كفر بالبلاد فاسقط عليه من سمائها كسفا ، شوق ما خطر مثله على قلب بشر ، ودمع ما مر على بصر إلا ومر كلمح بالبصر ، ولسان لا ينفك من الدعاء على يوم الفراق ومن دعا على ظالمه فقد انتصر .

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر خليفة القاضي الفاضل

. انشائه قوله نعلمه بفتوحات استطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المران ، واستنطق الإسلام عبارتها من ألسنة الخرسان ، وذلك بفتح حصن الأكراد الذي كان في خلق البلاد الشامية غصة لم تسغ بمياه السيوف المجردة ، وشجى في صدرها لم تقوّمه أدوية العزائم المفردة .

ومن انشائه بابطال الحشيش بعد الخمر نعلمه أن المنكرات أمرنا أن تملأ الصحائف باجرها وتفرغ الصحاف ، وأن لا يخلوا بيت من بيوتها من كسر أو زحاف ، وقد بلغنا الآن أنها اختصرت ، وإن كلمة الشيطان بالتعريض عنها ما قصرت ، وأن أم الخبائث ما عقمت ، وإن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكاس عن ثديها ما فطمت ، وإنها في النشوة ماخيب إبليس مسقاها ، وإنها لما أخرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها ، وأنها استراحت من الخمار ، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار ، وإن ذلك فشا في كثير من الناس وعرف في عيونهم ما يعرف من الإحمرار ، في الكأس ، وصاروا

كأنهم خشب مسندة سكرى ، وإذا مشوا يقدمون لفساد عقولهم رجلاً ويؤخرون أخرى ، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع ، ويؤدب مستعملها في المحافل والمجامع ، حتى تنتبه العيون من هذا الوسن ، وحتى لا تشتهي بعدها خضراء ولا خضراء الدمن .

ومن انشائه عن لسان الشريف إلى الفرنج وقد أخذت شواتي السلطان وفرق بين من يتصيد بالصقور من الخيل العراب ، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب ، فلئن أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم قرية معمورة ، وقد قال الملك فقلنا وعلم الله أن قولنا من الصحيح ، وأتكل واتكلنا وأين من اتكل على الله ممن اتكل على الريح .

عز الدين بن سينا

ومن انشاء الصدر عز الدين بن سينا في بشارة بكسر عساكر الفرنج عن الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائةفلا روضة إلا درع ، ولا جدول إلا حسام ولا غمامة إلا نقع ، ولا وبل إلا سهام ، ولا مدامة إلا دم ، ولا نغم إلا صليل ، ولا معربد إلا قاتل ولا سكران إلا قتيل ، حتى أنبت كافور الرمال شقيقا ، واستحال بلور الحصباء عقيقا ، وأزدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً وضرب النقع في السماء طريقا :

وضاقت الأرض حتى كادها رهجم . . . إذا رأى غير شيء ظنّه رجلا

قلت ذكرت بهذا التلاعب المطرب من انشاء الصدر عز الدين تلاعب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في شفاعة ما نسج على منوالها وهي أدام الله نعمة مولانا ولا زال عَلَمُ علمه مرفوعاً أبداً ، وبناء مجده منصوبا بخفض العدا ، ولا برحت أقلامه لأفعاله الشك جازمة ، ولأعدائه متعدية ، ولآرائه لازمة .

وأما بعد فإن فلانا حضر وادعى أنه رخم في غير النداء ، وجزم والجزم لا يدخل في الأسماء ، واستثنى من غير موجب فخفض والخفض من أدوات الاستثناء ، وذكر أن العامل الذيدخل عليه منعه من الصرف ولزمه لزوم البناء ، واجتمع معه في الشرط وافرده بالجزاء ، والمأثور من مكارم مولانا نصب محله على المدح لا على الإغراء ، ورفع اسمه المعرّي من العوامل على الابتداء ، ففيه من التمييز والظرف ما يوجب العطف ، ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصرف ، ولا زال مولانا بابا للعطف والصلة ، ومآثر مكارمه متصلة لا منفصلة .حظيرة انس إلى حضرة القدس لابن نباته

قلت قد انتهت الغاية هنا إلى التحلي بالقطر النباتي وقد عنّ لي أن أورد هنا حظيرة الأنس إلى حضرة القدس فإنها من بديع إنشائه وهي في رحلته ألى القدس الشريف مع الصاحب أمين الدين .

وهي الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه ، وحامي حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه ، ومن إذا رفعت راية مجده تلقاها وعرّابة براعته بيمينه وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بثمينه ، وإذا نوى في السيادة فعلا أمضى العزم السني قبل دخول سينه ، وإذا حمل بنانه القلم روينا عن ابن بحر كتاب بيانه في الفضل وتبيينه ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أيد بالروح الأمين ، وعضد بوزراء آله وصحبه الغر الميامين ، وسلم عليه وعليهم سلاماً باقيا إلى يوم الدين . أما بعد فإن الله سبحانه وتالى لما يريد من صلاح عباده ، وانتظام هذا العالم الأرضي في سلك سداده ، وتمام أمر هذا السواد الأعظم بمدبرة تماما

بخط الطرس بسواده ، جعل لكل دولة قائمة وزيراً قائماً بتدبيرها ، مفرغاً غص القلم بتشميرها ، مفنذا أمر سلطانها ، ومبلغاً أحكام عدلها وإحسانها ، يبني ممالكها على الأسل من أقلامه ، ويحوط أطرافها إحاطة الزهر بكمامه ، ويتحفها بأوصاف وزيرية يعقد عليها العدل خنصره ويتضح بها وجه الاستحقاق من إبهامه .وكان صاحب هذه الولة التي خضعت لها الدول وفاضل أمرها الدليل وراسخ دوحها الذي ما مال مع الهوى ، وقديم صحائفها الذي تلا تسديده ما ضل صاحبكم وما غوى ، وضابط أمورها الذي طال ما استشرفت إليه إسماع وأبصار ، وانتصرت به تقديم هجرته فلا غرو أن صار من المهاجرين بها والأنصار ، المقر الأشرف الصاحبي والوزيري الأميني أعلى الله تعالى أبداً شأنه ورفع فوق الفرقدين مكانه ، وزان بأقلامه أقاليم مصر فهذه سهام وهذه كنانه ، ممن استدعته رواة المحافل ، وتردد في المناصب العلية تردد الأقمار في المنازل ، وجمع الأوصاف الوزيرية جمع أبي جاد للحروف ، وتنبه قلبه ونامت ملء أجفانها السيوف ، وعرف بالسيادة والزهد فعلى كلا الحالين هو السري وقدره معروف ، وكنت أود لو نقلت الشهادة بصفاته عن الخبر إلى المعاينة ، وجمعت بملازمة مقره الشريف الظاهر الوصف باطنه ، ورويت الأخبار عن لسنه ، وجنيت الورد من غصنه ، بل التبر من معدنه هذا وأشغاله بتدبير الدول شاغله ، وأيام البعد عند فراغه بيني وبين القصد حائله .

فلما عزم بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف اطلع رأيه الشريف على ما في خاطري ، وأمرني بالمسير في ظل ركابه فسر على الحقيقة سائري ، وكاشف ولاينطر التكشف لمن كثرت زواياه في البلاد ، ونظر لحالي ولا ينكر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد ، وكان له في استصحابي مقصد تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابح ، ذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي ، مقيما بين المقابر إقامة تفتت حبة قلبي على قطعة كبدي ،ساقياً روض الحزن بغمائم الجفون ، باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون ، أطلب قلبي في التراب وأنشده وأطارح صوت الصدا فينشدني وأنشده :

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا . . . شوقي إليه ويا شجوي ويا دائي

في شهر كانون وافاه الحمام لقد . . . أحرقت بالنار يا كانون أحشائي

وقال أيضا :

آهاً لعقدٍ قد وهى سلكُهُ . . . وكان ذا درٍّ بعبد الرحيم

فليتني لاقيت عنه الرّدى . . . وعاد ذاك الدرّ درًّا يتيم

فاقتضى تدقيق النظر الصاحبي في اسداء العوارق ، وابداء عواطف الفضل وفضل العواطف ، أن ينزع عني بصحبة ركابه الكريم لباس البلس ، ويشغلني بمشافهة الأنس القابل ألا هكذا فليصنع الناس ، وينهضني الناس وينهضني بالإنعام من حوادث الزمن ، ويقرب مثل قربانا لا يفطن لمثله إلا منَّ ومن ، فيا لها سفرة قابلها وجه الأقبال بالسفور ، وتلا فضلها الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ومد فيها الأنعام علي ظلاّ ظليلا ، وملأ بيتي وعيني دقيقاً وجليلاً ، وأمرني أن أصف له المنازل والطرق وصفا كقصده الجميل جميلا ، فسرنا وأيدي السعد قد ذللت الطرق بل طوتها ، وقدمت وعود الآمال بل أنجزتها ، والأرض قد شرعت في لباس حليها وحللها ، ومراعي الربيع قد وعدت حتى الشمس لتسمين حملها ، والشتاء قد

آن أن يقوض الخيام ، والأفق قد شمر للأنصراف ذيل الغمام ، ومبدأ الروض أحق بقول أبي الطيب المتنبي :
لقد حَسُنت بك الأيام حتَّى . . . كأنّك في فمِ الدهر إبتسامُفأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثياباً سابغة الذيول ، وطفنا منها بكعبة الفضل طوافاً واضح الإقبال والقبول ، وقلنا للمقاصد تباشري بالخطوة ، ولعيون الإقبال تأملي فما أحسن الكعبة في الكسوة ، ومررنا والخيل تجمز جمزاً ، وجزنا بالصنمين فهمت أن تفخر بمواطىء خيلنا على اللات والعزى ، وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزا ، ورأينا بينها وبين منزلة المغير روضنا قد أخضرَّ جنابها ، وطرزت بآثار طرف ثيابها ، فأمت بالقول فقلت :
سقى الله أرضاً طرقها مثل طرزها . . . وسائرها بردٌ من الوشي أخضر تذكرت أحبابي بمثوى بريدها . . . فعيني رأس الماء وجسمي المغيّر
ووافينا الحصين وقد راغت الخيل روغان أبيه ، وتلقتنا بالبشر والبشرى وجوه أهليه ، وسألونا أن نريح عندهم الركاب من الأين ، وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولا ينكر تعجيل الفتوح للحصين ، ووجدنا هناك فقيراً مغربياً حسن التلاوة ، وقد عجز عن المسير ، وأرتد طرف قصده عن القدس خاسئاً وهو حسير ، فأمرت له الصدقات الصاحبية بمركوب ونفقة تعينه على السفر والإقامة ولحقه في ذلك فقير عجمي ينشد لسان حاله :
بي مثل ما بك يا حمامة
فلم أر مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق ، ولا مثله متصدقاً يجلس لحظة واحدة فيركض نداه في الغرب والشرق ،وعجنا بعجلون فحشر الناس لدينا ضحى ، وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحاً ، وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية ، وأردنا أن نكتم دخلونا البلد وكيف تكتمنا وهي ذات عين صافية ، ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء تحت قلعتها الغراء وهي في معارج السحب صاعدة شائدة ، في الجو كأنها في السحر على عمود الصبح قاعدة ، مضيئة بين عقود الأنجم كأنها درتها اليتيمة ، جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة ، فنظر في المصالح ، وميز بالعدل بين الصالح والطالح ، وعجل من عجلون المسير فلم ينظر بالغادي الذي هو رائح ، وأشرفنا على بركات القصد المنجية واقتحمنا إلى الفور عقبة سهلها السعد فلا تقل ما أدراك ما العقبة واستفتحنا المزارات التي نوينا قصدها وطوينا غورها ونجدها ، بمشهد صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه فترامينا إليه بالعزم الفاخر ، وزار أمين هذه الأمة الأول أمينها الآخر ، وأجرى أمر مشهده على سنن الصلاح ، ونظر في مرتبه بعين العدل وأعانه بيد السماح ، وجعل والي الناحية عبيدة وما جعل لشاهده المعروف بالجراح ، وسلكنا جانب الغور الممطور فاعجبنا ريّا ورواء ، وكنا نظن الماء فيه غوراً فوجدنا الغور ماء ، وخضنا في حديثه وخاضت الخيل ، وتركنا عقباته كالمغلقة ولمنا إلى السهل كل الميل ، وتلقينا كل ذي قصد ببشر والصباح ولم نقل أهلك والليل ،وما زلنا كذلك لا نمر بواد إلا أنّت مع الإبتهال بطول العمر ماله وأراملة ، ولا بناد إلا قامت للدعاء رجاله وأطفاله وحلائله ، ولا بولاية إلا ارتج غدرها ، ولا ببلدة إلا زها على التي بين السماكين بدرها ، ولا ماش إلا حمله المعروف ، ولا عابر سبيل إلا آنسه من النعماء صنوف ، ولا جائز إلا شملته جائزة ، ولا منقطع بمفازة ، إلا وعقباه فائزة ، ولا ظبية من ظبيات مشق إلا

والمكارم تؤاليها وتواليها ، وتوجدها في القفار كما توجدها أولياء الله فيها ، إلى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام ، وسبقنا إليه طرة الصبح تحت أذيال الظلام ، وخفّ بنا جناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام ، وألقينا بباب حرمه عصي السفر ، وألقت هناك رحالها ركائب المطر ، وزرنا باب الرحمة من الأرض ، وزارنا باب الرحمة من السماء ، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء وحمدنا الأوطان والأقطار ، واستمرت السحب حتى عادت كحجر موسى تتفجر منها الأنهار ، وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها ، ويسبح فيها بالغدو والآصال سكانها ، وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتا حسنا ، وغمّض عينه على لارفاق تغميضاً بيَّنا . فقال مولانا الصاحب ما تقول في بيته فقلت ما أقول في جنة الخلد وشكا قوم عشرة هذا الرجل فكتبت على ورقتهم أصبروا على ما يفعلون ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعلمون ، ثم دخل الناس على الأبواب الصاحبية افواجاً ، وما ترك أحد منهم منهاجاً ذا ناحية إلا منهاجاً ومكثنا في البيوت إلى أن صحا الأفق من غمامه ، وحسر عن وجهه للأبصار فضل ثلامه ، وقمنا لبقية المشاهد قاصدين ، ولتلكالمباني المعظمة شاهدين ومشاهدين ، فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت ، ونثرنا على مواطىء القدم دموعاً عزت بلمسها ولا نقول هانت ، ونظرنا آثار قديمة تذهل عيون النظارة ، وآثاراً متجددة في هذه الدولة القاهرة تقصر عنها العبارة ، ومحاسن يقف في طريق الزيارة متأملها ، ووقفة في الطريق نصف الزيارة فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف نستلم كالحجاج أركانه ، ونقلب وجوهنا في سماء سقف يكاد يمطر علينا لجينه وعقيانه ونشاهد رخاماً بلغ في الحسن والمحل الأقصى في الأقصى ، وتمت به في بهجه المكان زيادة تخالف قول النجاة : إنَّ في الترخيم نقصا ، فأما المياه التي تجري في الحرم على رأسها ، وتطوف على مواضع المنافع بنفسها ، فتلك نعمة مقيمة يكافىء الله عنها في دار المقامة ، وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة ، ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره ، وأبقاه سيفا يقف كل ذي قدر عند حده فلا يجاوز مقداره ، من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده ، ودار حديث يروي فيروي الأسماع الطامئة مورده ، وخانقه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل ورباط ومكتب هما كما قيل :

ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

وقلت فيها :

بنيت رباطاً للنساء ومكتباً . . . يدير على الأيتام سحب الفواضل

فللَّهِ من هذا وذاك كما ترى . . . ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف ؛ ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف ؛ وشرعت صدقات السروالجهر ؛ وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر ؛ وغص بفقرائهم المكان والطريق ؛ وجاءوا رجالا ونساء وعلى كل ضامر من العصي يأتين من كل فج عميق ؛ فوضع في مواضع النوال ؛ وقدرت الكساوي حتى على المستورين والأطفال ؛ هذا وكم ثياب صوف أعرض أشراقها عن مقال اللاحين ؛ واتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثا ومتاعا إلى حين ؛ وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل ؛ وقال جودها لحاتم هذي التي لا ناقة فيها ولا جمل .

ومما قلت في ذلك :

لله حال امرىءٍ مقترٍ . . . قضيت في القدس بتنفيسه

ودرهمٍ ولّى ولكنّه . . . قد أخذ الأجر على كيسه

ثم تليت الختمات التي شرف الله تعالى ذكرها ، ومواعيد التفاسير والرقائق التي أجرت الأوقات الصاحبية أجرها ، وشرع في بناء الرواق على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم الشريف ، وأخذ راقم الرخام في التوشيع والتفويف فيا لها ألواحا كتب فيها من الحسن كل شيء ، واطرد ماء رونقها فكأن العين منها في ماء وفّيءٍ ، ويا له رواقا شاق وصفه وراق ، ورفع محله فقال لسان المتصوف حبذا رفاعي الرواق ، ثم رتب للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد ، واصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مُريد ، ورزنا في اليوم السابع من الإقامة وقد قدمنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنية الجلية ، وطربنا لتلك المنازل وكيف لا نطرب لها وهي الخليلية ،وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا ورفعنا لأنواره الجفون ، وتملّى عند الزيارة ذو العين بذي النون ، ثم نزلنا من محل الخليل على محل القوي ، وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السّري ، واستقبلنا بمقام إبراهيم أمانا ، واستلمنا من ضريح شائد الركن ومن ضرائح أهله أركانا ، وأكلنا من شهي عدسه لونا ووجدنا من الهناء ألوانا ، وقلنا لأنفاس الشوق كوني بردا وسلاما على إبراهيم ، ووردنا مورد اللقاء تشفي ظمأ إبراهيم ، وفرقت الهبات ، وتليت الختمات ، وجردت المواعيد على عوائدها المحكمات ، فقلت :

قصدنا خليل الله في ظلِّ صاحبٍ . . . جليِّ العلى والمكرمات جليل

فهذا لدنيانا وهذا لديننا . . . فيا حبذا من صاحبٍ وخليل وسرنا في ظل الصاحب من الخليل وكادت دمشق تمد أيدي إعطائها لمجاذبة ركابه ، ومصر تتضرع بأصابع نيلها طعماً في اقترابه ، وترضع ثدي هرمها داعية إلى الله بعوده إليها وغيابه ، وهمّ شباك الوزارة أن يتلقى صاحب فتحه ، وصدر الخزائن أن يعانق ما اعتاده من رأى عطفه منحه ، فإنه ما جلس فيه أبهر وأبهى من الطلعة الامينية بإجماع الآملين والمتأملين ، والخزائن التي كم قال لها تدبيره إني حفيظ عليم فقال الملك : إنك لدينامكين أمين ، ثم عطفتنا الأقدار إلى جهة الرملة وجاءت الوفود كالرمل ، وخفت أكياس دراهم الصلات الحمل ، وأقمنا ثلاثة أيام نكاد ننشد :

خرجنا على أنّ المقام ثلاثةٌ . . . فطاب لنا حتى أقمنا بها عشراورأينا مسجداً يعرف بالركيني قد غير الزمان محاسنه الأنيقة ، وهدم الخراب والموت ركنيه على الحقيقة ، فأمرنا مولانا الصاحب بعمارة ما منه اندثر ، ولحظت لآراء حجارته المنقضة فتبين أن السعادة تلحظ الحجر ، ولقد صنع في هذه المنزلة من المعروف مالا صنع ذوو الدهر الطويل مثله ، وبنى من المكرمات ما ثبت ولولا إبداع سعادته ما ثبت البناء فوق الرملة ، ورحلنا عن الرملة بنيّة الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام ، فمررنا في طريقنا بجملة خير معترضة وبينة وفي وجهة القبول مبيضّة تحتوي على قبر بنيامين أخي يوسف عليهما السلام فألحقناهُ بالزيارة بأخيه ، وتوكلنا على الله في القبول توكّل أبيه ، وتيممنا ببنيامين ، وقرعنا أبواب السماء بأدعية فاتحة فقال النجيح عقيب الفاتحة آمين ، وسرنا والصدور منشرحة ، والطريق إلى خير الدارين متضحة وجئنا المشهد

وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدنيا ، وتلا مزارها للقادم إنا نبشرك بيحيى ، وبتنا ليلة طيبة نحييها ونميت النوم ، ونعصي بالسهر أمره فما له سلطان على أعين القوم ، وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سرورا ، والأعين نورا ، وقوينا على قصد جنى الجنان ، واستقبلنا محاسن بيسان ، وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه فأنقذت أنواره القلوب من الهم أي إنقاذ ، وكدنا نفتن بالأنس حتى نقول أفتان أنت يا معاذ ، وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لا تنفصم ، وآوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجح من به يعتصم ، وأمر بما يحتاج إليه من تجديد عمارة وإنشاء طهارة ، والحق بكل مزاروردنا عليه في هذه السّيارة ، فإنا لا نفارقه إلا عن إقامة صلاة وصِلات ، وتجديد آثار يزين به وجه القبول كاتب الحسنات ، ثم نهضنا على القور نهوض ليثه الملبد وجزنا مبتسمين فما بكينا بكاء لبيد يوم فراقه أربد ، وانتشقنا من تلقاء طيبه الاسم أطيب العرف ، وسلكنا بحرف واديها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف ، ثم عاودنا المنازل التي قدمنا ذكرها ، ورجعنا كما تسترجع منازل الأفق زهرها ، وتنسمنا أرواح دمشق حتى كدنا ننشق من ذيل الكسوة عطرها ، واستقبلنا الديار على هذا السعي الجليل ، وفاصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل ، وقطعنا بالكسوة ليلاً طائلاً نداؤه : كل ليلٍ للعاشقين طويل ، وفي تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة كدخلونا إلى القدس الشريف سائرين سرى النجوم في الليل ، سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل ، موفرين لخواطر الملتقين وهيهات وقد سال منهم السيل ، نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الأزهار ، وأجرت أمام ركابنا الأنهار ، ولبست من وشيء البديع حللا لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار ، فائزين من الثناء والثواب بفوق الأرادة ، داعين لمن فضله لنا جامع مترقبين لرتبته باب الزيارة ، وتمتهذه السفرة على أحسن ما يكون ، واشتملت من وجوه المحاسن على عيون ، قضيت المهمات بها بالنهار وقضيت في الليل المذاكرة ، والتقطت من الفوائد الوزارية ما كنت أرتقب جواهره وأزهاره ، وأردت أن أذكرها في هذه الخطبة لأنها جواهر ، وأضمنها بعض العلم في هذه الأوراق فإنها أزاهر ، فكثرتعلى هذا اللفظ المسجوع ، واقتضى الحال أن أجمعها في سفر يقال فيه تلك رحلة وهذا تاريخ ومجموع ، وقد علم الله أن هذه النبذة من القول وردت من قريحة مسها فقد الولد بقرح وأي قرح ، وقال تفكرها الذي كان حائك الكلام لست اليوم من ذلك الطرح ، فليبسط الواقف على هذه الرحلة عذري ، ويعلم السبب في كونها ليست عادة نظمي ونثري ، وإذا كانت القريحة في بقايا قورحها فليت شعري أينهض سجعي وشعري ، والله تعالى المسؤول أن يجمل في البقاء الصاحبي سلوة عن كل فقيد ، ويصل أسبابنا أبداً بتحريره الوافر وظله المديد ، ويرزقنا في شكر نعمه لساناً لفظه ذهب وذهنا بصره حديد .

رحلة ابن حجة إلى البلاد الرومية

قلت ذكرت برحلة الشيخ جمال الدين رحمه الله تعالى إلى القدس الشريق صحبة الركاب الصاحبي الاميني رحلتي صحبة الركاب الشريف السلطاني المؤيدي سقى الله ثراه إلى البلاد الرومية وبروز أمره الشريف بذكر الفتوحات بها وتسمية البلاد واستيعاب الرحلة الشريفة في البشارة المجهزة إلى الديار المصرية وأنا لا يقرأها بالجوامع المطهرة غير مولانا شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني

الشافعي عظم الله شأنه فقراهابالجامع المؤيدي والأزهر في شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وثمانمائة وقد عنَّ لي أن أقرنها بالرحلة النباتية فإنهما رحلتان .

وهي ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي ولا زالت طرف أخبارها السارة خاطره وتشنف سمعه ، وترنحه بنسمات قربنا وتجاور كريم سمعه ليأخذها بالشفعة ، وإن حصل بينه وبين المسرة لبعدنا طلاق فمائلنا الشريف يبشره بالرجعة .

صدرت : هذه المكاتبة تهدي إليه من أوراقها ثمرات الفتح ليتفكه بالفواكه الفتحية ، وتعرب عما أبدته عربياتنا من شواهد التسهيل في فتح البلاد الرومية ، فإنها رحلة مؤيدة تشد إليها الرحال ، وإن كانت دول الإسلام حلة على أعطاف الدهر فهي لها من أطهر الأذيال ، ونبدي لكريم علمه تجلي مخدرات الحصون بكل وجه حسن تحت عصابتها المؤيدية ، واستقرار رسيسفي هذه الحلبة على قديم عادتها بين الجنائب الحلبية ، وفتح قلعتها وقد حرك بابها مصراعي شفتيها وأعان بسورة الفتح جهراً ، وتلت أقفاله بعدما عسرت على الغير فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ، وصعدت أنفاس الأدعية من افواه مراميها فرحاً بنا وسروراً ، وبدلتن صوامعها وتلك البيع بمساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وأخلصت الطاعة لشيخ ملوك الأرض طائفتها الأرمينية ، واقطعوا في زوايا الطاعة مريدين لهذه المشيخة الشريعة الصوفية ،ورغب ابن رمضان في طاعتنا الشريفة فجعلنا له في ربيع حلاوة الرغائب ، ورفعنا قواعد بيته الإبراهيمي وأدنيناه من أرمنة فدنا منها إلى أعلى المراتب ، وتلمظت سيوفنا بحلاوة الفتح ورشفت بالسنتها في كل قطر قطرها ، ففتحت ايلس من بعيد لهذه الحلاوة ثغرها ، وانسجمت أبياتها لما نظمت على بسيط الطاعة بحرها ، ومص حصن مصيصه من رحيق هذه الطاعة فأمسى ثغره بأفواه الشكر يقبل ، وبسط جبين جسره لمواطىء خيلنا فرحة وتهلل ، وجانس الفتح بين ايلس وبانيلس ، ولم ينتظم لبني كنديت بملطية يقام له وزن ويظهر عنه إقتباس ، وإنعكس هذا الأسم بعد الاستحالة ون كان مما لا يستحيل بالانعكاس ، ويستجر كافرهم وقد أضرم به النار فخاطبته بلسان جمّ لا يفجم :

وما هو إلا كافرٌ طال عمره . . . فجاءته لما استبطأته جهنَّمُ

وفر إلى ملك عثمان فحكمنا بقتله في تلك الأرض علما إن الجهاد في أعداء الدين عند العصابة المحمدية من الفرض وسمع العصاة بطرسوس زئير آسادنا من بعيد ، فأدبر مقبلهم وتخيل أنّ الموت أقرب إليه من حبل الوريد ، وأعربت أبوابها بعد كسرة عن الفتح وقال أهلها إدخلوها بسلام آمنين ، وأوى العصاة إلى جبل القلعة لما رأوا بعد القتالهذا الفتح المبين ، وصفع مقبلهم وجهه فبصقت فيه أفواه المدافع ، وحكم عليه القضاء باعتقال ولم يأت عند ذلك الحكم بدافع ، وشاهد القرمانيون من سيوفنا شدة القرن فخشي كل منهم أن يصير لحماً على وضم ، ورأوا ألسن السهام في أفواه تلك المرامي برأينا الصائب ناطقة ، فمزقوا الأصواق من الحنق فطوقناهم بالحديد ، وأحبينا الفتح المأموني برأينا الرشيد ، وما خفي عن كريم علمه وقوع انتقامنا الشريف في الغادر ابن الغادر لما أدبر وقطع الله دابره ، وظهور السر الإبراهيمي لما أدعى أنه نمروذ تلك الفئة الغادرة ؛ كلمه بسيوفنا فأخرسه وتخبطه شيطان الرعب بمسّه ورأى فيه تلك الهمة العالية فنجا من تلك الوقعة بفرسه ونفسه ، وأوى من قبل إلى جبل ليعصمه فقال له لا عاصم اليوم من أمر الله ،

ورماه من شاهقة في بحر عساكرنا بعد ما عض عليه بثناياه ، وسمع الرعد من سيف إبراهيم ففر وقد شاهد من أصيب بصواعقه من عصاة التركمان وصدقت فيه عزائم أتراكنا وما رؤي أحد في ذلك اليومن من الترك مان وسقوا أوعار تلك الجبال من دمائهم فكادت أحجارها أن تروق وتخضب بعد المحل ، وجنوا بالعسال على النصر وغنموا من الأنعام مازاد في عدد أجناسه على النحل ، ونقرت عنهم أوانس تلك الظباء والمتيم ينشد : لهفي لظبية أنسٍ منكم نفرت

وانفطرت كبده لما رأى كواكب الحيِ من أفلاك تلك الصدور قد نتثرت ،وسن المقر الصارمي فيهم عزمه فقطع بهذا الصارم من عواتقهم أوصالاً ، وحميت نار حربه فسبكت أوانيهم من الذهب والفضة تحت وحوافر خيله نعالاً ، ورخصت أنواع الديباج فكم من معدني صار مع دني ، لأن قبورهم بعثرت ، وتلا لسان حال الكسب على السمور وغيره من أصناف الوبر ، وإذا الوحوش حشرت ، وانقادت ركائبهم إلينا وبدور مواطئها في بروج تلك الجبال قد أشرقت ، والناظر يتلوا متعجباً أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وكانت نار حرب القوم على المقر الإبراهيمي برداً وسلاماً ، فإنه رفع قواعد بيته في ذلك اليوم وعلمنا إن الله قد جعل لإبراهيم في هذا البيت الشريف مقاماً ، ورقاه في عمر الإبدار إلى بروج الكمال فأبدر فيها وسرى وأنشد لسان الحال بهذا المقال :

وقد ظهرت فلا تخفى على أحدٍ . . . إلاّ على أكمهٍ لا يعرف القمرا وإن كان شبلا فهو في المخبر كأسده ، ومصارع ليوث الحرب قد جعلها الله من صغره تحت يده ، ورفع له في هذا المبتدأ وسيره في الآفاق خبراً ، وعلم الأعداء أن دمعهم يجري عند لقائه دما وكذا جرى ، وهذه المقابلة تليق بابن الغادر على قبح سريرته وغدره ، فإنه أخرج أهل تلك البلاد من أرضهم بظلمه لا بسحره ، وسألنا قبل ذلك في ولده وقد كره العود إليه ، وألف أبوتنا الشريفة وتوطن فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن عليه ، فخالف نص الكتاب ومشى في ظلم الطغيان ، ولم يعمل بقوله تعالى هل جزاء الإحسان إلاالإحسان ، فقابلته سطواتنا الشريفة على قوله وفعله ، وما حاق المكر السيىء إلا بأهله ، وحلّ ركابنا الشريف بالأبليستين في العشرين من ربع الآخر فجمعنا بحصنها الزاهر بين ربيعين ، وتمناها بعشر الإقامة لاستيفاء مالنا في ذمة جيرانها من الدين ، فرحبت بنا وبسطت بساطها الأخضر وقالت على الرأي والعين ، وألقتنا إلى درندة وما العيان من صنع الله في أخذها كالخبر ، وادعت أن صخرها أصم فأسمعناه من آذان المرامي تنقير المدافع وتحريك الوتر ، وطلعت فيظهر الجبل كدمل فطار كل جارح من سهامنا بريشة إلى فتحها ، وظنت صون من بها لعلوّ ذلك السفح فطالت سيوفنا إلى جماء القوم وسفحها ، وقرعنا جبلها بسبابات المدافع وكسرنا منه الثنية ، وأمست حلق مراميها كالخواتم في أصابع سهامنا المستوية ، وخرَّ بحرها طائعاً فركبنا عليه سفن سور على الزحف جاسرة ، وأقلعنا إلى خشب سفنها المسندة فمزقنا قلوع سائرها وخرجنا قرينها العامرة ، وهذا مع الملك خطبها لنفسه وأراد أن يعرج إليها فترفعت عليه ، ولم ترضه لنقص العرج أن يعلو عليها فرحل عنها ولم يحظ مني ديوان وصلها بمسموح ، ولكن ساعة رؤيتها قالت بكارتها مرحباً بأبي النصر وأبي الفتوح ، وتعلق سكانها بأذيال الأمان فأمناهم ، ولكن كانوا في صدرها غلاً فنزعناهم ،وجاءت مفاتيح جندروس قبل التخلص منها براعة فأحسنها الختام بدرندة ، وألقينا إكسير المدافع على حجرها الذي كانغير مكرم وأحسنا

التدبير في الصناعة ، وسمعت كرت برت بذلك فألقت من بها من بئر معطلة ، وزهت فرحت بقصرها المشيد ، ووصلت مفاتيحها يوم هذا الفتح مهنئة بلسانها الحديد ، وغارت عروس بهنتان من ذلك فخطبتنا لجمالها البارع ، وجهزت كتابها يشهد لها بالخلو من الموانع ، وهي أيضا ممن خطبها الملك لنفسه فتمنعت ، وأراد السمو إلى أفقها العالي فاستسفلته وترفعت ، وعوت كلابه فلقمتهم ما ثقل وزنه من أحجارها الثقال ، خلافا لمن أصبح الصخر عنده بمثقال ، ولعم طغرق أن سهامنا في كل عضو من أعضاء العصارة جارحة ، وأفواه مدافعنا في أعراض الصخور من سائر القلاع قادحة ، فتبت يداه عن المنع وجنح إلى الإخلاص فسابقه باب القلعة ورفع صوته في الفاتحة وضحك ناموس ملكنا على من أدعى بكختا وكرك ، ولكن أبكتهم سهامنا دما جرى من محاجر القلعتين ولم يتعثر ، وقال حصن كختا إن كانت قلعة نجم عقاباً في عقاب ، فالنسر الطائر يخفق تت قامتي بأجنحته أو كان الهلال قلامة لأظفلتها التي علاها من الأصيل خضاب ، فكي الخضيب يتيم تربي ويمسح بياض جبهته فأنا الهيكل الذي ذاب قلب الأصيل على تذهيبه ، وود دينار الشمس أن يكون من تعاويذه ، والشجرة التي لولا سمو فرعها تفكهت به حبات الثريا وانتظمت في سلك عناقيده ،وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشامم فارمدنا عيون مراميه بدم القوم وأميال سهامنا على تكحيلها تتراحم ، ووصل النقب بتنقيبه عن مقاتلهم إلى الصواب ، وأيقنوا أن بعده لم يضرب بيننا برسوله باب ، وكان منهل مائهم عذبا فأكثرنا على منبعه الزحام ، وتطفلوا على رضاع ثدي دلو فلم ترض أم المنبع بغير الفطام ، وأمسى دلوهم كدلو أبي زيد السروجي لا يرجع ببلّةٍ ولا يجلب نقع غلّه ، وحكم المدفع الكبير على سور القلعة فقال له السور دائم النفوذ والأحكام ، وانقلبوا صاغرين إلى الطاعة وقد قابلنا أنف جبلهم بالإرغام ، ورجعوا عن خليلهم الكردي لما قام لهم على جهله الدليل ، وقالوا طاعة السلطنة الشريفة ما يراعي فيها من العصاة خيل ، وسألونا الصفح عن حديث جهلهم القديم ، وسلموا القلعة لرضا خواطرنا الشريعة فاجمعوا بذلك بين الرضا والتسليم ، وتنكرت أكراد كركر بسور القعلة فعرفناهم بلامات بين الرضا والتسليم ، وتنكرت أكراد الكوكر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسي وألفات السهام ، وعطست أنوف مراميهم بأصوات مادافعنا كأنّ بها زكام وتبرموا من خليلهم الكردي لما شاهدوا الخطب جليلاً ، وقال كل منهم يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، وأورت عاديات المدافع ب القلعة قدحا فأمست بالزلزلة مهددة وفرار من سطواتنا إلى البروج فأدركهم الموت في بروجهم المشيدةوسألنا كرديهم في جزيل ماله ليغدو بنفسه الخبيثة ويروح ، فلم نرض منه على كفره إلا بالمال والروح ، وسجناه في قلعته وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع ، وجهز المفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الإجماع ،

وأمسى بها : يهم بأصوات مادافعنا كأنّ بها زكام وتبرموا من خليلهم الكردي لما شاهدوا الخطب جليلاً ، وقال كل منهم يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، وأورت عاديات المدافع ب القلعة قدحا فأمست بالزلزلة مهددة وفرار من سطواتنا إلى البروج فأدركهم الموت في بروجهم المشيدة وسألنا كرديهم في جزيل ماله ليغدو بنفسه الخبيثة ويروح ، فلم نرض منه على كفره إلا بالمال والروح ، وسجناه في قلعته وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع ، وجهز المفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الإجماع ، وأمسى بها :

كريشةٍ في ممرّ الريح ساقطةٍ

وتمام البيت معروف عند من له عليه اطلاع وجاءت مفاتيح كل من ديار بكر وقد أزهرت باسمنا الشريف أغصان منابرها ، وسألت قلعتها التشريف برسول يدوس بنعله محاجرها ، فأحببناها إلى ذلك وأمست بنا بعد التنكر معرفه ، وصارت أبراجها بالنسبة المؤيدية مشرفة ، وجهز قرا عثمان مفاتيح الرها وآمد وسأل تشريفه بتشريفهما بتقليدين يرفعان لهما في الشرف محلا ، فحليناه بذلك وكان من العواطل ، فحلت المطابقة باعاطل المحلى ، والتهب ابن الغادر بحرارة المعصية ففر إلى برد الطاعة من غير فترة ، وهز جذع مراحمنا الشريفة واعترف أنه جهل الفرق بين التمرة والجمرة ، وأقر بذنوبه وقال التوبة تجب ما قبلها ، ودوحة المراحم الشريفة قد مد الله على الخافقين ظلها ، وعلم أنه ما أحسن البيان عن درندة في تخليص ذلك المفتاح ، وسأل أن يحظى من بيان عفونا الشريف باستجلاء عروس الأفراح ، فاذقناه حلاوة قربنا بعد ما ذاق مرارة بينه ، وألبسناه تشريفة بنيابة الابليسين فباس الأرض وهو لا يصدق أنه يرى محاجر تلك العين بعينه ، وجهزنا ولده داود بدروع من الأمن ليأمن بها من يدداود ، ويتفيأ بظلال جبرنا ويصير بعد حر المعصية في ظل ممدود ،وقد تقدم سؤال قيسارية أن يقام بها سوق الأمان فأجبناها ، وسعرت بها نار الخوف بعدما غلت فجهزنا إليها بضائع الأمن وأرخصناها ، وأيقن أهلها أنهم مشوا في حدائق عدلنا على غير هذه الطريقة ، وصار على سوسنة كل سنان من دمائهم شقيقة ، فازلنا عنهم بإيناس عدلنا الوحشة وأمست قيساريتهم في أيامنا الزاهرة هشّة وسجعت خطباء منابرها باسمنا الشريف والدهر يهتز فرحة ويترنم :

ولم يخل من أسمائنا عودُ منبرٍ . . . ولم يخل دينارٌ ولم يخل درهم وتقارب الاشتقاق بين سيواس وسيس فتجانسا للطاعة ، ومات العصيان بتلك البلاد فقالت أرزيكاز الصلاة جامعة وصلت طائعة مع الجماعة ، فلا قلعة إلا إفتضضنا بكارتها بالفتح وابتذلنا من ستائرها الحجاب ، ولا كأس برج أترعوه بالتحصين إلا توجنا رأسه من مدافعنا بالحباب ، حتى فصلت في الروم لعساكرنا التي هي عدد النمل قصص ، وعدنا فكان العود أحمد إذ لم يبق بتلك البلاد ما تعده القدرة على الفتح من الفرص ، وجاءت رسل ملوك الشرق بالإذعان لطاعتنا التي اتخذوها لشرفها قبلة ، وود كل منهم أن يحظى من جبهات أعتابنا بقبله ، وتنوعوا من الهدايا بأجناس صدقت من كل نوع مقبول ، وبالغوا في الرقة واهدوا من الرقيق ما قام له عندنا سوق القبول ، وأسفر قرا يوسف من الجمال اليوسفي ونور الطاعة عن بهجتين ، وأظهر كتاب الطهارة بتطهير الأرض ممن ندبنا إليه من أعداء الدولتين ، ودنت الديارمن الديار فكانت سيوفنا في القرب له حصنا وملاذا ، ولم يباشر في إخلاص الطاعة مما يقال على إقبالها وجنينا منها ثمار المحبة ، وجمل التفاصيل التي وسعها سناء الملك ببهجة ولم يترك لابنه في دار الطراز رتبه ، والنمورة التي يحجم ابن فهد عن وصفها إذا قابل منها السواد والبياض بالمقلتين ، فإنها جمعت لنا من ليلها الحالك ونهارها الساطع بين الآيتين ، والجواد الذي تميز بأوصاف صاحب مجرى السوابق من الفحول التي تجاريها ، فإنه غرة في جباه الخيل التي قال قائد الغر المحجلين : إن الخير معقود بنواصيها ، والسروج التي سمت على السروجي بمقاماتها العالية ، ورأيناها أهلة تغني عن الفجر فخصبنا كل سرج منها بالغاشية ، والجوارح التي خشي النسر الطائر أن يصير منها واقعا وصدق فيما تفرس ، وخافت الشمس لما تسمت بالغزالة ولف سرحان الأفق ذنبه على خيشومه ولم يتنفس ، والقوس الذي اصاب به أغراض المحبة ونال منها أوفر سهم ونصيب ، وجاء عبارة عن رأي مهديه وكل

عندنا بحمد الله مصيب ، وهو من الأشياء التي وقعت في محلها ونحن نقيم دلائل ذلك وبرهانه فإن القوس إذا عانق سهامه بنصر علم أنه وصل إلى الكنانة ،وأبلغ المقر الجمالي في نظم بديع الهداي ونسخ الجفاء بكثرة رقيقة ، وأدار من أواني الصيني كؤوسا اترعها الود بسلاف رحيقه ، ودخلنا حلب المحروسة وأوصلناها ما استحق لها من ديون الفتح علينا ، ورددنا ما اغتصب منها فقالت هذه بضاعتنا ردت إلينا ، وقد آثرنا الجناب بكرامة هذه البشارة التي استبشر بها وجه الزمان بعد قطوبه وتبسم ، فإن ركن هذا البيت الشريف ونسيب مدحه المقدم ، فيأخذ منها حظه ويثلج صدر البرايا ففيها لهم برد وسلام ، ويرعاهم بعين الرعاية ليضوع فيهم عرف العدل ويصير مسكا لهذا الختام ، والله تعالى يمتعه في ليله ونهاره من أخبارنا السارة بالأعياد والمواسم ، ويجعل له من صياغة أعماله إن شاء الله حسن الخواتم ،

رحلة المؤلف من مصر إلى دمشق

.

قلت وذكرت بهذه الرحلة أيضا رحلتي من الديار المصرية إلى دمشق المحروسة المحمية سنة إحدى وتسعين وسبعمائة والملك الناصر قد خرج من الكرك ونزل عليها وتصدى لحصارها وقد اجتمعت عليه العساكر المصرية والشامية وحدث بدمشق المحروسة ما حدث من القتال والحصار والحريق فكتبت إلى مقر المرحومي الفخر القاضي ابن مكانس في شرح ذلك رسالة لم ينسج على منوالها ولم تسمح على غلبة الظن قريحة بمثالها . وهييقبل المملوك أرضا من يمَّها أو تيمم بثراها حصل له الفخر والمجد ، ففلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيام العرب إلى ربا نجد ، ولا زالت فحول الشعراء تطلق أعنة لفظها فتركض في ذلك المضمار ، وتهيم بواديها الذي يجب أن ترفع فيه على أعمدة المدائح بيوت الأشعار ، وينهي بعد اشواق أمست الدموع بها في محاجر العين معثرة ، ولو لم يقر إنسانها بمراسلات الدمع لقلت قتل الإنسان ما أكفره ، وصول المملوك إلى دمشق المحروسة فيا ليته قبض قبل ما كتب عليه الوصول ، ودخوله غليها ولقد والله تمنى خروج الروح عند الدخول ، فنظر المملوك إلى قبة يلبغا وقد طار بها طير الحمام وجثت حولها تلك الأسود الضارية ، فتطيرت في ذلك الوقت من القبة والطير وتعوذت بالغاشية ، ودخلت بعد ذلك إلى القبيبات التي صغر اسمها لأجل التحبب ، فوجدتها وقد خلا منها كل منزل كان آنسا بحبيبه ، فأشد به لسان الحال قفا نبك من ذكرى حبيب ، ونظرت بعد القباب إلى المصلى وما فعلت به سكان تلك الخيام ، والفت إلى بديع بيوته التي حسن بناء تأسيسها وقد فسد منها النظام :

فسال وقد وقعتُ عقيق دمعي . . . على أرض المصلَّى والقباب

ونظرت إلى ذلك الوادي الفسيح وقد ضاق من الحريق بسكانه الفضا ، فتوهمت أن وادي المصلى قد تبدل بوادي الفضا :

فسقى الفضا والساكنيه وإن همُ . . . شبّوه بين جوانحِي وضلوعيواصطليت النار وقد أرادت سبي ذلك النادي فشبت عليه من فوارس لهيبها الغارة ، وركضت في ميدان الحصى فوجدت أركانه كما قال تعالى وقودها الناس والحجارة ، ودخلت قصر الحجاج وقد مدت النار به من غير ضرورة في موضع القصر ، وأصبح أهله في خسر وكيف لا وقد صاروا عبرة لأهل العصر ، وتأملت تلك الألسن الجمرية وقد انطلقت

في ثغور تلك الربوع تكلم السكان ، وتطاولت بألسنة الأسنة الأتراك فانذهل أهل دمشق وقد كلموا بكل لسان ، ووصل المملوك بعد الفجر إلى البلد وقد تلا بعد زخرفة في سورة الدخان ، فوجب أن أجري الدموع على وجيب كل ربع وأنشد وقد دخل صبري بعد أن كان في خبر كان :

دمعٌ جرى فقضى في الربع ما وجبا

ووقفت أندب عرصاتها التي فمحت بالبين فخابت من أهلها الظنون ، وكم داروا بقمحها خيفة من طاحون النار فلم يسلم فصدقت المثل بأن القمح يدور ويجيء إلى الطاحون ، وتطرقت بعد ذلك إلى الحدادين وقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد ، أتوني زبر الحديد ، ولقد كان يوم حريقها يوما عبوسا قمطريرا ، أصبح المسلمون فيه من الخفية وقد رأوا سلاسل وأغلالا وسعيرا ، هذا وكلما اصليت نار الحريق وشبت نار الحرب ، ذكرت ما أشار به مولانا على المملوك من الإقامة بمصر فأنشدت من شدة الكرب :آهاً لمصرَ وأين مصرُ وكيف لي . . . بديار مصرَ مراتعاً وملاعبا

والدهر سلمٌ كيفما حاولته . . . لا مثل دهري في دمشق محاربا

يا مولانا لقد لبست دمشق في هذا المأتم السواد ، وطبخت قلوب أهلها كما تقدم على نارين وسلقوا من الاسنة بألسنة حداد ، ولقد نشفت عيونهم من الحريق واستسقوا فلم ينشقوا رائحة الغادية ، وكم رؤي في ذلك اليوم وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلي نارا حامية ، وكم رجل تلا عند لهيب بيته تبت يدا أبي لهب ، وخرج هاربا وامرأته حمالة الحطب ، وشك الناس من شدة الوهج وهم في الشتاء وصاروا من هذا الأمر يتعجبون ، فقال لهم لسان النار أتعجبون من الوهج والحريق وأنتم في كانون ، ولعمري لو عاش ابن نباتة ورأى هذه الحال ، وما تم على أهل دمشق في كانون لترك رثاء ولده عبد الرحيم وقال :

يا لهف قلبي على وادي دمشق ويا . . . حُزني ويا شجوي ويا دائي

في شهر كانون وافاه الحريق لقد . . . أحرقت بالنار يا كانون أحشائي ونظرت بعد ذلك إلى قلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الآزفة ؛ وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يلتون ليس لها من دون الله كاشفة ؛ واستجليت عروس الطارقة عند زفها وقد تجهزت للحرب وما لها غير الأرواح مهر ؛ وعقدت على رأسها تلك العصائب وتوشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر ؛ وغازلت بحواجب قسيها فرمتالقلوب من عيون مراميها بالنبال ؛ وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكحالا كانت السهام لها أميال ؛ وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وسمع وهو على فرسه بنفسه الغالية ؛ ورامواكشفها وهم في رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن الطارقة علية ؛ وتالله ولقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرس في الأسحار ؛ وقد استيقظوا الحمل قسيهم ولم تنمّ أعينهم عن الأوتار ؛ فأعيذ رواسيها التي هي كالجبال الشامخة بمن أسس رواسي المحجوج ؛ وأحصنها القلعة بالسماء ذات البروج ؛ وتطاولت إلى السور المشرف وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات ؛ فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تخليصا لما أبداه من المشكلات ؛ وما أحقه بقول القائل :

فضائله سورٌ على المجد حائطٌ . . . وبالعلم هذا السور أضحى مشرّفا

كم حملوا عليه وظنوا في طريق حملتهم نصرا ، ونصبوا دست الحرب ولم يعلموا بأنه قد طبخ لهم على كل باب قدراً ، فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب قد تصاعد فيه أنفاس الرجال لقلت ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وإلى المحاصرين وقد جاؤوا راجلاً وفارسا ليشهدوا القتال لقلت وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، وإلى كواكب الأسنة وقد انتشرت ، وإلى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بعثرت ، وإلى كرَّ الفوراس وفرِّها لقلت علمت نفس ما قدمت وأخرتن وإلى نار النفط وقد نفطت من غيضها ، وإلى ذكور السيوف وقد وضعت لمنايا السعود وتعذرت من شدة الدماء لكثرة حيضها ،ومن العجائب أن بيض سيوفهم تلك المنايا السود وهي الذكور وإلى فارس الغبار وقد ركب صهوات الجو ولحق بعنان السماء ، وإلى أهداب السهام وقد بكت لما تخضبت بالدماء ، وإلى كل هارب سلب عقله وكيف لا وخصمه له ، وإلى كل مدفع وما له عند حكم القضاء دافع ، وإلى قامات أقلام الخط وقد صار لها في طروس الأجسام مشق ، فاستصوبت عند ذلك رأي من قال : عرّج ركابك عن دمشق ، ونظرت بعد ذلك إلى العشير وقد استحل في ذي الحجة المحرم وحمل كل قيسيٍّ يمانيا ، وتقدم فخرج النساء وقد أنكرن منهم هذا الأمر العسير فقلت :

وغير بدعٍ للنسا . . . ء إذا تنكّرن العشير

وتصفحت بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالإخلاص وزدت لله شكرا وحمدا ، وتأملت أهل الباب وهم يتلون لأهل البلد في سورة الفتح وللمحاصرين وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ، كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ونظرت إلى ما تحت القلعة من أسواق التجار فوجدت كلا قد محت النار آثاره وأهله يتلون قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، فمنهم من همُّ شأنه على صاحبته وبنيه ، وآخر قد استغنى بشأن نفسه فهم كما قال الله لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، فوقفت أنشد في تلك الأسواق وقد شعرت :

ألا موتٌ يباع فأشتريهونظرت إلى المؤمنين الركع السجود وهم يتلون على من ترك في بيوتهم أخدودا من وقود النار ، وقعد لحربهم في ذلك اليوم المشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، هذا وكم مؤمن قد خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار ، وكلما دعا قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الإصطبار ، ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، ونظرت ضواحي البلد وقد استدت في وجوههم المذاهب وما لهم من الضيق مخرج ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت لما غلق في وجوههم باب الفرج ، فقلت اللهم اجعل لهم من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ، ولعدم أموالهم من كل عسر يسرا ، ولإنتهاك مخدراتهم من كل فاحشة سترا ، ولقطع الماء عنهم إلى كل خير سبيل فإنك حسبنا ونعم الوكيل ، هذا وكم نظرت إلى سماء ربع غربت شمسه بعد الإشراق ، فأنشدت وقد ازددت كربا من شدة الإحتراق :

فدنياك من ربعٍ وإن زدتنا كربا . . . فإنّك كنت الشرق للشمس والغربا وانتهيت إلى الطواقين وقد أسبل عليهم الحريق شدته فكشفوا الرؤوس لعالم السرائر ، وكم ذات ستر خرجت بفرق مكشوف ورمت العصائب وبعلها بعينه دائر ، هذا وكم ناهداتأسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبّات القلوب ذوائبا ،

ووصلت إلى ظاهر الفراديس وقد قام كل إلى فردوس بيته فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، واندهشت لتلك الأنفس التي ماتت من شدة الخوف وهي تستغيث للذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، ونظرت إلى ظاهر باب السلامة وقد أخفت النار أعلامه ، ولقد كان أهله من صحة أجسامهم ومن اسمه كما يقال بالصحة والسلامة ، وإلى الشلاحة وقد لبست ثياب الحزن وذابت من أهلها الكبود ، وقعدوا بعد تلك الربوع على أديم الأرض ونضجت منهم الجلود ، ولقد والله عدمت لذات الحواس الخمس وضاقت عليّ الجهات الست فلم ترقأ لي دمعة ، وأكلت الأنامل من الأسف لما سمعت بحريق أطراف السبعة ، فأعيذ ما بقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم ، فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، وتغربت إلى ظاهر الباب الشرقي فتشرقت بالدمع من شدة الالتهاب ، فلقد كان أهله من دار عينه وكرومه الكريمة في جنتين من نخيل وأعناب ، وتوسلت إلى ظاهر باب كيسان فانفقت كيس الصبر لما افتقرت من دنانير تلك الأزهار والدراهم رباها ، وسمحت بعد ذلك بالعين واستخلمت فقلت بسم الله مجراها ، وكابرت إلى أطراف الباب الصغير فوجدت فاضل النار لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فيا لهفي على عروس دمشق التي لم تذكر معمحاسنها أسماء ولا الجيداء ، لقد كانت ست الشام فاستعبدها ملك النار حتى صارت جارية سوداء ، ولقد وقفت بين ربوعها وقد التهبت أحشاؤها بالاضطرام ، وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام ، فاستسقيت لها بقول ابن أسعد حيث قال :

سقى دمشق وأياماً مضت فيها . . . مواطرُ السحب ساريها وغاديها
ولا يزال جنين النبت ترضعه . . . حوامل المزن في أحشا أراضيها
فما نضا حبّها قلبي لنّيرها . . . ولا قضى نحبه ودّي لواديها
ولا تسلّيت عن سلسال ربوتها . . . ولا نسيت مبيت جار جاريها

هذا وكم خائف قبل النوم أويناه بها إلى ربوة ذات قرار ، وكم كان بها مطرب طير خرج بعدما كان يطرب على عود وطار ، وبطل الجنك لما انقطعت أوتار أنهاره فلم يبق له مغنى ، وكسر الدف لما خرج نهر المغنية عن المغنى ، واستسمح الناس من قال :

انهض إلى الربوة مستمتعاً . . . تجد من اللّذات ما يكفي
فالطير قد غنّى على عوده . . . في الروض بين الجنك والدفّ

وأصبحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيره ، ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة ، فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم ، وضاع من غير تورية عطره الباسم ، ولم ينتظر لزهره المنثور على ذلك الوشي المرقوم ، رسالة من النسيم سحر به ، وكيف لا وقد محى سجع المطوق من طروس تلك الأوراق النباتية ،هذا وكم عروس روض سوّر معصمها النقش فلما انقطع نهرها صح أنها كسرت السوار ، وكم دولاب نهر بطل غناؤه على تشبيب النسيم بالقصب وعطلت نوبته من تلك الأدوار ، فوقفت أندب ذلك العيش الذي كان بذلك التشبيب موصولا ، وأنشد ولم أجد بعد تلك النوبة المطربة إلى مغنى الربوة دخولا :

لم لا أشبِّبُ بالعيش الذي انقرضت . . . أوقاتُهُ وهو بالَّلذات موصولُ ونقص يزيد فاحترق ولا ينكر ليزيد الحريق على صنعه ، وانقطع ظهر ثور فأهلك الحرث والنسل بقطعه ، وبردى حمي مزاجه لما شعر بالحريق ، ولم يبق في ثغره الأشنب برد حصائبه ما يبلّ الريق ، وانقطع وقد اعتلى من غيضه بانياس ، ولم يظهر عند قطعه خلاف ولا بان آس ، وجرى الدم من شدة الطعن بالقنوات ، وكسرت قناة المرجة فذاقت مر العيش بعد حلاوة تلك القطف الدانيات ، وكسر الخلخال لما قام الحرب على ساقه ، وسقط براس كل غصن على الجبهة فهاجت البلابل على أوراقه ، وخرّ نهر حمص خاضعا وتكدر بعد ما كان يصفي لنا قلبه ، وافتقر أغنياء غصونه من حبات تلك الثمار فصاروا لا يملكون حبة ، طالما كان أهله فاكهين ، ولكنهم اعترفوا بذنوبهم فقالوا : وكنا نخوض مع الخائضين ،وذبلت عوارض تلك الجزيرة التي كانت على وجنات شطوطه مستديرة ، فقلنا بعد عروس دمشق وحماتها لا حاجة لنا بحمص والجزيرة ، فيا لهفي على منازل الشرف وذلك الوادي الذي نعق به غراب البين ، ويا شوقي إلى رأس تلك المرحلة التي كانت تجلسنا قبل اليوم على الرأس والعين ، هذا وقد اسودت الشقراء فأمست كابية لما حصل على ظهرها من الجولان ، وجانسها العكس فأضحت باكية على فراق الأبلق واخضر ذلك الميدان ، يا مولانا لقد بكى المملوك من الأسف بدمعة حمراء على ما جرى من أهل الشهباء ، هل في الميدان على الشقراء حتى كذّب الناس من قال :

قُلْ للذي قايس بين حلبٍ . . . وجلّقٍ بمقتضى عيانها

ما تلحق الشهباء في حلبتها . . . تعثّر الشقراء في ميدانها

فقال لسان الحال والله ما كذبت ولكنه قد يخبو الزناد ، وقد يكبو الجواد ، وقد يصاب الفارس بالعين التي تغمز قناته غمزا وأنشد :

ومن ظنَّ سيلاقي الحروب . . . وإن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

ودخلت بعد ذلك إلى البلد فوجدت على أهله من دروع الصبر سكينة ، فقلت يا رب مكة والحرم أنظر إلى أحوال أهل المدينة ، ولكن ما دخلت بها إلى حمام إلاّ وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه حماما ، واعلم القوام والقاعدون بأرضه أنها ساءت مستقرا ومقاما ، وتلا على بيت ناره قلنا يا نار كوني برد وسلاما ، فحسن أن أُنشد قول ابن الجوزي :الحار عندك بارد . . . والنهر أمسى منقطع

والعين لا ماء فيها . . . ما حيلة القوّام

وأتيت بعد ذلك إلى الجامع الأموي فإذا هو لأشتات المحاسن جامع ، وأتيته طالبا لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع ، تمسكت بأذيال حسنه لما نشقت تلك النفحات السحرية ، وتشوقت إلى النظم والنثر لما نظرت إلى تلك الشذور الذهبية ، وآنست من جانب طوره نارا فرجع إلى ضياء حسي ، واندهشت لذلك الملك السليماني وقد زها بالبساط والكرسي ، وقلت هذا ملك سعد من وقف في خدمته خاشعا ، وشقي من لم يدس بساطه ويأته طائعا ، ولقد صدق من قال :

أرى الحسن مجموعاً بجامع جلّقٍ . . . وفي صدره معنى الملاحة مشروحُ

فإن يتعالى بالجوامع معشرٌ . . . فقل لهم بابُ الزيادة مفتوح

معبد له قصبات السبق ولكن كسرت عند قطع الماء قناته ، ورأيته في القبلة من شدة الظمأ وقد قويت من

ضجيج المسلمين أناته ، وخفض النسر جناح الذل وود بأن يكون النسر الطائر ، وطمست مقل تلك المصابيح فاندهش لذلك الناظر ، هذا وكم نظرت إلى حجر مكرم ليس له بعد أكسير الماء جابر ، واختفت نجوم تلك الأطباق التي كانت كالقلائد في جيد الغسق ، ومرت حلاوة نارها بعدما ركبت طبقا عن طبق ، وأصبح دوحه وهو بعد تلك النضارة والنعيم ذابل ، وكادت قناديله وقد سلبت لفقد الماء أن تقطع السلاسل ، ولم تشر الناس بأصابعها إلى فصوص تلك الخواتم المذهّبة ، ولم يبق على ذلك الصحنطلاوة بعد الماء وحلاوة سكبه الطيّبة ، وتذكر المنبر عند قطع الماء أوقاته بالروضة ، وتكدرت أفراحه لما ذكر أيامه بتلك الغيضة ، وأنشد لسان حاله :

لو أن مشتاقاً تكلّف فوق ما . . . في وسعه لسعى إليك المنبرُ وودت العروس أن تكون مجاورة لحماتها ، لتبلَّ برحيق الأمن إذا نظرت إلى عاصي الحمدية وقد دخل جناتها ، ونظرت إلى فوار أبي نواس وقد انقطع قلبه بعد ما كان يثب ويتجرَّا ، وكاد أن ينشد من شعره لعدم الماء ألا فاسقني خمرا ، ودخلت إلى الكناسة وقد علا بها غبار الحزن فتنهدت من الأسف على كل ناهدة ، ورثيت للنساء وقد فقدت بعد تلك النعام المائة ، واستطردت إلى باب البريد فوجدت خيول الماء الجارية قد انقطعت عن تلك المراكز ، ونظرت إلى السراج الأكبر وقد اعقدت من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز ، ونظرت إلى أهل الصلاة وعليهم في هذه الواقعة من الصبر دروع ، وقد استعدوا بساهم من الأدعية أطلقوها عن قسيّ الركوع ، مريَّشة بالهدب من جفن ساهر متصلة اطرافها بدموع ، ونظرت إلى الريان من العلم وقد اشتد لفقد الماء ظمأه وتبلَّد ذهنه ، حتى صار ما يعرف من أين الطريق إلى باب المياه ، ومشيت بحكم القضاء إلى الشهود فوجدت كلا منهم قد راجع سهاده وطلق وسنه ، وتأملت أهل الساعات وقد صار عليهم كل يوم بسنة ، ونزلت فيذلك الوقت الساعات إلى الدرج في دقيقه ، فانتهيت إلى مجاز طريق الفوار فوجدته كأن لم يكن له حقيقة ، كم وردته وهو كأنه يطعن في صدر الظماء أو شجرة كدناء ، وتقول إنها طوبى لما ظهرت واصلها ثابت وفرعها في السماء ، أو مغترف بيده الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضا فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضاء ، أو عمود وفاء اشارت الناس إليه بالأصابع ، أو ملك طلب السماء بودائع ، حتى كان إكليل الجوزاء له من جملة الصنائع ، ونسر أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حبات النجوم الثواقب ، أو شجاع ذو همة علية يحاول تأثراً عند بعض الكواكب ، فخفض لفقد الماء منارة وخفى بعد ما كان به أشهر من علم ، وجدع أنفه وطالما ظهر وفي عرينه شمم ، فقلت :

لست أنسى الفوّار وهو ينادي . . . غيض مائي وعطّل الدهر حالي

فتمنَّيت من لهيبي بأنّي . . . اشتري غيضه بروحي ومالي

فلا والله ما كانت إلا أيسر مدة حتى رجع الماء إلى مجاريه ، وابتسم ثغر دمشق عن شنب الريّ بعدما نشف ريقه في فيه ، هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعد ما قامت على ساق وقدم ، وبطلت آلتها التي كانت لها على تحريك الأوتار وجس العيدان نغم ، واعتقل الرمح بسجن السلم وعلى رأسه لواء الحرب معقود ، وعمت مقل السيوف في أجفانها لما علمت أن الزيادة في الجد نقص في الخدود ، وفاضت غدران الرحمة على رياض الأمن فظهر لها من نبات حسن ، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزنوبعد فالمعذرة من فهاهة هذه

الرسالة التي هي في رياض الأدب بأقلية والصفح عن طولها وقصر بلاغتها بين يدي تلك المواقف السحبانية وليكون محمولا على متن الحلم كلامها الموضوع ، فقد علم الله أنها صدرت من قلب مكسور ، وفؤاد مصدوع ، وذهن ضعيف وليس لكسير ضعفه عاصم ولا نافع ، وراحلة فكر أمست وهي عند سيرها إلى غايات المعاني ضالع :

فسيروا على سيري فإنّي ضعيفكم . . . وراحلتي بين الرواحل ضالعُ

هذا وكم تولد للملوك في طريق الرمل من عقله ، وكم ذاق من قطاع الطريق أنكادا حتى ظن أنه لعدم النصرة ليس له إلى الاجتماع وصله ، وكلما زعق عليه غراب تألم لسهام البيت وفقد مصر التي هي نعم الكنانة ، وأنشد وقد تحير في الرمل لفراق ذلك التخت الذي أعز الله سلطانه :

من زعقة الغراب بعد الملتقى . . . فارقت مصراً وبها أحبابي

وفي الطريق الرمل صرت حائراً . . . مروّعا من زعقة الغراب

واستقبل المملوك بعد ذلك بلاد الشام فبئس الحال وبئس الاستقبال ، فو الرحمن ما وصل بها إلى مكان إلا وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتد القتال ، وحصدوا سنبل الرشاد فدرست فلا أعيد لمعيد حربهم دروس ، وأداروا رحى الحرب بقلوب كالأحجار فطحنت عن ذلك الرؤوس ، وأنشد لسان الحال :

من كل عادٍ كعادٍ في تجبُّره . . . من فوق ذات عمادٍ شادها إرمُ

لا يجمعون على غير الحرام إذا . . . تجمّعوا كحباب الرَّاح وانتظموا

وانتهيت الغاية بالملوك إلى أنه شلح بقرب الكسوة في الشتاء وانتظرت ملك الموت وقد أمسيت :لي مهجةٌ في النازعات وعبرةٌ . . . في المرسلات وفكرةٌ في أهل أتى هذا والليل قد أنطفأت مصابيح أنواره وعسعس ، حتى أيقنت بموت الصبح وقلت لو كان في قيد الحياة تنفس ، فذهب المملوك وقد تزود عند قسم الغنيمة بسهم ، فخرج ولم يجد له تعديلا ولكنه صبر على الألم بعد ما كاد يدمى من الوهم ، ولم يلق له مجيرا لما قوي ألمه وضعف منه الحيل ، إلا أنه دخل تحت ذيل الليل ، فوصل إلى البلد وقد ود يومه لو تبدل بالأمس ، ولم يسلم له في وقعة الحرب غير الفرس والنفس ، ولكنه أنشد :

وتفعل الأعداء في جاهلٍ . . . ما يفعل الجاهل في نفسه

فأعاذ الله مولانا وبلاده من تلك القيامة القائمة ، وبدأ به في الدنيا ببراعة الأمن وفي الآخرة بحسن الخاتمة .أدوات المنشئ

قلت قد استوعبت هنا تراجم كتّاب الإنشاء ونبذة مما تخيرته من إنشائهم وقد تعين أن أذكر بعد ذلك ما يحتاج إليه المنشيء الكامل الأدوات من المحاسن اللائقة به وبالله المستعان .

قلت قد استوعبت هنا تراجم كتّاب الإنشاء ونبذة مما تخيرته من إنشائهم وقد تعين أن أذكر بعد ذلك ما يحتاج إليه المنشيء الكامل الأدوات من المحاسن اللائقة به وبالله المستعان .

قال أبو حيان التوحيدي يجب على المنشيء أن يكون حافظاً لكتاب الله لينتزع من آياته الشريفة وأن يعرف كثيراً من السنة والأخبار والتواريخ والسير ويحفظ كثيراً من الرسائل والكتب ويكون متناسب الألفاظ متشاكل المعاني عارفاً بما يحتاج إليه ماهراً في نظم الشعر نظيف الثوب لطيف المركب ظريف الكلام ليق

الدواة حاد السكين متوداً إلى الناس مخالطهم غير متكبر عليهم دمث الأخلاق رقيق الحواشي ترف الأطراف عذب السجايا حسن المحاضرة مليح النادرة غير قنف ولا متعجرف ولا متكلف الألفاظ الغريبة ولا متعسف اللغة العويصة .

آداب الكتابة

روى الشعبي أنه قال كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعة كتب أولها باسمك اللهم فنزلت سورة هود فيها بسم الله مجراها ومرساها فكتببسم الله ثم نزلت سورة بني إسرائيل وفيها قل أدعو الله أو ادعو الرحمن فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت سورة النمل وفيها إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم فكتبها .

وروي إن فصل الخطاب الذي أعطيه داود عليه السلام أما بعد . روي أن أول من قالها كعب بن لؤي وهو أول من سمى يوم الجمعة .

وعن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا كتب أحدكم كتاباً فليتربه فإن التراب مبارك وهو أنجح .

روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه كتب كتابين إلى قريتين فأترب أحدهما ولم يترب الآخر فأسلمت القرية التي أترب كتابها .

وقال الحسن بن وهب كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب وكاتب صديقك بما تكاتب بها حبيبك فإن غزل المودة أرق من غزل الصبابة .

ورأيت في تذكرة الوداعي أن القاضي تاج الدين بن بنت الأعز كان إذا كتب كتاباً بدأ في ترسله بالبسملة لتعم بركتها سائر الكتاب ورمَّله ويخزن ذلك الرمل ويحترز عليه .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى إني ألقي إليَّ كتبا كريم قال مختوم وفضَّ الكتاب إذا كسر ختمه .والعنوان فيه خمس لغات أفصحها عنوان وجمعه عناوين وعلوان وعلاوين والعنوان الأثر وهو أثر الكتاب ممَّن وإلى من هو كما قيل :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به

في وصف القلم

والقلم لا يقال له قلم إلا إذا بري وإلا فهو أنبوبة .

من بديع ما سمعته في وصف القلم من النظم قول الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين علي بن الآمدي منقول من خط الوداعي :

تمشي اليراعة والمداد وراءها . . . ظلٌّ على شمس الطروس ينوعُ

عوض الغواني لو تلوح لمسلمٍ . . . هذي المعاني راح وهو صريع

لو لم تكن ألفاظه خطّيّةً . . . ما راح سرب اللفظ وهو منيع

ألفاظه رقّت بوجنة طرسه . . . فكأنّهنّ وقد جرين دموع

قلمٌ مسيحيُّ الخطاب لنطقه . . . في المهد من يمناه وهو رضيع

وغدا كليميّاً وقد ضاهى العصا . . . فغدا يروق بفعله ويروع
بالنقط حاكته الشموع وبالضيا . . . حاكته في حلك المداد شموع
قد لازم القرطاس وهو منوّرٌ . . . والطلُّ يهوى الروض وهو مريع
نورٌ ونوِّر خطّه وكلامه . . . هذا يضيء به وذاك يضوعوقال فيه وأجاد إلى الغاية :
ليمناه ذو طرفٍ كحيلٍ إذا بكى . . . تبسّم ثغر الخطّ من دمعه عُجْبا
وقد راح مشقوق اللسان متى جرى . . . بثغر الدوى المعسول أبدى اللمى العذبا
قلت من قصيدة رائية :
له يراع سعيدٌ في تقلُّبه . . . إن خطّ خطّاً أطاعته المقادير
محبّرٌ وبتحرير العلوم إذا . . . جرى يُرى منه تحريرٌ وتحبير
غصنٌ عليه طيور العلم عاكفةٌ . . . وجانس النَّور من أوراقه النور
وأشقرٌ عينه السوداء تلحظنا . . . وهدب أجفانها تلك التشاعير
أو سهمُ علمٍ بأطراف السطور غدا . . . مريّشاً وله في الضدّ تأثير
كذا محابره سود العيون فإن . . . دانت أياديه فهي الأعيُنُ الحور
في وصف الدواة
ويعجبني قول الشيخ شمس الدين ابن المزين في الدواة :
أنا دواةٌ يضحك الجود من . . . بكا يراعي جلّ من قد براه
دلّوا على مثليَ من شفَّهُ . . . داءٌ من الفقر فإنيّ دواه
وقلت فيما يكتب على دواة فولاذ :
كنانة الفضل دواتي ولها . . . سهمٌ يراعي نصله نفَّاذُوأسمر الخط لديها قاصرٌ . . . لأنّها على الحمى فولاذ
في وصف السكين
قلت ويتعين بعد صف أقلام المنشئين والدواة وصف السكين فإنهم أنشأوا في وصف السيف والقلم وما ألموا بها وهي أحق بذلك من غيرها لقربها من القلم وقد تقدم أن أبا طاهر كمال الدين إسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهاني إنفرد برسالة القوس ، والشيخ جمال الدين بن نباته إنفرد برسالة السيف والقلم ، وقد انفردت برسالة السكين .
وهي يقبل الأرض التي قامت حدود مكارمها ، وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها ، وينهى وصول السكين التي قطع بها أوصال الجفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفا ، وتالله ما غابت إلا بلغت الأقلام من تعثرها إلى الحفا ، زرقاء وكم شاهدت منها البيض ألواناً خرساء ، ومن العجائب أن لها لساناً لكل عنوان ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب ، وذل بعد ما خضعت له الرؤوس والرقاب ، كم أيقظت طرف القلم بعدما خط ، وعلى الحقيقة ما رؤي مثلها قط ، وكم وجد بها الصاحب في المضايق نفعا ، وحكم بصدق محبتها قطعا ، ماضية العزم قاطعة السن فيها حدة الشباب من وجهين ، لأنها بالناب والنصاب معلمة من الطرفين ، أنملة صبح تقمصت بسواد الدجى ، ولسان برق إمتد في لهوات الليل ،

فتنكرت أشعةالأنجم حتى ما عرفت منها سهيل ، هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربها الخد ، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد :

من أجلنا تدخل في مضايقٍ . . . ليس لسيفٍ قطُّ فيها مدخل

وكلّما تفعله توجزه . . . والرمح في تعقيده يطول إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف ، وكم لها من خاصة جازت بها الحد إلى السيف ، تنسي حلاوة العسال فلا يظهر لطوله طائل ، وتغني عن آلة الحرب بايقاع ضربها الداخل ، إن مرت بشكلها المحلى تركت المعادن عاطلة ، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادله ، شهد الرمح بعدالته إنها أقرب للصواب ، وحكم بصحة ذلك قبل أن يتكامل لها النصاب ، ما طال في رأس القلم شعرة إلا سرَّحتها بإحسان ، ولا طالعت كتاباً إلا أزالت غلطه بالكشط من رأس اللسان ، تعقد عليها الخناصر لأنها عدّة وعده ، وتالله ما وقعت في قبضة إلا أطالت لسانها وكلمت بحدَّه ، إن أدخلت إلى القراب كانت قد سبقت على الدخول ، أو أبرزت من غيمة كان على طلعتها الهلالية قبول ، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وباقامتها الحد حافظت الاقلام مواظبة الخمس ، وكم لها من عجائب تركت جدول السيف وهو في بحر غمده غريق ، ولو سمع بها من قبل ضربه ما حمل التطريق ، فلو عاصرها الكمال لعرك من قوسه الأذنين ، وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين ، فإن جذبت إلى مقاومتها كانت لك يد تمتد ، وصلت السكين منك العظم وصار عليك قطع وانتهى أمركإلى ذا الحد ، وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم ، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ولو لمحها الفاضل تحقق قوله إنّ خاطر سكينه كلّ ، أو أدركها ابن نباتة ما أقر برسالة السيف وفل ، وقال لقلم رسالته أطلق لسانك بشكر مواليك ، وأخلص الطاعة لباريك ، ولم يقصد المملوك الإيجاز في رسالة السكين ونظمها ؛ إلا لتكون مختصرة لحجمها ، لا زالت صدقات مهديها تتحف بما يذبح نحر فقري ، وتأتي في كل وقت بما يبرىء من داء الاحتياج ويبري

وفي وصف السيف

، قلت وعلى ما وقع من الغريب في رسالة السكين يتعيَّن أن نورد ما وقع من غريب النظم في السيف فإن الشيخ جمال الدين ابن نباتة ذكر من نثره في رسالة السيف بدائع ولكنها مشهورة لتنقيب الناس عنها والاقتباس منها .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن معد يكرب كيف تقول في الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف قال فالمجن قال : هو المجن وعليه تدور الدوائر قال فالنبل قال منه ما يخطىء وما يصيب قال فما تقول في الدرع قال مثقلة للراجل مشغلة للفارس وأنها حصن حصين قال فما تقول في السيف قال هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلاه عمر بالدرة وقال : لم تقل لا أم لك ، قال : الحمى أصرعتني يا أمير المؤمنين :الشريف البياضي :

إنّا إذا الأرواح ذابت مخافةً . . . فنحنا باشطان الرماح ركابها

متى ما أردنا أني ذاق حديدنا . . . خلقنا بحدّ المشرفيّة فاهها

وقال أبو العلاء المعري :

غراراه لساناً مشرفيٍّ . . . يقول غرائب الموت ارتجالا
وديَّث فوقه حمر المنايا . . . ولكن بعدما مسخت نمالا
يذيب الرعب منه كلّ عضبٍ . . . فلولا الغمد يملكه لسالا
وقال النامي :
ذو مدمعٍ من غير ما مستعير . . . وتبسّمٍ من ثغره متوالي
يريك من لألآئه متوقّداً . . . حنق المنون به على الآجال
وقال الغنوي :
كأنّ على إفرنده موج لجّةٍ . . . تقاطر في حافاته وتجولُ
حسامٌ غذاء الروح حتى كأنّه . . . من الله في قبض النفوس رسول
وقال وحيد الدين بن الذروري :
فتقتُ بأجساد الأسود لواحظاً . . . رنت للمنايا عن عيون الثعالب
وأنطقت أفواهاً إلى قمم العدا . . . بألسنة البيض الرقاق المضارب
بحيث الوغى روضٌ تغنّى ذبابه . . . وسال على نور الطلا كالمذاب
وقد رشفت ورد الكلوم صغاره . . . وما شربت إلاّ دماء الثرائب
وله :سكران من شربه خمر الدماء فإن . . . حيّاه نور الطلا غنىّ لها هزجا
لسان الدين بن الخطيب :
وخليج هندٍ راق حسن صفائه . . . حتى يكاد يعوم فيه الصيقل
غرقت بصفحته النمال وأوشكت . . . تبغي النجاة فأوثقتها الأرجل
فالصرحُ منه مُمرَّدٌ والصفح منه . . . مورّدٌ والشطُّ منه مهدّل
القاضي الفاضل :
ولربَّ هاتفةٍ دعتهم للوغى . . . جعلوا صليل المرهفات صداها
هي في بحار يديه أمواجٌ ترى . . . ونفوسهم من قتله غرقاها وقال ابن قلاقس وأجاد :
أسهرتهم وشعرتها فجموعهم . . . مذ أحرمت في راحتيك حرامُ
وكلاهما جفنٌ منعت قراره . . . لكنَّ ذا عضبٌ وذاك سنام
وقال ابن سناء الملك :
له منصل لا ينقضي فرض حجّه . . . فبالضرب لبّى حين بالنسك أحرما
تنسَّك بالإسلام لكنْ رأيته . . . يحلّ له في الشرع أن يشرب الدما
فكم سلّ لما سُلّ من بطن غمده . . . لسان دمٍ من ضربةٍ خلقت فما
مجير الدين بن تميم :
لما قنيت من الصوارم أعوجاً . . . يجري القضاء بنهره المتوّججبت القفار وما حملت أوانياً . . . للماء من ثقتي بنهر الأعوج

وقال الغزي :

وقد سلب الطعن الأسنّة لونها . . . فعصفر في اللبّات ما كان أزرقا

وأسيافنا في السابغات كأنّها . . . جداول تجري بين زهرٍ تفتّقا

ابن خفاجة :

موسّدٌ تحت ظل السيف تحسبه . . . مستلقياً فوق شاطىء جدولٍ ثملا

جمال الدين بن نباتة :

وصارمٍ كعباب الموج ملتطمٍ . . . يكاد يغرق رائيه ويحترقُ

لما غدا جدولاً يُسقى المنون به . . . أضحى يشفُّ على حافاته العلق

برهان الدين القيراطي :

قومٌ مناديلهم بيضٌ فكم مسحت . . . رقاب اعدائهم تلك المناديلُ

وقلت :

وسيفٍ له في الحرب حسن تغزّلٍ . . . إذا ما رآني قد علوت على نهد

فكم خدَّ فوق صدرٍ مدرّعٍ . . . فبان إحمرار الورد في ذلك الخدِّ

وكم مال قدٌّ في الوغى ميل معجبٍ . . . فقابله ذاك المهنّد بالقدِّ

وكم أعجموا ألفاظهم ساعة اللقا . . . فكلّمهُمُ ذاك المهنّد بالهنديفي وصف الرماح

وقلت وقد وجب أن نذكر هنا ما وقع بع السيف من غريب النظم في الرمح .

ذكر القاضي الرشيدي ابن الزبير في كتابه العجائب والطرف أنه كان في خزانة السلاح أيام السفّاح خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف وثلاثون ألف جوشن ومائتا ألف رمح .

وقال الفضل بن الربيع لما ولي الأمين الخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرني أن أحضر ما في خزانة السلاح فكان من السيوف المحلاة بالذهب عشرة آلاف وخمسون ألف سيف للشاكرية والغلمان ومائة وخمسون ألف رمح ومائة ألف قوس وألف جوشن ومائة ألف وخمسون ألف ترس وأربعة آلاف سرج محلاة بالذهب وثلاثون ألف عامة انتهى .

قلت يعجبني قول القاضي في بيت من قصيدة ؟

أمتصل الرمح الطويل بكوكبٍ . . . من ذا يطاعن والسِّماك سنانُ

ومثله في الحسن قول ابن سناء الملك :

ملوكٌ يحوزون الغنائم عنوةً . . . بسمر العوالي أو بيض القواضبرماح بأيديهم طوالٌ كأنّما . . . أرادوا بها تنقيب درِّ الكواكب

ابن قلاقس وأجاد :

وقد كَحَلتْ بأميال العوالي . . . أساةُ الحرب أحداق الدروع

وشبّ البلس نيران المواضي . . . واسبل غيث أمواه النجيع

فللفرسان من محلٍ ووحل . . . حديثٌ عن مصيفٍ أو ربيع

ويعجبني أيضا قول القاضي الفاضل من قصيدة :

فيا عجباً للملك قرّ قراره . . . بمختلفاتٍ من قتال السواحر

طواعن أسرارِ القلوب نواظرٌ . . . كأنك قد نصّلتها بنواظر

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وأجاد :

وبكل أزرق إن شكت ألحاظه . . . مرة العيون فبالعجاجة تكحلُ

متاوِّدٌ أعطافه في نشوةٍ . . . مما يعلُّ من الدماء وينهل

عجباً له أنّ النجيع بطرفه . . . رمدٌ ولا يخفى عليه مقتل

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين بن الآمدي :

غصونٌ بها طير النفوس تنافرت . . . وعهديَ أنّ الطير للغصن يألفُ

فلا وَرَقٌ إلاّ من التبر حولها . . . ولا زَهَرٌ إلاّ من النصر يقطف

ابن نباتة السعدي :

وولّوا عليها يقدمون رماحنا . . . وتقدمها أعناقهم والمناكبُ

خلقنا بأطراف القنا لظهورهم . . . عيوناً لها وقع السيوف حواجبقلت رسم كافل المملكة الشريقة الشامية وهو المقر المرحومي العلائي تغمده الله برحمته ورضوانه للفضلاء بدمشق المحروسة وغيرهم من الفضلاء بالبلاد الشامية أن ينظموا أبياتاً تكتب على أسنّة الرماح وتكون عدة الأبيات أربعة .

فنظم المقر المرحومي الفتحي بن الشهيد قوله :

إذا الغبار علا في الجوّ عاثره . . . فأظلم الجوّ ما للشمس أنوارُ

هذا سناني نجمٌ يستضاء به . . . كأنّه علم في رأسه نار

والسيف إن نام ملء الجفن في غلقٍ . . . فإنّني بارزٌ للحرب خطّار

إنّ الرماح لأغصانٌ وليس لها . . . سوى النجومِ على العيدان أزهار

ونظم الرئيس شمس الدين بن المزين :

أنا أسمرٌ والراية البيضاء لي . . . لا للسيوف وسل من الشجعان

لم يحلُ بي عيش العداة لأنني . . . نوديت يوم الجمع بالمرّان

وإذا تفاهمت الكماة بجحفلٍ . . . كلّمتهم فيه بكلِّ لسان

فتخالهم غنماً تساق إلى الردى . . . قهر المعظم سطوة الجوبان

ونظم المقر المرحومي وهو إذ ذاك كاتب السر بحمص المحروسة :

عروسُ سناني حين تُجلى على العدا . . . وتظهر تبدي ما لهم من بواطنِ

وقد صيغ من همٍّ فبين صدورهم . . . مجالٌ له رحبٌ فسيح المواطن

سيلقون يوم الجمع غبناً لموتهم . . . بطعني ويوم الجمع يوم التغابن

وإن شهدوا بالجور فّي وعدّلوا . . . فإنِّيَ قد بيّنت فيهم مطاعني

ونظم قاضي القضاة صدر الدين ابن الآمدي سامحه الله :النصرُ مقرونٌ بضرب أسنَّةٍ . . . لمعانها كوميض

برقٍ يشرقُ
سبكت لتسبك كلَّ خصمٍ ماردٍ . . . وتطرّقتْ لمعاندٍ يتطرّقُ
زرقٌ تفوق البيض في الهيجا إذا . . . يحمرُّ من دمه العدوّ الأزرق
ينسخن بوم الحرب كلِّ كتيبةٍ . . . تحت الغبار فنسخُهُنَّ محقَّق
وقلت :
أنا رمحٌ ورمح الأفق يخشى . . . من سموّي إليه يوم الطعان
وإذا أنكروا عدالة قدّي . . . يوم حكمٍ جرحتهم بلساني
وسناني كالبرق بل صار منه . . . قلب سيف البروق في خفقان
رمحه للرّدين ينسب لكنْ . . . صاح لما علاه ذا بالسنان
مجير الدين بن تميم :
لو كنت تشهدني وقد حمي الوغا . . . في موقفٍ ما الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدي . . . تجري دماً من تحت جنح القسطل
ابن شرف القيرواني :
وقد وخطت أرماحهم مفرق الدُّجى . . . فبان بأطراف الأسنّة شائبا
ذكر الثعالبي في لطائف المعارف أن أول من عمل السنان من حديد ديرون الحميري وإليه تنسب الرماح اليزنية وإنما كانت أسنة العرب من صياصي البقر .في وصف القوس
قلت لم يبق بعد السيف والرمح غير اقوس لو أن رسالة القوس مشتملة بكاملها على إصابة الغرض لأثبتها هنا ولكن جمع في نظم عقدها بين الجوهر والعرض وبراعة استهلالها غاية لا تدرك .
وهي ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً إنّا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا .
ومن غاياتها بعد ذلك قوله منها صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم .
وممن أصاب الغرض بالغازه في القوس الشهاب الأعزازي بقوله :
ما عجوزٌ كبيرةٌ بلغت عمراً . . . طويلاً وتتّقيها الرجالُ
قد علا جسمها صفارٌ ولم تشك . . . سقاماً ولا عراها هزال
ولها في البنين سهمٌ وقسمٌ . . . وبنوها كبارُ قدرٍ نِبَال
صفي الدين الحلى ملغزاً فيه :
وما اسمٌ سراه في البروج وإنّما . . . يحلُّ به المريخ دون الكواكب
إذا قدَّر الباري عليه مصيبةً . . . عدته وحلت في صدور الكتائب
الشيخ بدر الدين بن الصاحب :
لله مملوكٌ إذا . . . ما قام في الشغل اعترضْ

لكنّه في ساعةٍ . . . محصِّلٌ لك الغرضومن الغايات التي لا تدرك لغز قاضي القضاة صدر الدين ابن الآدمي رحمه الله تعالى في الستوران ما رفق :

ما رفيقٌ وصاحبٌ لك تلقاه . . . معيناً على بلوغ المرامِ

هو للعين واضحٌ وجليٌّ . . . وتراه في غاية الإبهام

قلت ومن نظمي في القوس :

قوسي إذا جذبته يطربني . . . بجسٍّ عوده وتحريك الوترْ

ونجم ذاك السهم إن فوَّقته . . . يرى له في طارة البدر أثر

الشيخ جمال الدين ابن نباته :

فديتك أيُّها الرامي بقوسٍ . . . ولحظٍ يا ضنى قلبي عليه

لقوسك نحو حاجبك انجذابٌ . . . وشبه الشيء منجذبٌ إليه

قلت لم يبق بعد وصف آلة الحرب وصف غير الخيل المسوّمة التي لا بد لفحول كتاب الإنشاء من الجولان في ميدان وصفها ومجرى السوابق الذي جمعته في هذا الباب قد تقدم في الجزء الأول من بلوغ المراد ولكن إذا كنت منشيء دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة يتعين عليَّ أن أورد هنا لكتاب الإنشاء من فقه هذا الفن ما يحتاجون إلى معرفته .السجع

قلت السجع مأخوذ من سجع الحمام واختلف فيه هل يقال في فواصل القرآن أسجاع أم لا فمنهم من منعه ومنهم من أجازه والذي منع تمسك بقوله تعالى كتاب فصلت آياته فقال قد سماه فواصل فليس لنا أن نتجاوز ذلك والسجع ينقسم إلى أربعة أقسام المرصع والمطرف والمتوازي والمشطر .

فالمرصع عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها وهو مأخوذ من مقابلة العقد في ترصيعه ومن أمثلته الشريفة في الكتاب العزيز إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ومثله قوله تعالى إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ومنه قول الحريري في المقامات يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه .

والمطرَّف هو أن يأتي المتكلم في آخر كلامه أو في بعضه بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع روى القافية كقوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً .وكقولهم جنابه محط الرحال ومخيم الآمال .

ومن أمثلته الشعرية قول أبي تمام :

تحلَّى به رشدي وأثرتْ به يدي . . . وفاض به ثمدي وأورى به زندي

الثالث المتوازي وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي كقوله تعالى فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكاً تلفا .

ومنه قول الحريري في المقامات : وأودى بي الناطق والصامت ورثى لي الحاسد والشامات انتهى .

القسم الرابع السجع المشطر وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الآخر

ولكن هذا القسم مختص بالنظم كقول أبي تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم رحمهما الله تعالى :

تدبير معتصمٍ بالله منتقمٍ . . . لله مرتقبٍ في الله مرتغبِفصل في الكلام على الفقرات

قلت وقالت علماء هذا الفن إن قصر الفقرات في الإنشاء يدل على قوة المنشيء وأقل ما تكون من كلمتين كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب العزيز لكن الزائد على ذلك هو الأكثر .

وكان بديع الزمان يكثر من ذلك كقوله : كميت نهدٌ كأنّ راكبه في مهد يلطم الأرض بزبر وينزل من السماء بخبر لكن قالوا التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر لتشوقه إلى ما يرد منه متزايداً على سمعه انتهى .

وأما الفقر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى بقدر غير كثير لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوي القرينتين الأوليتين وزيادة الثالثة عليهما وإن زادت الثانية على الأولى يسيراً والثالثة على الثانية فلا بأس ولكن لا يكون أكثر من المثل مثاله في القرينتين قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إذا تكاد السموات ينفطرون منه تنشق الأرض وتخر الجبال هذا فالثانية أطول من الأولى .

ومثاله في الثالثة قوله تعالى وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا .عود إلى السجع

ومن فوائد الإنشاء أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها في المعنى لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى لم يحسن كقول الصاحب بن عباد في وصف منهزمين طاروا واقين بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم فالظهور بمعنى الأصلاب والصدور بمعنى النحور .

ومنه قول الصابيء يسافر رأيه وهو دان لا يبرح ويسير وهو باق لا ينزح فلا يبرح ، فلا يبرح ولا ينزح بمعنى واحد ويسافر ويسير كذلك .

ومن فوائد الإنشاء التي يتسع فيها المجال على المنشيء أن السجع مبني على الوقف وكلمات الإسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الإعجاز موقوفاً عليها لأن الغرض أن يجانس المنشيء بين القرائن ويزاوج ولا يتم له ذلك إلا بالوقف إذا لو ظهر الأعراب لفات ذلك الغرض وضاق المجال على قاصده فإن قافية السجعة ، إذا كانت في محل نصب وأختها في محل رفع ساوى بينهما السكون وصار الإعراب مستتراً فلو أثبتوا الإعراب في قول من قال ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منوَّنة فيفوت غرض المنشيء .

ومن ذلك أن السجع مبني على التغيير فيجوز أن يغير لفظ القافية الفاصلة لتوافق أختها فيجوز فيها حالة ازدواج ما لا يجوز فيها حالة الإنفراد .فمن ذلك الإمالة فقد يكون في الفواصل ما هو من ذوات الياء وما هو من ذوات الواو فتمال التي هي من ذوات الواو وتكتب الياء حملاً عن ما هو من ذوات الياء لأجل الموافقة كقوله تعالى والضحى فالضحى أميلت وكتبت بالياء حملا على ما في السورة الشريفة من ذوات الياء لأجل الموافقة .

وكذلك سورة والشمس وضحاها أميلت فيها ذوات الواو وكتب بالياء حملا على ما فيها من ذوات الياء .
ومن حذف المفعول نحو قوله تعالى : ما ودعك ربك وما قلى الأصل وما قلاك ولكن حذفت الكاف لتوافق الفواصل .
ومن ذلك صرف ما لا ينصرف كقوله تعالى قواريراً وصرفه بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الشريفة ولو تتبع المتأمل ذلك في الكتاب العزيز لوجده كثيراً .
ومما جاء في ذلك في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم أعيذه من الهامة والسامة ومن كل عين لامة الأصل عين ملمة .
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم مأزورات غير مأجورات الأصل موزورات بالواو لأنه من الوزر ولكن همز ليوافق مأجورات .ومنه قوله صلى الله عليه وسلم دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم الأصل ما وأدعوكم ولكن حذفت الألف لتحصل الموافقة .
قلت وهذا نوع من المشاكلة لأن المشاكلة في اللغة هي المماثلة وهي في المصطلح ذكر الشيء بغير لفظه لموافقة القرائن ومشاكلتها كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة والأصل وجزاء سيئة عقوبة .
ومنه قوله تعالى تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك والأصل تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك لأن الحق تعالى وتقدس لا تستعمل لفظة النفس في حقه إلا أنها استعملت هنا للمماثلة والمشاكلة كما تقدم .
ومنه قوله تعالى ومكروا ومكر الله والأصل وأخذهم الله .
وفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : فإن الله لا يملُ حتى تملوا الأصل فإن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا من مسئلته فوضع لا يمل موضع لا يقطع لأجل المشاكلة وهو مما وقع فيه لفظه المشاكلة أولاً .
ومنه قول الشاعر :
قالوا اقترحْ شيئاً نجد لك طبخه . . . قلت اطبخوا لي جبّةً وقميصا
أراد خيّطوا لي جبة وقميصا وذكره بلفظ اطبخوا لوقوعه في صحبة طبخةالبلاغة والفصاحة
قلت ومن غايات الإنشاء البلاغة في المقاصد والبلاغة هي أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع إيجاز بلا اخلال وإطالة من غير املال .
والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وقيل البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ . يقال معنى بليغ ولفظ فصيح والفصاحة خاصة تقع في المفرد يقال كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة ففصاحة المفرد خلوصه من التعقيد وتنافر الحروف والفصاحة أعم من البلاغة لأن الفصاحة تكون صفة الكلمة والكلام يقال كلمة فصيحة وكلام فصيح والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام فيقال كلام بليغ ولا يقال كلمة بليغة واشتركا في وصف المتكلم بهما فيقال متكلم فصيح بليغ . فمن الإنشاء البليغ الفصيح قول عبد الحميد عند ظهور الخراسانية بشعار السواد : فاثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة وتصحوا من هذه السكرة فسينصب السيل وتمحى آية الليل .
ومثله قول أبي نصر العتبي : دبَّ الفشل في تضاعيف أحشائهم وسرى الوهن في تفاريق أعضائهم فجيوب

الأقطار عنهم مزرورة مجرورة .
ومثله قول الصابئ نزع به شيطانه وامتدت في الغيّ أشطانه .ومثله قول بديع الزمان : كتابي إلى البحر وإن لم أره فقد سمعت خبره والليث وإن لم ألقه فقد تصورت خلقه ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره .
ومثله قول القاضي الفاضل ووافينا قلعة نجم وهي نجم في سحاب وعقاب في عقاب وهامة له الغمام عمامه وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال له قلامه .
قلت ويعجبني في هذا الباب من انشاء الشهاب محمود قوله في وصف مقدم سرية : كَشْفُ الأزار في مقاصده أخف من وطأة ضيف ، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف ، وفي تنقله أسرع من سحابة صيف وأروع للعدا من سلَّة سيف .
ومثله في الحسن قوله في صدر مثال شريف سلطاني : أصدرناها والسيوف قد أنفت من الغمود ونفرت من قِرَبها ، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب وتشوقت إلى الإرتواء من قلبها ، والحماة ما منهم إلاّ من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه والأبطال ليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه .
ومثله في الحسن ما كتبت به جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله ثراه إلى قرا يوسف ملك العراق يتضمن خطاب الإيناس نظير ما خطب في مكاتبته .
فمن الجواب قولي :وهذه ألفة خولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا ، وقد تعين على المقران يقول أنا يوسف وهذا قد من الله علينا ، وقد سرتنا الإشارة الكريمة بالتمكن من أرض العدا ومطابقة الطول بالعرض وهذا الأسم قد شملته العناية قديما بقوله تعالى : وكذلك مكنا ليوسف في الأرض وأما قرا عثمان فقل سيوفنا ما غمضت عنه في أجفانها ، وأنامل أسنتنا ما ذكرت توبته إلا شرعت في جس عيدانها ، وجوارح سهامنا من برحت تنفض ريش أجنحتها للطيران إليه ، وإن كان معنى سافلاً فلا بد لأجل المقرّ أن نخيم عليه ، وينزل سلطان قهرنا بأرضه ويغرس فيها عيدان المران ، وإن كانت من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يهمل إلا لإشغال الدولتين بالدخول في تطهير الأرض من الخارج وإيقاع الضرب الداخل من جس العيدان في كل خارج ، ويدهمه من ابن أبي النصر أبناء حرب شرف في أنساب الوقائع جدُّهم ، ورد الجموع الصحيحة إلى لتكسير فردهم ، وإذا كثرت الخدود وتوردت بالدماء عذرت بورق الحديد الأخضر مردهم ، إذا امتدوا إلى آمد تلا لهم حصنها في سورة الفتح قبل القتال ، فإنهم مريدون ولهم شيخ منحه الله بكثرة الفتوح والإقبال ، وإذا صرفوا الهمم المؤيدية لم تكن حصونهم عند ذلك الصرف مانعة ، ولم يسمع لسكانها مجادلة إذا صدموا بالحديد وتلت حصونهم في الواقعة ، وما خفي عن كريم علمه ما جمعه الناصر من الجموع التي فرقها الله أيدي سبأ ، وكم سئل سائل وقد رآهم في النازعات عن ذلك العصر بالنبأ ،وقد أشار منشيء دولتنا الشريفة إلى ذلك في قصيد كامل بحره والقصد هنا من أبيات ذلك القصيد قوله :

يا حامي الحرمين والأقصى ومن . . . لولاه لم يسمر بمكة سامِرُ
والله إنَّ الله نحوك ناظرٌ . . . هذا وما في العالمين مناظر
زحف على المخون نظّم عسكراً . . . وأطاعه في النظم بحرٌ وافر
فانبتّ منه زحافه في وقعةٍ . . . يا من بأحوال الوقائع شاعر

وجميع هاتيك البغاة بأسرهم . . . دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفةً . . . فكأنّ هاتيك السروج مقابر وما خفي عن علمه الكريم أمر الذين نقضوا بيعتنا واشتروا الضلالة بالهدى ، ودعوا سيوفهم الصقيلة لما حاق بهم المكر السيىء فأجابهم الصدى ، ولم يكن في حرارة عزمنا الشريف عند عصيانهم البارد فترة ، حتى أظهرنا بألوان الشام من دمائهم على تدبيج الدروع ألوان البصرة ، وأخذوا سريعاً بشان حرب ما شابت عوارضهم إلا بغبار الوقائع ، وحكم برشدهم ولم يخرجوا من تحت حجر المعامع ، وقد اسبغ الله ظلال الملك وخيم به على الدولتين ، ولم يظهر لحراب بهجة إلا بهاتين القبلتين ، ولو صلت السيوف لغيرهما ما قبلت ، أو صرفت العوامل إلى غير نحوهما ما علمت ، فقد فهمنا كريم الالتفات إلى أن تدار كؤوس الإنشاء بيننا ممزوجة بصافي المودة ، وعلمنا أنها أحكام صحيحة في شرع الأخوة ولهذه الأحكام عندنا عملة ، وقد سابق القصد اليوسفي بسهام مراده إلى الغرض ، وقضى حاجة في نفس يعقوب المحبة ليس عنها عوض ، ولم يبق إلا اتصال شمل الأوصال بكل رسالة سطورها في رقاع الأخوة محققة ،وتصديق ما يقصده في كريم جوابه فإن القصة اليوسفية ما برحت مصدقة ، والله تعالى يمتع الأبصار والأسماع بمشاهدة أمثلته وطيب أخباره ، ويفكهنا من بين أوراقها بشهيِّ ثماره ، إن شاء الله تعالى انتهى ما دنت قطوفه من ثمرات الأوراق ، وحلا في الأذواق السليمة وراق .ذيل ثمرات الأوراقبسم الله الرحمن الرحيم

الرشيد وغادر جارية الهادي

يحكى أن هارون الرشيد حج ماشيا وإن سبب ذلك أن أخاه موسى الهادي كانت له جارية تسمى غادر وكانت أحظى الناس عنده وكانت من أحسن النساء وجهاً وغناء فغنت يوما وهو مع جلسائه على الشراب إذ عرض له سهو وفكر وتغير لونه وقطع الشراب فقال الجلساء ما شأنك يا أمير المؤمنين قال قد وقع في قلبي إن جاريتي غادر يتزجها أخي هارون بعدي فقالوا يطيل الله بقاء أمير المؤمنين وكلنا فداؤه فقال ما يزيل هذا ما في نفسي وأمر بإحضار هارون وعرفه ما خطر بباله فاستعطفه وتكلم بما ينبغي أن يتكلم به في تطييب نفسه فلم يقنع بذلك وقال لابد أن تحلف لي قال أفعل وحلف له بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحجٍّ وصدقة وأشياء مؤكدة فسكن ثم قام فدخل على الجارية فأحلفها بمثل ذلك ولم يلبث إلا شهراً ثم مات فلما أفضت الخلافة إلى هارون أرسل إلى الجارية يخطبها فقالت يا سيدي كيف وبما أيمانك فقال أحلف بكل شيء حلفت به من الصدقةوالعتق وغيرهما إلا تزوجتك فتزوجها وحجَّ ماشياً ليمينه وشغف بها أكثر من أخيه حتى كانت تنام فيضجع رأسها في حجره ولا يتحرك حتى تنتبه فبينما هي ذات ليلة نائمة غذ انتبهت فزعة فقال لها مالك قالت رأيت أخاك في المنام الساعة وهو يقول :

أخلفتِ وعدك بعدما . . . جاورتُ سكان المقابرْ
ونسيتني وحنثت في . . . أيمانك الكذب الفواجر
فظللت في أهل البلاد . . . وعدت في الحور الغرائر
ونكحت غادرةً أخي . . . صدق الذي سمّاك غادر
لا يهنك الألف الجديد . . . ولا تدرّ عنك الدوائر

ولحقت بي قبل الصَّباح . . . وصرتِ حيث غدوت صائر

والله يا أمير المؤمنين فكأنها مكتوبة في قلبي ما نسيت منها كلمة فقال الرشيد هذه أضغاث أحلام فقالت كلا والله ما أملك نفسي وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة .

رؤيا

وحكى ابن أبي حجلة في كتابه سلوك السنن إلى وصف السكن أخبرني شمس الدين محمد بن فراج الحسيني أخبرنا شيخنا أثير الدين أبو حيان أنبأنا فتح الدين بن الدمياطية قالرأيت في النام شيخاً حسن الصورة والمشية وعليه مزدوجة وكأنا نمشي في طريق وأنا راكب دابة فقلت له راقني فقال ليس الماشي برفيق الراكب فقلت إركب أنت وأمشي أنا فقال المسئلة بحالها ثم أفضنا في الحديث فسألني ما صنعتك فقلت كاتب فقال كاتب إحسان أو كاتب إنشاء فقلت شيء من هذا وشيء من هذا فقال ما يدَّعي دعواك عبد الرحيم ولا عبد الحميد ثم قال هل تنظم الشعر قلت نعم قال أنشدني وكنت قد عملت قصيداً حجازياً وكنت أستجيده فأنشدته إلى أن بلغت قولي :

تركوا بماء النيل ماءً سلسلاً . . . وترشّفوا ماء الثمار مكدّرا فقال لي لا شيء فقلت لم قلت ذلك وما عيب هذا البيت فقال لو قلت صافياً لكان حسناً وكان طباقا لأن الكدر يقابله الصافي قلت له هذا حسن فمن أنت يرحمك الله قال أبو مرة قلت لا خير ولا مير قال بك ثم بعد ذلك بشهر رأيته في المنام على الهيئة المتقدمة فسلم عليَّ سلام من يعرفني ثم قال هل تعرف من الشعر الميشوم شيئاً قلت نعم قال فأنشدني وكنت قد عملت قطعة شعر حال ضعفي بالنزلة فأنشدته إياها :

لله ما أشكوه من نزلةٍ . . . قد ضرَّ منها ضيق أنفاسي

ومن صداعس ضقت ذرعاً به . . . باتت يدي منه على راسي

فقال هذا والله الشعر ثم قال : أضف إليهما :فأعجب إلى دائين قد عزّزا . . . بثالثٍ من داء إقلاس يجود بكفنه

وحكي في مرآة الزمان وغيرها من ترجمة شمس الدين توران شاه بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين قال محمد بن علي الحكيم الأديب رأيت شمس الدولة بعد موته فمدحته بأبيات فلفّ كفنه ورمى به إلي وقال :

لا تستقلنَّ معروفاً سمحت به . . . ميتاً فأمسيت منه عاري بذليَ

ولا تظنّن جوداً شانه بخلٌ . . . من بعد بذليَ ملك الشام واليمن

إني خرجت من الدنيا وليس معي . . . من كلّ ما ملكت كفّي سوى الكفن

مداس أبي القاسم

حكي أنه كان ببغداد شخص يعرف بأبي القاسم الطنبوري صاحب نوادر وحكايات وله مداس له مدة سنين كلما انقطع منه موضع جعل عليه رقعة إلى أن صار في غاية الثقل وصار يضرب به المثل فيقال أثقل من مداس أبي القاسم الطنبوريواتفق أنه دخل سوق الزجاج فقال له سمسار : يا أبا القاسم قد وصل تاجر من حلب ومعه زجاج مذهب قد كسد فابتعه منه وأنا ابيعه لك بعد مدة بمكسب المثل مثلين فإبتاعه بستين ديناراً ثم دخل سوق العطارين فقال سمسار آخر قد ورد تاجر نصيبين بما ورد في غاية الحسن والرخص ابتعه

منه وأنا أبيعه لك بفائدة كثيرة فإبتاعه بستين ديناراً أخرى ثم جعله في الزجاج المذهب ووضعه على رفع في صدر البيت ثم دخل الحمام بغلس فقال له بعض أصدقائه يا أبا القاسم : أشتهي أن تغير مداسك فإنه في غاية الوحاشة وأنت ذو مال فقال السمع والطاعة ولما خرج من الحمام ولبس ثيابه وجد إلى جانب مداسه مداساً جديداً فلبسه ومضى إلى بيته وكان القاضي دخل الحمام يغتسل ففقد مداسه فقال الذي لبس مداسي ما ترك عوضه شيئا فوجدوا مداس أبي القاسم فإنه معروف فكبسوا بيته فوجدوا مداس القاضي عنده فأخذ منه وضرب أبو القاسم وحبس وغرم جملة مال حتى خرج من الحبس فأخذ المداس وألقاه في الدجلة فغاص في الماء فرمى بعض الصيادين شبكة فطلع فيها المداس فقال هذا مداس أبي القاسم والظاهر أنه سقط منه فحمله إلى بيت أبي القاسم فلم يجده فرماه من الطاق إلى بيته فسقط على الرف الذي عليه الزجاج فتبدد ماء الورد وأنكسر الزجاج فلما رأى أبو القاسم ذلك لطم على وجهه وصاح وافقراه أفقرني هذا المداس ثم قام يحفر له في الليل حفرة فسمع الجيران حسَّ الحفرة فظنوا أنهنقب فشكوه إلى الوالي فأرسل إليه من اعتقله وقال له تنقب على الناس حائطهم اسجنوه ففعلوا فلم يلخج من السجن إلى أن غرم جملة مال فأخذ المداس ورماه في مستراح الخان فسد قصبة المستراح وفاض فكشف الصناع ذلك حتى وقفوا على موضع السد فوجدوا مداس أبي القاسم فحملوه إلى الوالي وحكوا له ما وقع فقال غرموه المصروف جملة فقال ما بقيت أفارق هذا المداس وغسله وجعله على السطح حتى يجف فرآه كلب ظنه رمّة فحمله وعبر به إلى سطح آخر فسقط على امرأة حامل فأرتجفت وأسقطت ولدا ذكراً فنظروا ما السبب فإذا مداس أبي القاسم فرفع إلى الحاكم فقال يجب عليه غرة فابتاع لهم علاماً وخرج وقد افتقر ولم يبق معه شيء فأخذ المداس وجاء به إلى القاضي وحكى له جميع ما اتفق له فيه وقال أشتهي أن يكتب مونا القاضي بيني وبين هذا المداس مبارأة بأنه ليس مني ولست منه وإني بريء منه ومهما فعله يؤاخذ به ويلزمه فقد أفقرني فضحك القاضي ووصله بشيء ومضى

قصيدة ليزيد بن معاوية

وانتهى .

هذه قصيدة ليزيد بن معاوية وهي عزيزة الوجود :

وسربٍ كعين الديك ميلٍ إلى الصبا . . . رواتعُ الحاديَ سود المدامعسمعن غناءً بعد ما عنَّ نومةً . . . من الليل يمللهنّ فوق المضاجع أيا دهر هل شرخ الشبيبة راجعٌ . . . مع الخفرات البيض أو غير راجع

قنعت بزورٍ من خيال بعثته . . . وكنت بوصلٍ منهُمُ غيرُ قانع

إذا رمت من ليلى على البعد نظرةً . . . لتطفي جوىً بين الحشا والأضالع

تقول رجال الحيِّ تطمع أن ترى . . . لليلى وصالاً من بداء المطامع

وكيف ترى ليلى بعينٍ ترى بها . . . سواها وما طهّرتها بالمدامع

أجلُّك يا ليلى عن العين إنّما . . . أراك بقلبٍ خاضعٍ لك خاشع

وما سرّ ليلى ما حييت بذائعٍ . . . وما عهد ليلى أن تناءت بضائع

عاتكة بنت يزيد

ومن غريب ما يحكى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والدة يزيد بن عبد الملك بن مروان حرمت على اثني عشر من الخلفاء من بني أمية معاوية جدها ويزيد أبوها ومروان أبو زوجها والوليد وسليمان وهشام بنو عبد الملك أولاد زوجها والوليد بن يزيد بن ابنها ويزيد بن الوليد بن زوجها وابراهيم بن مروان بن الوليد بن زوجها أيضاً ويزيد من عبد الملك ابنها ومعاوية بن يزيد بن معاوية أخوها وزوجها عبد الملك بن مروان ولم يتفق ذلك لامرأة غيرها .وصف الأهرام

وجد بخط قاضي القضاة . شهاب الدين أحمد بن حجر حافظ العصر قال وجد بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن أبي حجلة التلمساني قال أنشدني القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري لنفسه في الأهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة وأجاد :

أمباني الأهرام كم من واعظٍ . . . صدع القلوب ولم يفُهْ بلسانه
أذْكَرْنَني قولاً تقادم عهدُهُ . . . أين الذي الهرمان من بنيانه
هنّ الجبال الشامخات تكاد أن . . . تمتدَّ فوقَ الأفق عن كيوانه
لو أن كسرى جالسٌ في سفحها . . . لأجلّ مجلسه على إيوانه
ثبتت على حرّ الزمان وبرده . . . مدداً ولم تأسف على حدثانه
والشمس في إحراقها والريح عن . . . د هبوبها والسيل في جريانه
هل عابدٌ قد خصّها بعبادةٍ . . . فمباني الأهرام من أوثانه
أو قائلٍ يقضي برجعة نفسه . . . من بعد فرقته إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه . . . قبراً ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصدٌ . . . يختار راصدها أعزّ مكانه
أو أنها وضعت بيوت كواكبٍ . . . أحكام فُرسِ الدَّهر أو يونانه
أو أنهم نقشوا على حيطانها . . . علماً يحار الفكر في تبيانهفي قلب رائيها ليعلم نقشها . . . فكرٌ يعضُّ عليه طرف بنانه

قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني

يحكى أن القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كان يمر على الناس ولا يسلم عليهم فلامه بعض أصحابه في ذلك فقال :

يقولون لي فيك أنقباضٌ وإنما . . . رأوا رجلاً عن موقف الذلّ أحجما
ارى الناس من واناهُمُ هان عندهم . . . ومن أكرمته عزّة النفس أُكرما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أكن . . . أقلِّب كفي إثره متندّما
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلّما . . . بدا مطمعٌ صيَرته ليَ سُلَّما
وما كلُّ برقٍ لاح لي ستفزّني . . . ولا كلُّ من في الأرض أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهلٌ قلت قد أرى . . . ولكنَّ نفس الحر تحتمل الظما
أهيتها عن بعض ما لايشينها . . . مخافة أقوال العدا فيمَ أو لِما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي . . . لأخدم من لاقيت لكنْ لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلّةً . . . إذاً فاتباع الجهل قد كان أ ؛ زما
ولو أنّصف أهل العلم صانوه صانهم . . . ولو عظّموه في النفوس لَعُظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا . . . محيّاه بالأطماع حتى تجهّماقال شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي سقى الله عهده لقد صدق هذا القائل لو عظموا العلم عظمهم قال وأنا أقرأ قوله لعظم بفتح العين فإن العلم إذا عظم تعظم وهو في نفسه عظيم ولكن أهانوه فهانوا ولكن الرواية فهان وعظم بضم العين والأحسن ما أشرت إليه .

أبو نواس يحكي اقوال الفقهاء في الشراب

قال الشيخ الإمام العالم العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي في أجوبته عن الاعتراضات التي على جمع الجوامع ومن ظريف ما يستفاد قول أبي نواس :

أباح العراقيُّ النبيذَ وشُرَبَهُ . . . وقال حرامان المدامة والسكرُ
وقال الحجازيُّ الشرابان واحدٌ . . . فحلِّت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما . . . وأشربُها لا فَارقَ الوازرَ الوزرُ

وقد سألني الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي رحمه الله عن معنى هذه الأبيات ومعناها أ ، العراقي وهو أبو حنيفة رحمه الله أباح النبيذ وحرم المدامة وهي الخمر أسكرت أم لم تسكر وحرم أيضاً المسكر من كل شيء وأن الحجازي وهو الشافعي رحمه الله قال الشرابان واحد فأخذ أبو نواس بالموجب فكأنه قال أنهما واحد ولكن في الحل لا في الحرمة وإليهالإشارة بقوله : ' فحلّ لنا من بين قوليهما الخمر ' ثم هذا إنما ذكره أبو نواس على عادة الشعراء في الكيس والظرافة ولا يقصد حقيقته فإنه لا يقول به أحد ولعله أشار بقوله ' سآخذ من قوليهما طرفيهما ' إلى آخره أنه لا يعتقده بل هو شاعر كما يقول ولا يفعل كذلك لايعتقد فهو على زعم يشربها وإن لم يعتقد الحل إذ كيف يمكن أن يقال أنه يعتقد الحل وقد قال ' لا فارق الوازر الوزر ' فهذا إن شاء الله معنى هذه الأبيات وهي على حال من كلمات الشعراء التي لايحتج بها في دين الله تعالى .

من كلام الفضل بن سهل وقد أبل من مرضه

أعتلّ ذو الرياستين الفضل بن سهل بخراسان مدة طويلة ثم أبلَّ واستقبل وجلس للناس فدخلوا إليه وهنأوه بالعافية فانصت لهم حتى انقضى كلامهم ثم أندفع فقال إن في العلل لنعما لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوها منها تمحيص الذنوب وثواب الصبر وإيقاظ من الغفلة وإذكار بالنعمة في حال الصحة واستدعاء للتوبة وحض على الصدقة ورضاء بقضاء الله وقدره فانصرف الناس بكلامه ونسوا ما قاله غيره .رؤيا عبد الله بن المبارك وحكي عن ابن المبارك أنه قال حججت إلى بيت الله الحرام فبينما أنا في الطواف إذ عييت فجلست أستريح ووضعت راسي على ركبتي فغلبني النوم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول يا ابن المبارك إذا أنت قضيت حجك وحللت عقدك ورجعت إلى أرض العراق ودخلت دار السلام فأقصد الحلة اليت بها بهرام المجوسي فإذا لقيته فأخبره أن النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم يسلم عليه وهو يقول لك أبشر فإن

قصرك في الجنة غدا من أقرب القصور إلى قصري قال عبد الله فانتبهت لذلك فزعا مرعوباً وتفكرت ساعة فغلبني النوم ثانيا فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً يقول يا ابن المبارك لا تشك في منامك فهو حق والشيطان لا يتمثل بصورتي قط فإذا قضيت حجَّك وحللت عقدك وأنصرفت إلى العراق فاطلب هذا المجوسي بهرام وبشره بما قلت لك فانتبهت أيضاً مرعوباً واستعذت بالله واستغفرته وتفكرت ساعة فغلبني النوم فنمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ثالث مرة وهو يقول يا ابن المبارك أنا محمد رسول الله فلا ترتبك في ذلك وامتثل أمري فهو حق فقلت يا رسول الله أريد بذلك علامة ألقاه بها فأخذ رسول كفي بيمينه ثم قال : يا ابن المبارك هذا المجوسي شيخ زمنٌ قد أتى عليه مائة وأربعون سنة وقد ضعف بصره وثقل سمعه وأبيض شعره ودق عظمه ويبس عصبه وجلده فإذا أتيته وسلمتعليه وبشرته بما قلت لك وطلب منك علامة فأمسح بيدك هذه التي أخذتها بيميني على رأسه ومر بها على وجهه وسائر جسده وبدنه فإنه يعود شاباً ويرجع إليه بصره وسمعه ويسود شعره ويطرى جسده ويقوى عصبه وتعود إليه قوته فانتبهت وأنا كالولهان فلما أن قضيت حجي وحللت عقدي وانصرفت إلى العراق ودخلت بغداد سألت عن دار المجوسي فقلت يا غلام استأذن لي على مولاك فقال الغلام أغريب أنت قلت أجل قال أدخل ليس هنا من يحجبك قال فدخلت إلى دار لم أرّ مثلها وإذا بكتبة ومجوس وصيارِيف قعود وهم يقبضون الرهون ويعطون الدنانير والدراهم فقلت يا قوم افيكم بهرام فقيل أدخل الدار الثانية فدخلتها فإذا ليس بينها وبين الدار الأولى نسبة بل تفاوت وإذا بشيخ قاعد على دست ومرتبة على الصفة التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الكتاب والحساب وبين أيديهم الدنانير والدراهم كالبيادر الصغار وهم في الحساب فسلمت كما أمرني النبي صلى الله عليه وسلم فرد علي السلام وكان قد شد حاجبه بعصابة فرفعها عن عينه ثم قال من الرجل قلت عبد الله بن المبارك فقال مرحباً بك لقد شممت بك رائحةً زال بها الهم عن قلبي أدنُ من فجلست إلى جانبه فقال هل لك من حاجة قلت نعم قال وما هي قلت أرى أن أخلو بك ساعة فقال نعم وأمر من هناك بالخروج فتهيأوا ثم خرجوا فبقيت أنا وهو وثلاثة شبان قلت هؤلاء أصرفهم يا بهرام كم تعد من السنين قال أعد مائة وأربعين سنة قلت فهل تعرف أنك عملت شيئاً استوجبت به من الله الجنة قال لا أدري إلا أني رزقتثلاثة بنين وثلاث بنات فزوجت بعضهم من بعض وأعطيت مهروهن من عندي وافردت لكل واحد منهم مالاً وداراً وعقارات قلت لا تستوجب الجنة بل تستوجب النار فهل عملت شيئاً صالحا لآخرتك قال قسمت ليلي ثلاثة أجزاء أما الجزء الأول فإني أقعد للمساهرة وتُقرأ عليَّ سير الأول فانفرج بذلك والجزء الثاني أعبد فيه النار وأسجد لها من دون الله الواحد القهار والجزء الثالث أفكر فيه في أمر معاشي ومعادي وأمنع نفسي عن النوم في ذلك الجزء فإن النوم فيه جهل وخمول ودماء إلا لضرورة فقلت هل لك فعل غير هذا قال لا قلت يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد فيم استحقيت يا بهرام الجنة قال ويحك يا بن المبارك أتقطع لي بالجنة وأنت عالم المسلمين من أخبرك بذلك قلت أخبرني الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم قال فما القصة فحدثته بالمنام الذي رأيته وبما قاله النبي صلى الله عليه وسلم مراراً فقال يا بن المبارك وهل لذلك علامة ظاهرة قلت نعم أدنُ مني فدنا فمسحت بيدي رأسه ووجهه وصدره وبدنه وأولاده ينظرون فصار شاباً حسناً طرياً سميعاً بصيراً وأسود شعره

وأبيضت بشرته فلما عاين ذلك قال أمدد يدك يا شيخ أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم قال يا شيخ أأخبرك السبب الذي أوجب الله لي به هذه المنزلة قلت نعم قال كنت من مدة قد أولمت وليمة عامة للمسلمين والنصارى واليهود والمجوس على خاصة فأكلوا وانصرفوا وانقضت الوليمة فلما كان في بعض الليل طرق طارق الباب وقد هدأ الناس ونام الخدم لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة وأنا جالس منتبه فقلت من بالباب فقالت يا بهرام أنا امرأةمن جيرانك فاوقد لي هذا السراج قال بهرام والمجوس لا ترى إخراج النار من بيوتهم ليلاً فتحيرت في أمري وقمت ولم أنبه أحداً فاسرجت لها السراج فانصرفت وأطفأت السراج وعادت وقالت يا بهرام قد انطفأ فاسرجه لي فلما أسرجته قالت يا بهرام والله ما جئتك لأجل سراج ولكن جئتك من أجل ثلاث بنات شممن روائح طعامك فهن ملقيات على وجوههن يتضاوون كالمرأة الثكلى أو كالحبة في المقلى فإن كان قد بقي في دارك فضل طعام فأعطني فإنك إن شاء الله تملك بذلك الجنة فقلت حباً وكرامة فأخذت منديلاً كبيراً فجعلت فيه من كل شيء كان في البيت من الحلو والحامض وأخرجت كيساً فيه ألف دينار وكيسا فيه ستة آلاف درهم وستة أثواب من ديباج وستة أثواب مروزية وشددت الجميع وقلت أحملي هذا إلى عيالك واقسمي عليهم فمدت يدها فلم تطق حمله لضعفها فقالت يا بهرام أعني أعانك الله على الوقوف بين يديه وخفف عليك الحساب في ذلك اليوم الشديد فقلت يا هذه كيف أفعل وأنا شيخ كبير وقد مضى عليَّ مائة ونيف وثلاثون سنة ثم تفكرت لحظة وطاب لذلك قلبي فقلت لها شيلي على رأسي فشالته واستقل على رأسي فسال لذلك عرقي حتى صرت في منزلها فحططت الطعام ووضعت الرزمة وجعلت ألقم البنات إلى أن شبعن ونشطن ثم قسمت عليهن الثياب والدراهم والدنانير ففرحن وتبسمن فلما أردت القيام قلن بأجمعهن يا برهام أصلح الله لك أمورك وأدام سرورك كما أصلحت أمورنا وأدمت سرورنا وفرحك يوم القيامة كما فرحتنا وختم لكبخير وأنزلك أقرب قصر من قُصُر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في دار الجنان وأنا أقول آمين وما زلت أرجو استجابة دعائهن قلت يا بهرام أبشر فإن الله حقق لك ذلك ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تحقر من المعروف شيئا ولو أنك تفرغ من دلوك في إناء أخيك ماء قال عبد الله بن المبارك فتصدق بهرام في ذلك اليوم بمائة ألف درهم وبمائة ألف دينار وبمائة ألف ثوب مروزيات وبألفي ثوب ديباج وفرق سائر أمواله على أولاده وبناته وأسلموا جميعاً وتفرق الأخوة عن الأخوات وزوج أولاده بالمسلمات وبناته بالمسلمين وأسلم في ذلك اليوم خلق كثير من المجوس ثم انفرد عن أهله ولزم المحراب يعبد الله فلم يلبث إلا قليلاً حتى توفي رحمة الله عليه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قصة معروف الكرخي مع مجوسي

روي عن سعد بن سعيد أنه قال كان في جوار معروف الكرخي رجل مجوسي من أبناء الأغنياء وجد الخليفة عليه فصادره وأخذ منه ألف ألف دينار فافتقر بعد الغنى وذل بعدالعز وكان له أعداء وحساد فقالوا للخليفة أنه قد بقي له مال جسيم فلا تظن أنه عديم فأمر بمصادرته ثانياً فلما علم المجوسي ذلك دخل بيت النار وقصد ما كان يعبد من دون الجبار وقال إن لم تخلصيني آمنت برب معروف فلم يجبه أحد ولم ينتفع بسجوده للنار ولا للنور فلما جنَّ عليه الليل اغتسل وأتى مسجد معروف الكرخي فلم يجده في المسجد

فرفع رأسه وقال يا إله إبراهيم عيسى ومحمد وإله معروف وبما من لا إله إلا هو تحققت أن ما عبدته من دونك باطل لا يضر ولاينفع وإني جئتك تائباً مما فعلت متبرئاً مما عبدت منفصلا عما اعتقدت موقنا بك شاهداً بأن لا إله إلا أنت إله الأولين والآخرين وأنت المعبود الحق تفعل ما تشاء ولا يكون إلاما تريد إنك على كل شيء قدير فأغفر لي ما تقدم من ذنبي وجهلي وإسرافي ولا تنظر إلى سوء عملي ومعصيتي واصرف شر الخليفة وأعوانه عني فقد وجهت وجهي إليك ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يا محمد تشفعت بك إلى الله فاقبلني ثم سجد وأطال سجوده وهو يناجي ربه ويبكي فأتى معروف المحراب فرآه كذلك فبقي متفكراً في أمره لا يتحقق من هو وإذا هو بغلام من خواص الخليفة قد دخل المسجد يسأل عن المجوسي بإسمه ونسبه فقال معروف بيته في موضع كذا وكذا فقال من هناك جئت وقيل لي إنه في مسجد معروف فوالله لا بأس عليه فإن الخليفة قد بعثني إليه برسالة لطيفة تسر قلبه وهو منتظره على أن يؤمنه ويرد عليه ما أخذه منه وكفى بالله شهيداًفقال معروف لست أرى في المسجد أحداً يشبه من تذكره إلا هذا الساجد لله المناجي لربع فاصبر له حتى يرفع رأسه فوقف صاحب الخليفة على رأسه ساعة ثم قال يا هذا ارفع رأسك ولا تبك أمير المؤمنين قد قضى حاجتك وبعثني برسالة لطيفة لتسير إليه حتى يرد عليك ما أخذه منك فرفع رأسه وإذا معروف واقف فقال يا معروف ما أكرم هذا الباب وما أحلم صاحبه وما أقربه إلى من دعاه ثم قال يا معروف أمدد يدك إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وإني رضيت بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولاً وأن القرآن كلام الله جاء به محمد بن عبد الله وأنا مؤمن بذلك كله ثم تبع الرسول وذهب معروف الكرخي معه فلما وصلوا إلى دار الخليفة وإذا به واقف على الباب فاستقبلهما وسلم عليهما وصافح كلا منهما ومشى معهما إلى مجلسه وأقعدهما إلى جانبه واقبل يعتذر إليهما مما وقع منه وأمر بالأموال التي أخذت من المجوسي فأحضرت بين يديه عن آخرها ثم قال له تأمل هذه الأموال أليست هي التي أخذت منك قال نعم قال فخذها بارك الله فيها واجعلني في حل ما وقع مني واستغفر الله لي فقال يغفر الله لك ثم قال يا أمير المؤمنين أما الأموال فهي لك حلال بعد أن هداني الله إلى دين الإسلام ولكن أعلمني ما الذي دعاك إلى طلبي في هذا الوقت قال نعم كنت نائماً وإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل عليَّ ومعه صف من الملائكة وصف من الصحابة فسلم علي وقال إن الله تبارك وتعالىيقرئك السلام ويقول لك إن عبدنا فلاناً المجوسي كنا قد دعوناه في الذرا فأجابنا وكان في المجوسية مستتراً ولنا معه عناية وقد جاء الآن إلّي تائباً وهو في مسجد معروف الكرخي مستجيراً بجانبنا منك فإبعث في طلبه ورد عليه ما أخذ منه ولا تقطع المعاملة بيننا فانتبهت مرعوباً فأرسلت في طلبك وها هو مالك قد رددناه عليك ودفعناه إليك فخر الرجل ساجداً لله تعالى ثم رفع رأسه وبكى وقال واندماه وأسفاه والهفاه كيف تركت عبادة الرحمن الرحيم واشتغلت بعبادة النيران وضيعت العمر والزمان ثم قال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في هذا المال خذه فهو حلال لك فقال أمير المؤمنين لا أرجع بشيء أمرني ربي بإخراجه فقال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في المال أشهد أني قد جعلته صدقة في فقراء المسلمين لا حظ لي فيه ولا لأحد من أهلي فقال الخليفة لمعروف بقي الأمر إليك فإحمل المال وتصدَّق به على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام والأرامل فدعا له معروف وأخذ بد الرجل وحمل المال على البغال وصافحهما أمير

المؤمنين وسأل الرجل أن يحالله عما وقع منه ولازم الرجل معروفاً الكرخي إلى أن مات تغمده الله برحمته .ومعن بن زائدة وبعض الشعراء

وحكي عن معن بن زائدة الشيباني إن شاعراً قصده فأقام مدة يريد الدخول إليه فلم يتهيأ له ذلك فلما أعياه ذلك قال لبعض خدمه إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخل معن البستان عرَّفه الخادم عنه فكتب الشاعر بيتا من الشعر على خشبة وألقاها في الماء الداخل إلى البستان فإتفق أن معنا كان جالساً في ذلك الوقت على رأس الماء فمرت به فأخذها فإذا فيها كتابة فقرأها وهي :

أيا جود معنٍ ناج معناً بحاجتي . . . فمالي إلى معنٍ سواك شفيعُ

فقال من صاحب هذه فدعي بالرجل فقال له كيف قلت فأنشد البيت فأمر له بمائة ألف درهم فأخذها وأخذ الأمير الخشبة فوضعها تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني قرأها ودعا بالرجل فدفع له مائة ألف درهم على العادة ثم دعاه ثالث مرة فقرأ البيت ودفع له مائة ألف درهم فلما أخذ الجائزة الثالثة خشي الشاعر أن يندم فيأخذ منه ما دفع إليه فسافر فلما كان في اليوم الرابع طلبه معن فلم يجده فقال معن حق عليَّ لو مكث لأعطينه حتى لا يبقى في بيتي درهم ولا دينار .معن بن زائدة وضيوفه من الأسرى

وحكي عنه أيضاً أنه أتى بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف فقال له بعضهم أصلح الله الأمير نحن أسراك وبنا جوع وعطش فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم فلما فرغوا قال الرجل أصلح الله الأمير كنا أسراك ونحن الآن أضيافك فأنظر ما تصنع بأضيافك قال قد عفوت عنكم فقال الرجل أيها الأمير ما ندري أي يوم أشرف يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا فأمر لهم بمال وكسوة .

معن بن زائدة ومستجير به

وحكي أن المنصور أهدر دم رجل كان يسعى في فساد دولته من الخوارج من أهل الكوفة وجعل لمن دل عليه وجاء به مائة ألف درهم ثم ظهر في بغداد فينما هو يمشي مختفياً في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأخذ بمجامع ثيابه وقال هذا بغية أمير المؤمنين فبينما الرجل على تلك الحالة إذ سمع وقع حوافر الخيل فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال يا أبا الوليد أجرني أجراك الله فوقف وقال للرجلالمتعلق به ما شأنك قال بغية أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وجعل لمن دل عليه وأتى به مائة ألف درهم فقال دعه يا غلام أنزل عن دابتك وأحمل الرجل عليها فصاح الرجل بالناس وقال أيحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين فقال له معن أذهب إليه وأخبره أنه عندي فانطلق إلى باب المنصور فأخبره فأمر المنصور بإحضار معن فلما أتى الرسول إلى معن دعا أهل بيته ومواليه وقال أعزم عليكم لا يصل إلى هذا الرجل مكروه وفيكم عين تطرف ثم سار إلى المنصور فدخل عليه وسلم عليه فلم يرد عليه السلام وقال يا معن أتتجرأ عليَّ قال نعم يا أمير المؤمنين قال ونعم أيضاً وأشتد غضبه فقال يا أمير المؤمنين مضت أيام كثيرة قد عرفتم فيها حسن بلائي في خدمتكم فما رأيتموني أهلا أن يوهب إليَّ رجل واحد استجار بي بين الناس وتوسَّم أني عند أمير المؤمنين من بعض عبيده وكذلك أنا فمر بما شئت ها أنا بين يديك فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقد سكن ما به من الغضب وقال قد أجرنا من أجرت يا معن قال فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين فيأمر له

بصدقة فيكون قد أحياه وأغناه قال قد أمرنا له بخمسين ألف درهم قال يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له الصلة قال قد أمرنا له بمائة ألف درهم قال فعجلها يا أمير المؤمنين فإن خير البر تعجيله فإنصرف معن بالمال للرجل وقال له خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله في أمورهم .

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

نادرة يرويها الجاحظ

وحكى الجاحظ قال أخبرني فتى من أصحاب الحديث قال دخلت ديراً في بعض المنازل لما ذكر لي أن به راهباً حسن المعرفة بإخبار الناس وأيامهم فسرت له لأسمع كلامه فوجدته في حجرة معتزلة بالدير وهو على أحسن هيئة في زي المسلمين فكلمته فوجدت عنده من المعرفة أكثر مما وصفوا فسألت عن سبب إسلامه فحدثني أن جارية من بنات الروم كانت في هذا الدير نصرانية كثيرة المال بارعة الجمال عديمة الشكل والمثال فأحبت غلاماً مسلماً خياطاً وكانت تبذل له مالها ونفسها والغلام يعرض عن ذلك ولا يلتفت إليها وامتنع عن المرور بالدير فلما أعيتها الحيلة فيه طلبت رجلاً ماهراً في التصوير وأعطته مائة دينار على أن يصور لها صورة الغلام في دائرة على شكله وهيئته ففعل المصور فلم تخطىء الصورة شيئاً منه غير النطق وأتى بها إلى الجارية فلما أبصرتها أغمي عليها فلما أفاقت أعطت المصور مائة دينار أخرى وأخرج الراهب لي الصورة فرأيتها فكاد أن ينزل عقلي فلما خلت الجارية بالصورة رفعتها إلى حائط حجرتها وما زالت كل يوم تأتي الصورة وتقبلها وتلثم ما تحب منها ثم تجلس بين يديها وتبكي فإذا امست فما زالت على تلك الحال شهراً فمرض الغلام ومات فعملت الجارية مأتماً وعزاء سار ذكره في الآفاق وصارت مثلاً بينالناس ثم رجعت إلى الصورة وصارت تلثمها وتقبلها إلى أن أمست فماتت إلى جانبها فلما أصبحنا دخلنا عليها لنأخذ من خاطرها فوجدناها ميتة ويدها ممدودة إلى الحائط نحو الصورة وقد كتب عليه هذه الأبيات :

يا موتُ حسبك نفسي بعد سيّدها . . . خذها إليك فقد أودت بما فيها
أسلمت وجهي إلى الرحمن مسلمةً . . . ومتُّ حبيبٍ كان يعصيها
لعلّها في جنان الخلد يجمعها . . . بمن تحبُّ غداً في البعث باريها
مات الحبيب وماتت بعده كمداً . . . محبّةٌ لم تزل تُشقي محبّيها

قال الراهب فشاع الخبر وحملها المسلمون ودفنت إلى جانب قبر الغلام فلما أصبحنا دخلنا حجرتها فرأينا تحت شعرها مكتوباً :

اصبحت في راحةٍ مما جنته يدي . . . وصرت جارة ربٍّ واحدٍ صمد
محا الإله ذنوبي كلّها وغدا . . . قلبي خليّاً من الأحزان والكمد
لما قدمت إلى الرحمن مسلمةً . . . وقلت : إنّك لم تولد ولم تلد
أثابني رحمةً منه ومغفرةً . . . وأنعماً باقياتٍ آخر الأبد

من كلام أبي القاسم الجنيد

قيل اجتمع الصوفية إلى أبي القاسم الجُنيد ، وقالوا يا أستاذ أنخرج ونسعى في طلب الرزق قال لهم إن علمتم أين هو فاطلبوه فنسأل اللهأن يرزقنا قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه قالوا فنجلس إذاً ونتوكل قال التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة .

الأئمة الفقهاء على مائدة ابن حنبل

قيل اجتمع أربعة من الأئمة الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور ومحمد بن الحكم رضي الله عنهم عند أحمد بن حنبل يتذاكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعي ثم ما زالوا يصلون في المسجد إلى أن صلوا العتمة ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعي مم تضحك يا أبا عبد الله قال خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا قال الشافعي فما سببه قال أحمد قالت لي أم عبد الله أنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض حسن الوجه عظيم الهيئة ذكي الرائحة فقال يا أحمد بن حنبل فقلنا لبيك فقال هاكم خذوا هذا فسلم إلينا زنبيلاً أبيض وعليه مندل طيب الرائحة وطبق مغطى منديل آخر وقال كلوا من رزق ربكم وأشكروا لهفقال الشافعي يا أبا عبد الله فما في الزنبيل والطبق فقال عشرون رغيفاً قد عجنت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكى من المسك ما رأى الراءون مثله وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضعه بين أيديهم فتعجبوا من شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل من ذلك الطعام ما أحتاج إلى طعام غيره مدة شهر فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان ملكاً من الملائكة قال صالح بن حنبل ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لا تحتسب رضي الله عنهم وأعاد علينا من بركاتهم .

حكاية عبد الله بن معمر مع عتبة بن الحباب الأنصاريقيل أن عبد الله بن معمر القيسي كان أميراً من أمراء العرب وكان بطلا شجاعاً جواداً ذا مروءة وافرة قال حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وصحبت مالاً كثيراً ومتجراً عزيزاً ، فلما قضيت حجي عدت لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما أنا ذات ليلة بين القبر والمنبر في الروضة إذا سمعت أنيناً عالياً وحسًّا بادياً فانصت إليه فإذا هو يقول :

أشجاك نوحُ حمائم الدرِّ . . . فأهجن منك بلابلَ الصدر

أم ذاد نومك ذكر غانيةٍ . . . أهدت إليك وساوس الفكر

في ليلةٍ نام الخليُّ بها . . . وخلفت بالأحزان والذكر

يا ليلةً طالت على دنفٍ . . . يشكو الغرام وقلّة الصبّر

أسلمت من يهوى لحرِّ جوىً . . . متوقّدٌ كتوقُّدِ الجمر

فالبدر يشهد أنّني دنفٌ . . . بجمال حبِّ مشبّه البدر

قال ثم أنقطع الصوت ولم أر من أين جاء فبهت حائراً وإذا به قد أعاد البكاء والنحيب وهو يقول :

أشجاك من ريّا خيالُ زائرٌ . . . والليل مسودُّ الذوائب عاكرُ

وأعتاد مهجتك الهوى فأبادها . . . وأهتاج مقلتك المنام البائر

ناديت ليلى والظلام كأنّهُ . . . يمٌّ تلاطم فيه موجٌ زاخر

والبدر يسري في السماء كأنّه . . . ملكٌ تبدّى والنجوم عساكر

وإذا تعرضت الثريا خلتها . . . كأساً بها حبُّ السلافة دائر
وترى يد الجوزاء ترقص في الدجا . . . رقص الحبيب علاه سكرٌ ظاهريا ليل طلت على حبيبٍ مالهإلاَّ الصباح مؤازر ومسامرفأجابني متْ حتف أنفك وأعلمنأنَّ الهوى لهو الهوان الحاضرقال عبد الله فنهضت عند ابتدائه بالأبيات أؤم الصوت فما انتهى إلى آخرها إلا وأنا عنده فرأيت غلاماً جميلاً قد نزل عذاره لكن قد علا محاسنه الإصفرار والدموع تجري على خده كالأمطار فقال نعمت ظلاما من الرجل قلت عبد الله بن معمر القيسي فقال ألك حاجة يا فتى قلت إني كنت جالساً في الروضة فما راعني في هذه الليلة إلا صوتك فبنفسي أقيك وبروحي أفديك وبمالي أواسيك ما الذي تجد قال إن كان ولابد فاجلس فجلست فقال أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري غدوت إلى مسجد الأحزاب ولم أزل فيه راكعاً ساجداً ثم اعتزلت غير بعيد فإذا نسوة يتهادين كأنهن القطا وفي وسطهن جارية بديعة الجمال في نشرها بارعة الكمال في عصرها نورها ساطع يتشعشع وطيبها عاطر يتضوَّع فوقفت عليَّ وقالت يا عتبة : ما تقول في وصل من طلب وصلك ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ولا قفوت لها أثراً فأنا حيران أنتقل من مكان إلى مكان ثم صرخ صرخة عظيمة وأكبَّ على الأرض مغشياً عليه ثم أفاق بعد ساعة وكأنما صبغت ديباجة خده بورس وأنشد يقول :
أراك بقلبي من بلادٍ بعيدةٍ . . . تُراكَمْ تروني بالقلوب على بعد
فؤادي وطرفي يأسفان عليكُمُ . . . وعندِكُمُ روحي وذكركم عندي
ولست ألذُّ العيش حتى أراكُمُ . . . ولو كنت في الفردوس أو جنّة الخلدقال فقلت يا أخي تب إلى ربك واستقل من ذنبك واتق هول المطلع وسوء المضجع فقال هيهات هيهات ما أنا مبال حتى يكون ما يكون ولم أزل به إلى طلوع الصباح فقلت له قم بنا إلى مسجد الأحزاب فلعل الله أن يكشف عنك ما بك قال أرجو ذلك ببركة طلعتك إن شاء الله فنزلنا إلى أن وردنا مسجد الأحزاب فسمعته يقول :
يا للرجال ليوم الأربعاء أما . . . يفكُّ يحدث لي بعد النهى طربا
ما إن يزال غزالٌ فيه يظلمني . . . يهوى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخمِّنُ الناس أن الأجر هَّمته . . . وما أنا طالباً للأجر مكتسبا
لو كان يبغي ثواباً ما أتى ظهراً . . . مضمَّخاً بفتيت المسك مختضبا
فجلسنا ثم حتى صلينا به الظهر فإذا النسوة أقبلن وما الجارية بينهن فلما بصرن به قلن يا عتبة وما ظنك بطالبة وصالك وكاسفة بالك قال وما لها قلن قد أخذها أبوها وأرتحل بها إلى السماوة فسالتهن عن الجارية فقلن هي ريا ابنة الغطريف السلمي فرفع الشاب رأسه إليهن وأنشد يقول :
خليليَّ ريّا قد أجدّ بكورها . . . وسار إلى أرض السماوة عيرُها
خليليَّ ما تقضي بها أمُّ مالكٍ . . . عليَّ فما يعدو عليَّ أميرها
خليليَّ إنيّ قد خشيت من البكا . . . فهل عند غيري مقلٌ أستعيرها فقلت يا عتبة طب قلبا وقر عينا فقد وردت الحجاز بمال جزيل وطرف وتحف وقماش ومتاع أريد به أهل السفر ووالله لأبذلنه أمامك وبينيديك وفيك وعليك حتى أوصلك إلى المنى وأعطيك الرضا وفوق الرضا فقم بنا إلى مجلس الأنصار فقمنا حتى

أشرفنا على ناديهم فسلمت فأحسنوا الرد ثم قلت أيها الملأ الكرام ما تقولون في عتبة وأبيه قالوا خيراً إنّه من سادات العرب قلت فإنه قد رمى بفؤاده الجوى وما أريد منكم إلا المعونة فركبنا وركب القوم حتى أشرفنا على منازل بني سليم من السماوة فقلنا أين منزل الغطريف فخرج بنفسه مبادراً فاستقبلنا استقبال الكرام وقال حييتم بالأكرام والرحب والأنعام قلنا وأنت حييت ثم حييت أتيناك أضيافاً قال نزلتم أفضل معقل ثم نادى يا معشر العبيد أنزلوا القوم وسارعوا إلى الأكرام ففرشت في الحال الأنطاع والنمارق والزرابي فنزلنا وأرحنا ثم ذبحت الذبائح ونحرت النحائر وقدمت الموائد فقلنا يا سيد القوم لسنا بذائقين لك طعاماً حتى تقضي حاجتنا وتردنا بمسرتنا قال وما حاجتكم أيها السادة قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب ابن المنذر الطيب العنصر العالي المفخر فأطرق وقال يا أخوتاه إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها وها أنا داخل إليها أخبرها ثم نهض مغضباً فدخل على ريّا وكانت كاسمها فقالت يا أبتاه إني أرى الغضب بيِّناً عليك فما الخبر قال لها ورد الأنصار يخطبونك مني قالت سادات كرام وأبطال عظام استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم فلمنالخطبة منهم قال لفتى يعرف بعتبة بن الحباب قالت بالله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد ويدرك إذا قصد ويأكل ما وجد ولا ياسف على ما فقد قال الغطريف أقسم بالله لا أزوجك به أبداً فقد نما إليَّ بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون مرداً قبيحاً فأحسن لهم الرد وأدفع بالتي هي أحسن قال يا ريَّا فأي شيء أقول قالت أغلظ لهم المهر ما استطعت فإنهم يرجعون ولا يجيبون وقد أبررت قسمك وبلغت مأربك وراعيت أضيافك قال ما أحسن ما قلت ثم خرج مبادراً فقال يا إخوتاه إن فتاة الحي قد أجابت ولكن أريد لها مهراً مثلها فمن القائم به قال عبد الله فقلت أنا القائم بما تريد فقال أريد ألف مثقال من الذهب الأحمر قلت لك ذلك قال وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر قلت لك ذلك قال ومائة ثوب من الأبراد والحبر قلت لك ذلك قال وعشرين ثوباً من الوشي المطرز قلت لك ذلك قال وأريد خمسة أكرشة من العنبر قلت لك ذلك قال وأريد مائة نافجة من المسك الأذفر قلت لك ذلك قال فهل أجبت قلت أجل ثم أجل قال عبد الله فأنفذت نفراً من الأنصار أتوا بجميع ما ضمنته وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام فأقمنا هناك نحو أربعين يوما على هذا الحال ثم قال الغطريف يا قوم خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين السلامة ثم حملها في هودج وجهز معها ثلاثين راحلة عليها التحف والطرف ثم دعناورجع فسرنا حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بني سليم فحمل عليها عتبة بن الحباب فقتل منها عدة من رجالها وردها وانحرف راجعاً وبه طعنة تفور دما حتى سقط إلى الأرض فلم يلبث عتبة أن قضى نحبه فقلنا يا عتباه فسمعت الجارية فألقت نفسها عليه وجعلت تقبله وتصيح بحرقة وتقول :

تصبّرت لا إني صبرت وإنّما . . . أعلل نفسي إنّها بك لاحقه

ولا أنصفت نفسي لكانت إلى الردى . . . أمامك من دون البريّة سابقه

فما واحدٌ بعدي وبعدك منصفٌ . . . خليلاً ولا نفسٌ لنفسٍ مصادقه

ثم شهقت شهقة واحدة قضت فيها نحبها فاخترنا لهما مكاناً وجدثا ووارياهما فيه ورجعت إلى ديار قومي وأقمت سبع سنين بعدها ثم عدت إلى الحجاز ووردت إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقلت والله

لأعودن إلى قبر عتبة فأزوره فأتيت إلى قبر فإذا عليه أوراق شجرة نابتة عليها أوراق حمر وصفر وخضر وبيض فقلت لأرباب الجهة ما يقال لهذه الشجرة فقالوا شجرة العروسين فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت .نادرة للعز بن عبد السلام

وحكي أن شخصا جاء إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي رحمه الله تعالى سلطان العلماء فقال رأيتك في المنام تنشد : وكنت كذي رجلين رجلٍ صحيحةٍ . . . ورجلٍ رمى فيها الزمان فشُلّتِ

فسكت ، ثم قال أعيش ثلاثا وثمانين سنة فإن هذا الشعر لكثير عزة وقد نظرت فلم أجد بيني وبينه نسبة فإني سنّي وهو شيعي وأنا طويل وهو قصير وهو شاعر ولست بشاعر وأنا سلمي وهو خزاعي وأنا شامي وهو حجازي فلم يبق إلا السن فأعيش مثله فكان كذلك .

نادرة للجاحظ مع معلم كتاب

ومن ظرف ما يحكى أن الجاحظ قال عبرت يوما على معلم كتاب فوجدته في هيئة حسنة وقماش مليح فقام إليّ وأجلسني معه ففاتحته في القرآن فإذا هو ماهر ففاتحته في شيء من النحو فوجدته ماهرا ثم أشعار العرب واللغةفإذا به كامل في جميع ما يراد منه فقلت قد وجب عليَّ تقطيع دفتر المعلمين فكنت كل قليل أتفقده وأزوره قال فأتيت بعض الأيام إلى زيارته فوجدت الكتاب مغلقا فسألت جيرانه فقالوا مات عنده ميت فقلت أروح أعزيه فجئت إلى بابه فطرقته فخرجت إليَّ جارية وقالت ما تريد قلت مولاك فقالت مولاي جالس وحده في العزاء ما يعطي لأحد الطريق قلت قولي له صديقك فلان يطلب يعزيك فدخلت وخرجت وقالت بسم الله فعبرت إليه فإذا هو جالس وحده فقلت أعظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وهذا سبيل لا بد منه فعليك بالصبر ثم قلت أهذا الذي توفي ولدك قال لا قلت فوالدك قال لا قلت فأخوك قال لا قلت فمن قال حبيبتي فقلت في نفسي هذا أول المناحس وقلت له سبحان الله تجد غيرها وتقع عينك على أحسن منها فقال وكأني بك وقد ظننت أني رأيتها فقلت في نفسي هذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لا رأيته فقال أعلم أني كنت جالسا وإذا رجل عابر يغني وهو يقول :

يا أمَّ عمروٍ جزاك الله مكرمةً . . . ردّي عليَّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها فلما كان بعد يومين عبر عليَّ ذلك الرجل وهو يغني ويقول :

إذا ذهب الحمارُ بأمِّ عمروٍ . . . فلا رجعت ولا رجع الحمارُفعلمت أنها ماتت فحزنت عليها وقعدت في العزاء منذ ثلاثة أيام فقال الجاحظ فعادت عزيمتي وقويت على كتابة الدفتر لحكاية أم عمرو .

الرشيد ورجل من بقايا بني أمية

ومن غريب ما يحكى ما حكاه القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة : أنّ منارة صاحب الخلفاء قال رفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه مطاع له في البلدان جماعة وأولاد ومماليك وموال يركبون الخيول ويحملون اليلاح ويغزون الروم وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة وأنه لا يؤمن من فتق يبعد رتقه فعظم ذلك على الرشيد قال الرشيد قال منارة

وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة في بعض حججه في سنة ١٨٦ وقد عاد من الموسم وبايع للأمين والمأمون والمؤتمن أولاده فدعاني وهو خال وقال أني دعوتك لأمر يهمني وقد منعني النوم فانظر كيف تعمل ثم قص علّي خبر الأموي وقال أخرج الساعة فقد أعددت لك الجائزة والنفقة والآلة ويضم إليك مائة غلام واسلك البرية وهذا كتبي إلى أمير دمشق وهذه قيود فادخل فأبدأ بالرجل فإن سمع وأطاع فقيده وجئني به وإن عصى فتوكل به أنت ومن معك وأنفذ هذا الكتاب إلى نائب الشام ليركب في جيشه ويقبضوا عليهوجئني به وقد أجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا وهذا محمل تجعله في شقة إذا قيدته وتقعد أنت في الشق الآخر ولا تكل حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها وأهله وولده وحشمه وغلمانه وقدر النعمة والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف من ألفاظه من حين وقوع طرفك عليه إلى أن تأتيني به وإياك أن يشذ عنك شيء من أمره انطلق ، قال منارة ، فودعته وخرجت وركبت الإبل وسرت أطوي المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلاً إلى أن وصلت دمشق في أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة فكرهت الدخول ليلا فنمت بظاهر البلد إلى أن فتح الباب فدخلت على هيئتي حتى أتيت دار الرجل وعليها صف عظيم وحاشية كثيرة فلم أستأذن ودخلت بغير إذن فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض غلماني فقالوا هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم فلما صرت في صحن الدار أنزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوما جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا رحبوا بي فقلت افيكم فلان قالوا لا نحن أولاده وهو في الحمام فقلت استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها قد ماجت بأهلها موجا شديداً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال واستربت به واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيت شيخاً بزي الحمام يمشي في الصحن وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان وهم أولاده وغلمانه فعلمت أنه الرجل فجاء حتى جلس فسلم علي سلاماً خفياً وسألني عن أمير المؤمنينواستقامة أمر حضرته فأخبرته كما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال تقدم يا منارة فكُلْ معنا فقلت مالي إلى ذلك من حاجة فلم يعاودني وأقبل يأكل هو ومن عنده ثم غسل يديه ودعا بالطعام فجاءوا بمائدة عظيمة لم أرّ مثلها إلا للخليفة فقال تقدم يا منارة فساعدنا على الأكل لا يزيدني على أن يدعوني بإسمي كما يدعوني الخليفة فامتنعت عليه فما عاودني وأكل هو ومن عنده وكانوا تسعة من أولاده فتأملت أكله في نفسه فوجدته أكل الملوك ووجدت جأشه رابضاً وذلك الأضطراب الذي في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون من بين يديه شيئاً قد وضع على المائدة إلا نهبا وقد كان غلمانه أخذوا المال لما نزلت الدار وجمالي وجميع غلماني بالمنع من الدخول فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدي ليس بين يدي إلا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي هذا جبار عنيد وإن امتنع علي من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا أطيق حفظه إلى أن يلحقني أمير البلد فجزعت جزعاً شديداً ورابني منه استخفافه بي في الأكل ولا يسألني عما جئت به ويأكل مطمئناً وأنا مفكر في ذلك فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا ببخور فتبخر وقام إلى الصلاة فصلى الظهر وأكثر من الدعاء والابتهال فرأيت صلاته حسنة فلما انتقل من المحراب أقبل علي وقال ما أقدمك يا منارة فقلت أمر لك من أمير المؤمنين وأخرجت

الكتاب ودفعته إليه فقرأه فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أني وقع بيفلما تكاملوا ابتدأ فحلف إيماناً غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولا يجتمع منهم إثنان في مكان واحد ولا يظهروا إلى أن يظهر لهم أمر يعملون عليه وقال هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالتوجه إليه ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة فاستوصوا بمن ورائي من الحرم خيرا وما بي حاجة من أن يصحبني غلام هات قيودك يا منارة فدعوت بها وكانت في سفط فأحضر حداداً فمد ساقيه فقيدته وأمرت غلماني بحمله في المحمل وركبت في الشق الآخر وسرت من وقتي ولم ألق أمير البلد ولا غيره فسرت بالرجل ليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة فقال لي ترى هذا قلت نعم قال أنه لي وقال إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ثم انتهى إلى آخر فقال مثل ذلك ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى سنية وقال هذه لي فاشتد غيظي منه فقلت له أعلم أني شديد التعجب منك قال ولم تعجب قلت أليس تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك وأخرجك عن جميع ما لك فريداً وحيداً مقيداً ما تدري إلى ما يصير إليه أمرك ولا كيف يكون وأنت فارغ القلب من هذا تصف ضياعك وبساتينك هذا وقد رأيتك وقد جئت وأنت لا تعلم فيم جئت وأنت ساكن القلب قليل الفكر لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً فقال لي مجيباً إنا لله وإنا إليه راجعون أخطأت فراستي فيك ظننتك رجلاً كامل العقل وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوكبذلك فإنا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم والله المستعان أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصيتي ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرا إلا بإذن الله ومشيئته ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه وبعد فإذا عرف أمري وعلم سلامتي وصلاحي وبعد ناحيتي وإن الحسدة والاعداء رموني عنده بما ليس فيَّ وتقوّلوا عليَّ الأباطيل الكاذبة لم يستحل دمي وتحلل من أذاي وإزعاجي وردني مكرما وأقامني ببابه معظماً وإن كان سبق في علم الله عز وجل أنه يبدر إليَّ منه بادرة سوء وقد حضر أجلي وكان سفك دمي على يده فلو اجتمعت الأنس والجن والملائكة وأهل الأرض وأهل السماء على صرف ذلك عني ما استطاعوه فلم أتعجل الغم وأتسلف الفكر فيما قد فرغ الله منه وإني حسن الظن بالله عز وجل الذي خلق ورزق وأحيا وأمات وأحسن وأجمل وإن الصبر والرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذا قد عرفت مبلغ فهمك فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى تفرق حضرة أمير المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى قال ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو حاجة أو ما يجري مجراها حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر والنجب قد استقبلني على فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري فحين رأوني رجعوا عني بالخبر إلى أمير المؤمنين فانتهينا إلى الباب في آخر النهار فحططتودخلت على الرشيد فقبلت الأرض بين يديه ووقفت فقال هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل منه لفظة واحدة فسقت والحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور والصلاة وما حدثت به نفسي من امتناعه والغضب يظهر في وجه الرشيد ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموي من الصلاة والتفاته ومسئلته عن سبب قدومي

ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد منهم وصرفه إياهم ومد رجليه حتى قيدته فما زال وجه الرشيد يسفر حتى أنتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخه إياي لما ركبنا المحمل قال صدق والله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة مكذوب عليه لعمري لقد أزعجناه وآذيناه وروعنا أهله فبادر ينزع قيوده عنه وائتني به قال فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد فسأله عن حاله ثم قال بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك فأذكر حاجتك فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا فقال ما لي إلا حاجة واحدة قال مقضية ما هي قال يا أمير المؤمنين تردني إلى بلدي وأهلي وولدي قال نحن نفعل ذلك إن شاء الله تعالى ولكن سل ما تحتاج إليه في مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخلوا أن يحتاج إلى شيء من هذا فقال عمال أمير المؤمنين منصفون وقد استغنيت بعدله عن مسئلته فأموري منتظمة وأحوالي مستقيمة وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أميرالمؤمنين فقال الرشيد انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك فودعه فلما ولى خارجاً قال الرشيد يا منارة أحمله من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله كما جئت به حتى إذا أوصلته إلى محله الذي أخذته منه فدعه فيه وانصرف ففعلت والله أعلم . موري منتظمة وأحوالي مستقيمة وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين فقال الرشيد انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك فودعه فلما ولى خارجاً قال الرشيد يا منارة أحمله من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله كما جئت به حتى إذا أوصلته إلى محله الذي أخذته منه فدعه فيه وانصرف ففعلت والله أعلم .

نادرة

وحكي في الكتاب المذكور قال حدثني أبو الربيع سليمان بن داود قال كان في جوار القاضي قديماً رجل انتشرت عنه حكاية وظهر في يده مال جليل بعد فقر طويل وكنت أسمع أن أبا عمر حماه من السلطان فسألته عن الحكاية فأطرق طويلاً ثم حدثني قال ورثت مالا جزيلاً فأسرعت في اتلافه وأتلفته حتى أفنيت بيع أبواب داري وسقوفها ولم يبقَ لي حيلة وبقيت مدة لا قوت لي إلى والدتي لما تغزله وتطعمني وتأكل منه فتمنيت الموت فرأيت ليلة في منامي كأن قائلاً يقول لي غناك بمصر فأخرج إليها فبكرت إلى دار أبي عمر القاضي وتوسلت بالجوار وبالخدمة وكان أبي قد خدمه اياماً وسألته أن يزودني كتاباً إلى مصر لاتصرف فيها ففعل وخرجتفلما حصلت بمصر أوصلت الكتاب وسألت التصرف فسد الله عليَّ باب الرزق حتى لم أظفر بتصرف ولا لاح لي شغل ونفدت نفقتي فبقيت متفكراً في أن أسأل الناس فلم أستبح المسئلة ولم يحملني الجوع عليها وأنا ممتنع إلى أن مضى من الليل صدر صالح فلقيني الطائف فقبض علي ووجدني غريباً فأنكر حالي فسألن فقلت رجل ضيف فلم يصدقني وبطحني وضربني مقارع فصحت وقلت أنا أصدق فقال هات فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها وحديث المنام فقال ما رأيت أحمق منك والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة في النوم كأن رجلاً يقول لي ببغداد في الشارع الفلاني في المحلة الفلانية قال فذكر شارعي ومحلتي وأصغيت فنم الشرطي الحديث فقال دار يقال لها دار فلان فذكر داري وأسمي وفيها بستان وفيه سدرة تحتها مدفون ثلاثون ألف دينار فامض وخذها فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت إليه وأنت يا أحمق

فارقت وطنك وجئت إلى مصر بسبب منام قال فقوي قلبي وأطلقني الطائف فبت في المسجد وخرجت من الغد من مصر وقدمت بغداد فقلعت السدرة وأثرت مكانها فوجدت جراباً فيه ثلاثون ألف دينار فأخذتها وأمسكت يدي ودبرت أمري وأنا أعيش من تلك الدنانير ومن فضل ما ابتعته منها من ضيع وعقار إلى الآن .من أخبار هولاكو في بغداد

. . .

وحكى أحمد بن فضل العمري في كتابه المسمى مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في ترجمة صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر المويسيقي قال ذكر العم حسن الاربلي في تاريخه قال جلست مع صفي الدين عبد المؤمن بالمدرسة المستنصرية جرى ذكر واقعة بغداد فأخبرني أن هلاكو طلب رؤساء البلد وعرفاءها وطلب منهم أن يقسموا دروب بغداد ومحالها وبيوت دوي يسارها على أمراء دولته فقسموها وجعلوا كل محلة أو محلتين أو سوقين باسم أمير كبير فوقع الدرب الذي كنت أسكنه في حصة أمير مقدم على عشرة آلاف فارس اسمه نانو نوين وكان هلاكو قد رسم لبعض الأمراء أن يقتل ويأسر وينهب مدة ثلاثة أيام ولبعضهم يومين ولبعضهم يوما واحداً على حسب طبقاتهم فلما دخل الأمراء إلى بغداد كان أول درب جاء إليه الأمير الدرب الذي أنا ساكنه وقد اجتمع فيه خلق كثير من ذوي اليسار واجتمع عندي نحو خمسين جارية من أرباب المغاني وذوات الحسن والجمال فوقف نانو نوين على باب الدرب وهو منتَّرس بالأخشاب والتراب وطرقوا الباب وقالوا افتحوا لنا وادخلوا في الطاعة ولكم الأمان وإلا أحرقنا الباب وقتلناكم ومعه النجارون وخلافهم وأصحابه بالسلاح قال صفي الدين عبد المؤمن فقلت السمع والطاعة أنا أخرج إليهففتحت الباب وخرجت وحدي عليَّ أثواب وسخة وأنا أنتظر الموت فقبلت الأرض بين يديه فقال للترجمان قل له أنت كبير هذا الدرب فقلت نعم فقال إن أردتم السلامة من الموت فأحملوا لنا كذا وكذا وطلب شيئاً كثيراً فقبلت الأرض مرة ثانية وقلت كل ما طلبه الأمير يحضر وصار كل ما في هذا الدرب بحكمك ومن تريد من خواصك فإنزل لأجمع لك كل ما طلبت فشارو أصحابه ونزل في نحو ثلاثين رجلا من خواصه فأتيت به داري وفرشت له الفرش الخليفية الفاخرة والسرر المطرزة بالزركش وأحضرت له في الحال أطعمة فاخرة وشواء وحلواء وجعلتها بين يديه فلما فرغ من الأكل عملت له مجلساً ملوكياً وأحضرت الأواني المذهبة من الزجاج الحلبي وأواني فضة فيها شراب مروق فلما دارت الأقداح وسكر قليلاً أحضرت عشر مغنيات كل واحدة تغني بملهاة غير ملهاة الأخرى فغنين كلهن فارتج المجلس وطرب وانبسطت نفسه فضم واحدة من المغنيات أعجبته فواقعها في المجلس ونحن نشاهده وأتم يومه في غاية الطيبة فلما كان وقت العصر وحضر أصحابه بالنهب والسبايا قدمت له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفاً جليلة من أواني الذهب والفضة ومن النقد ومن الأقمشة الفاخرة شيئاً كثيراً سوى العليق ووهبت له الغواني التي كان بين يديه واعتذرت من التقصير وقلت جاء الأمير على غفلة لكن غدا إن شاء الله تعالى أعمل للأمير دعوة أحسن من هذه فركب وقبلت ركابه ورجعت فجمعت أهل الدرب من ذوي النعمة واليسار وقلت لهم أنظروا لأنفسكم هذا الرجل غدا عندي وكذا بعد غد وكل يوم أزيد اضعاف اليوم المتقدم فجمعوا إلي من بينهم ما يساوي خمسينألف دينار من أنواع الذهب والأقمشة الفاخرة والسلاح فما طلعت الشمس إلا وقد

وافاني فرأى ما أذهله وجاء في هذا اليوم ومعه نساؤه فقدمت له ولنسائه من الذخائر والذهب النقد ما قيمته عشرون ألف دينار وقدمت له في اليوم الثالث لآلىء نفيسة وجواهر ثمينة وبغلة جليلة بآلات خليفية وقلت هذه من مراكب الخليفة وقدمت لجميع من معه وقلت هذا الدرب صار بحكمك وإن تصدقت على أهله بأرواحهم فيكون لك وجه أبيض عند الله وعند الناس فما بقي عندهم سوى أرواحهم فقال قد عرفت ذلك من أول يوم وهبتهم أرواحهم وما حدثني نفسي بقتلهم ولا سلبهم لكن أنت تجهز معي إلى حضرة الأمير فقد ذكرتك وقدمت له شيئاً من المستظرفات التي قدمتها إلي فأعجبته ورسم بحضورك فخفت على نفسي وعلى أهل الدرب وقلت هذا يخرجني إلى خارج بغداد ويقتلني وينهب الدرب فظهر عليَّ الخوف وقلت يا خوند هلاكو ملك كبير وأنا رجل حقير مغن أخشى منه ومن هيبته فقال لا تخف ما يصيبك إلا الخير فإنه رجل يحب أهل الفضائل فقلت في ضمانك أنه لا يصيبني مكروه قال نعم فقلت لأهل الدرب ما عندكم من النفائس فائتوني بكل ما تقدرون عليه فأخذت معي من المغنيات الجليلة ومن النقد الكثير من الذهب والفضة وهيأت مآكل كثيرة طيبة وشراباً كثيراً عتيقاً فائقا وأواني فاخرة كلها من الفضة المنقوشة بالذهب وأخذت معي ثلاث جوار مغنيات من أجلِّ من كان عندي وأنفسهن للضرب ولبست بدلة من القماش الخليفي وركبت بغلة جليلة كنت أركبها إذا رحت إلى الخليفةفلما رآني نانو نوين بهذه الحالة قال لي أنت وزير قلت لا أنا مغني الخليفة ونديمه ولكن لما خفت منك لبست القماش الوسخ ولما صرت من رعيتك أظهرت نعمتي وأمنت وهذا الملك هلاكو ملك عظيم وهو أعظم من الخليفة فما ينبغي أن أدخل عليه إلا بالحشمة والوقار . ي وركبت بغلة جليلة كنت أركبها إذا رحت إلى الخليفة فلما رآني نانو نوين بهذه الحالة قال لي أنت وزير قلت لا أنا مغني الخليفة ونديمه ولكن لما خفت منك لبست القماش الوسخ ولما صرت من رعيتك أظهرت نعمتي وأمنت وهذا الملك هلاكو ملك عظيم وهو أعظم من الخليفة فما ينبغي أن أدخل عليه إلا بالحشمة والوقار .

فأعجبه مني هذا وخرجت معه إلى مخيم هلاكو فدخل عليه وأدخلني معه وقال لهلاكو هذا الرجل الذي ذكرته لك وأشار إليَّ فلما وقعت عين هلاكو عليَّ قبلت الأرض وجلست على ركبتي كما هو من عادة التتار فقال نانو نوين هذا كان مغني الخليفة وقد فعل معي كذا وكذا وقد أتاك بهدية فقال قد قبلتها فقبلت الأرض مرة ثانية ودعوت له وقدمت له ولخواصه الهدايا التي كانت معي فكلما قدمت شيئاً منها يفرقه ثم فعل بالمأكول كذلك ثم قال لي أنت مغني الخليفة فقلت نعم فقال أي شيء أجود ما تعرف قلت أحسن أن أغني غناء أذا سمعه الإنسان ينام فقال غن لي الساعة حتى أنام فندمت وقلت إن غنيت له ولم ينم قال هذا كذاب وربما قتلني ولا بد من الخلاص منها بحيلة فقلت يا خوند الطرب بأوتار العود لا يطيب إلا بشرب الخمر ولا بأس بأن يشرب الأمير قدحين أو ثلاثة حتى يقع الطرب في موقعه فقال أنا ما لي في الخمر رغبة لأنه يشغلني عن مصالح ملكي ولقد أعجبني من نبيكم تحريمه ثم شرب ثلاثة أقداح كبار فلما أحمر وجهه أخذت عوداً وغنيته وكان معي مغنية اسمها ضياء لم يكن في بغداد أحسن منها صورة ولا أطيب منها صوتا فأصلحت أنغام العود وضربت ضروباً جالبة للنوم مع زمر رخيم الصوت وغنيت فلم أتم النوبة حتى رأيته قد نعس فقطعت الغناء بغتة وقويت ضربالأوتار فانتبه فقبلت الأرض وقلت نام الملك فقال صدقت نمت تمنَّ

علي فقلت أتمنى على الملك أن يطلق لي على السمكية قال وأي شيء هي السمكية قلت بستان للخليفة فتبسم وقال لأصحابه هذا مسكين مغن قصير الهمة وقال للترجمان قل له لم لا تمنيت قلعة أو ومدينة أي شيء هذا البستان فقبلت الأرض وقلت يا ملك العالم هذا البستان يكفيني وأنا ما يجيء مني صاحب قلعة ولا صاحب مدينة فرسم لي بالبستان وبجميع ما كان لي من الراتب في أيام الخليفة وزادني علوفة تشتمل على خبز ولحم وعليق دواب تساوي دينارين وكتب بذلك فرماناً مكمل العلائم وخرجت من بين يديه وأخذ لي نانو نوين أميراً بخمسين فارساً ومعهم علم أسود هو كان علم هلاكو الخاص به برسم حماية داري فجلس الأمير على باب الدرب ونصب العلم الأسود على أعلى باب الدرب فبقي الأمر كذلك إلى أن رحل هلاكو عن بغداد قال الأربلي فقلت له كم نابك من المغارم في الثانية قال أكثر من ستين ألف دينار وذهب أكثرها مما كان انزوى إلى دربي من ذوي اليسار والباقي من نعم موفرة كانت عندي من صدقات الخليفة فسألته عن المرتب والبستان فقال البستان أخذه مني أولاد الخليفة وقالو هذا إرث من أبينا والعلوفة قطعها عني الصاحب شمس الدين أجويني وعوضني عنها وعن البستان في السنة مائة ألف درهم .المغني الغيور

وقال كان بمدينة السلام مغن يعرف بالغيور وكان عنده من الجواري عدد كثير ذوات حسن وكان خبره فاشياً يقصده المتصون وغيره فبلغ رجلاً من الكتاب المشهورين خبره فتشوقت نفسه إلى قصده ثم تجنبته لما شهر به فحمل نفسه على أن جعل بينه وبين الرجل حالاً بأن دعاه وبرَّه ووصله وكان قصد الناس منزله آثر عندهم من دعاء من يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه قال الكاتب يسألني المصير إليه وأقشعر لشناعة لقبه إلى أن لقيني بالقرب من منزله فحلف على أن لا أفارقه فكان ذلك أن صادف مني موافقة فمضيت معه فرأيت أحسن موافقة وآلة فلما استقر بنا الجلوس قال لغلماني إذا كان في غد بكروا فجيئوا بالدواب فاستوحشت وقلت بلى يقيم بعضهم عندي ويعود الباقون ليلا للأنصراف إلى منزلي فأبى وحلف فاتبعت ما أراد فأحضر أحسن طعام وألطفه وأكلنا وأتى بأنواع الأشربة والفواكه والرياحين وأخذنا في أمرنا وخرجت وجوه كالشموس وكنت عند دخولي إلى الدار قد رأيت على بعض الأبواب طبلاً معلقاً فظننته لبعض الجواري فلم أسأل عنه فلما صرنا على حالنا وأخذ النبيذ منا أحضر عموداً فجعله بين يديه فأوحشني جداً وقلت رجل غيور كما لقب وجوار حسان ونبيذ شديد ولست آمن أن أعبث بهن فيضربني بالعمود قال أخبرك يا أخي أني رجل غيور كما قد بلغك ويحضر منزل قوم معهم سوء أدب فما هو إلا أن تغنى الجارية حتى أرىالواحد منهم قد لاحظها وضحك في وجهها وضحكت في وجهه فأقول أقوم بهذا العمود فإنما هي ضربة له وضربة لها فأقتلهما وأستريح إلا أني على ما ترى رجل معي تأن شديد فأقول شرب الرجل فسر وضحك ولعله بعد يعرفها وتعرفه فضحكت إليه وضحك إليها قال فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسي وأصغيت إلى حديثه فقلت ثم ماذا قال ثم إن الأمر يزيد حتى أراه قد دنا فسارَّها وسارته فتقوم عليَّ القيامة وأقول ضحك إليها وضحكت إليه للمعرفة فما وضع السر ثم أهم بالعمود والتأني الذي فيَّ يقول لعله طالبها بصوت تغنيه فأمسك فلا يطول الأمر بينهما حتى أراه قد أدخل يده في ثوبها فقرصها وعبث بثديها فتداخلني الغيرة وأقول ما بعد هذا شيء وأهم بضربهما بالعمود لكن على ما ترى عندي تأن فأقول بعد لم

يبلغ الأمر بهما إلى القتل وهي أوائل وسيكون لها أواخر فإن أتى بما يوجب القتل قتلتهما فاسترحت فأمسك فيطول الأمر حتى أرى الواحدة قد قامت وقام الرجل في أثرها فيدخلان ذلك البيت وبابه وثيق جداً فأسعى خلفهما بهذا العمود لأقتلهما البتة فيسبقاني فيغلقان الباب وأبقى أنا خارجه وأنا غيور كما قد علمت فأقول متى علمت حركتهما مت أو قتلت نفسي فلا يكون والله يا أخي لي إعتصام إلا بذلك الطبل المعلق فأتناوله وأضعه في عنقي فلا أزال أضرب أبداً حتى يخرجا قال فما قمت والله وأنا أرى أوفى منه قولا وفعلا .

جميلة الموصلية في حجها

قال صلاح الدين الصفدي في الجزء الخامس والثلاثين من التذكرة ومن خطه نقلتحجَّت جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان أخت أبي ثعلب سنة ست وثمانين وثلثمائة فسقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج واستصحبت البقول المزروعة في المواكب وعلى الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار لم تستصبح عندها وفيها إلا بشموع العنبر واعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية وأغنت الفقراء والمجاورين .

عبد الله بن جعفر في موسم الحج

وحج عبد الله بن جعفر ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه بثلاثين ألفا وقال أعتقهم لله تعالى لعل الله أن يعتقني من النار .

وكان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه .دعاء عمرو بن زر في الكعبة

عمر بن زر الهمداني لما قضى مناسكه أنسد ظهره إلى الكعبة الشريفة ثم قالت مودعاً للبيت ما زلنا نحل لك عروة ونشد أخرى ونصعد أكمة ونهبط وادياً وتخفضنا أرض وترفعنا أخرى حتى أتيناك غير محجوبين فليت شعري بم يكون منصرفنا أبذنب مغفور فأعظم بها من نعمة أم بعمل مردود فأعظم بها من مصيبة فيا من إليه خرجنا وإليه قصدنا وبحرمه أنخنا أرحم إملاق الوفد لغناك فقد أتيناك بعيسنا معراة جلودها ذابلة أسنتها نقبة أخفافها وإن أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتفينا الغيبة اللهم وإن للزائرين حقا فأجعل حقنا غفران ذنوبنا فإنك جواد ماجد لا ينقصك نائل ولا يخصبك سائل .

عجائب المخلوقات

ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدي من الجزء الثامن والثلاثين من تذكرته ما صورته نقلت من خط شيخنا الشيخ الإمام الحافظ علم الدين البرزلي رحمه الله تعالى ما صورتهقرأت في بعض الكتب الواردة من القاهرة المحروسة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادي الآخرة في سنة اثنين وسبعمائة ظهرت دابة عجيبة من بحر النيل إلى ارض المنوفية صفة لونها لون الجاموس بلا شعر وآذانها كآذان الجمال وعيناها وفرجها مثل الناقة يغطي فرجها ذنب طوله شبر ونصف طرفه كذنب السمكة ورقبتها مثل غلظ التيس المحشو تبناً وفمها وشفتاها مثل الكربال ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل طولهن دون الشبر وعرضهن أصبعين وفي فمها ثمانية واربعون ضرساً وسناً مثل بيادق الشطرنج وطول يدها من باطنها إلى

الأرض شبران ونصف ومن ركتبها إلى حافرها مثل بطن الثعبان أصغر مجعد ودور حافرها مثل السكرجة بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل وعرض ظاهرها مقدار ذراعين ونصف وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما وفي بطنها ثلاث كروش ولحمها أحمر زفرته مثل السمك وطعمه كطعم الجمل وغلظ جلدها أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف وحمل جلدها على خمسة جمال في مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل وأحضروه إلى القلعة المعمورة بحضرة السلطان وحشوه تبنا وأقاموه بين يديه .

ونقلت منه أيضاً كُتب إلى زين الدين الرحبي أنه وجد بالقاهرة بالقرب من المشهد كلبة ميتة ولها جروان يرضعان مقدار عشرين يوما بعد موتها ويلعبان حولها واللبن يخرج من أبزازها من الجانب الأعلى وأما الجانب الأسفل فإنه يبس وكان الناس يمرون بها ويتعجبون فسبحان من لايعجزه شيء وهو على كل شيء قدير .وذكر الشيخ في حوادث سنة ٧٢٦ قال قال شيخنا علم الدين رحمه الله تعالى نقلت من خط الصدر بدر الدين الفرازي قال في السابع من ذي الحجة سنة ٧٢١ أخبرني شخص أن كلبة ولدت بالقاهرة ثلاثين جرواً وأنها أحضرت بين يدي السلطان فلما رآها عجب من أمرها وسأل المنجمين عن ذلك فأعترفوا أنهم ليس لهم علم بذلك .

من أخبار معن بن زائدة

يحكى أن المهدي خرج يتصيد فلقيه الحسين بن مطير الأسدي فأنشده :

أضحت يمينك من جودٍ مصوّرةً . . . لا بل يمينك منها صورة الجودِ

من حسن وجهك تضحي الأرض مشرقةً . . . ومن بنانك يجري الماء في العود

فقال المهدي كذبت يا فاسق وهل تركت في شعرك موضعاً لأحد مع قولك في معن بن زائدة :

الَّما بمعنٍ ثم قولا لقبره . . . سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا

فيا قبر معنٍ كنت أول حُفرةٍ . . . من الأرض خطَّت للمكارم مضجعا

ويا قبر معنٍ كيف واريت جوده . . . وقد كان منه البرُّ والبحر مترعا

ولكن حويت الجود والجود ميّتٌ . . . ولو كان حيّا ضقت حتى تصدّعا

وما كان إلاّ الجود صورة وجهه . . . فعاش ربيعاً ثم ولىّ فودّعافلما مضى معنٌ مضى الجود والندى . . . وأصبح عرنين المكارم أجدعا

فأطرق الحسين وقال يا أمير المؤمنين وهل معن إلا حسنة من حسناتك فرضي عنه وأمر له بألفي دينار .

قال سعيد بن مسلم لما ولّى المنصور معن بن زائدة أذربيجان قصده قوم من أهل الكوفة فلما صاروا ببابه استأذنوا عليه فدخل الآذن فقال أصلح الله الأمير وفد من أهل العراق قال من أي أهل العراق قال من الكوفة قال ائذن لهم فدخلوا عليه فنظر إليهم معن في هيئة مزرية ووثب على أريكته وأنشد يقول :

إذا نوبةٌ نابت صديقك فاغتنمْ . . . ترقُّبها فالدهر بالناس قالبُ فأحسنُ ثوبيك الذي هو لابسٌ . . . وأفره مهريك الذي هو راكب

وبادرْ بمعروفٍ إذا كنت قادراً . . . زوال اقتدارٍ فهو عنك يعاقب

قال فوثب إليه رجل من القوم فقال أصلح الله الأمير ألا أنشدك أحسن من هذا قال لمن قال لابن عمك

هرمة قال هات فأنشد يقول :

والنفس تاراتٌ تحلّ بها العرى . . . وتسخو عن المال النفوس الشحائحُ

إذا المرء لم ينفعك حيًّا فنفعه . . . أقلّ إذا ضمّت عليه الصفائح

لأيّة حالٍ يمنع المرء ماله . . . غداً فغداً والموت غادٍ ورائح

فقال معن أحسنت والله وإن كان الشعر لغيرك يا غلام اعطهم أربعة آلاف يستعينون بها على أمورهم إلى أن يتهيأ لنا فيهم ما نريد فقالالغلام اجعلها دنانير أم دراهم فقال معن والله لا تكون همتك أرفع من همتي .

مدح مطيع بن أياس معن بن زائدة فقال له معن إن شئت مدحتك وإن شئت أثنيتك فاستحي من اختيار الثواب وكره اختيار المدح فقال :

ثناءٌ من أميرٍ خيرُ كسبٍ . . . لصاحب مغنمٍ وأخي ثراءِ

ولكنَّ الزمان برى عظامي . . . وما مثل الدراهم من داوء

فأمر له بألف دينار .

ولما قدم معن بن زائدة أتاه الناس فأتاه ابن جحفة فإذا المجلس غاص بأهله فدق بعصاه الباب ثم قال :

وما أحجم الأعداء عنك تقيَّةً . . . عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا

له راحتان الجود والحتف فيهما . . . أبا الله إلا أن يضرَّ وينفعا

فقال معن تحكم يا أبا السمط فقال عشرة الاف فقال معن ونزيد له ايضاً .

أتى أعرابي إلى معن بن زائدة ومعه نطع فيه صبي حين ولد فاستأذن عليه فلما دخل جعل الصبي بين يديه وقال :

سَمَّيَت معناً بمعنٍ ثم قلت له . . . هذا سميُّ فتىً في الناس محمودِأنت الجواد ومنك الجود نعرفه . . . ومثل جودك فينا غير معهودِ

أمست يمينك من جودٍ مصوّرةً . . . لا بل يمينك منها صورة الجود

قال كم الأبيات : قال ثلاثة قال أعطوه ثلثمائة دينار ولو كنت زدتنا لزدناك قال حسبك ما سمعت وحسبي ما أخذت .

انتقام من حاسد

أخبرنا الشيخ الجليل العدل الأصيل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن غانم بن وافد المهدي قال أخبرنا المشايخ الثلاثة الإمام فخر الدين أبو الحسن علي ابن أحمد بن عبد الواحد البخاري وأبو العباس أحمد بن شيبان بن ثعلب الشيباني وأم حميد زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحراني قال أخبرنا أبو حفص عمر بن عمر ابن محمد بن أبي نصر الحميدي قال أنشدني أبو غالب محمد بن سهل النحوي الواسطي المعروف بابن شبران بواسط قال أنشدني الأمير أبو الهيجاء محمد بن عمران بن زريق الكاتب البغدادي لنفسه هذه القصيدة إلى آخرها وقد أنشدنيها جماعة بالمغرب وقال لي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد وغيره يقال من تختم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف وهي :

لا تعذليه فإنّ العذل يوجعُهُ . . . قد قلت حقّاً ولكنْ ليس يسمعُهُ

جاوزتِ في لومه حدًّا أضرَّ به . . . من حيثُ قدّرتِ أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً . . . من عنفه فهو مُضنى القلب موجعُهُ
قد كان مضطلعاً بالبين يحمله . . . فضُلِّعت بخطوب البيت أضلعُه
يكفيه من لوعة التفنيد أنَّ له . . . من النَّوى كلَّ يومٍ ما يروِّعُهُ
ما آبَ من سفرٍ إلاَّ وأزعجَهُ . . . رأيٌ إلى سفرٍ بالرغم يتبعُهُ
كأنّما هو في حِلٍّ ومُرتَحَلٍ . . . موكّلٌ بفضاء الأرض يذرعه
إذا الزماع أراه بالرحيل غنىً . . . ولو إلى السدّ أضحى وهو يزمعه
تأبى المطامع إلاّ أنْ تجشّمه . . . للرزق كدًّا وكم ممّن يودعه
وما مجاهدةُ الإنسان واصلةٌ . . . رزقاً ولا دِعةُ الإنسان تقطعه
والله قسّم بين الناس رزقَهُمُ . . . لم يخلقِ الله مخلوقاً يضيّعه
مسترزقاً وسوى الغايات تقنعه
لكنّهم ملؤوا حرصاً فلست ترى . . . بغيٌ إلا إنّ بغيَ المرءِ يصرعه والحرص في الماء والارزاق قد قسمت .
. . بغي الا ان بغي المرء يصرعه
والدهرُ يعطي الفتى ما ليس يطلُبُهُ . . . حقّاً ويطعمُهُ من حيث يمنعه
أستودع الله في بغداد لي قمراً . . . بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودّعته وبودّي لو يودّعني . . . طيبُ الحياة وأنيّ لاأودعه
كم قد تشفّع بي أنْ لا أفارقه . . . وللضرورات حالٌ لا تشفِّعه
وكم تشبّث بي يوم الرحيل ضحىً . . . وأدمعي مستهلاتُ وأدمعه
لا أكذبُ الله ثوبُ العذر منخرقٌ . . . عنيّ برقته لكنْ أرقّعه
إنيّ أوسَّع عذري في جنايته . . . بالبين عنه وقلبي لا يوسّعه
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته . . . كذاك من لا يسوس الملك يخلعُهُ
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا . . . شكر عليه فإنّ الله ينزعه
اعتضت من وجه خلّي بعد فرقته . . . كأساً تجرع منها ما أجرعه
كم قائلٍ لي ذنبُ البين قلت له . . . الذنب والله ذنبي لست أدفعه
إلاَّ أقمت مكان الرشد أتبعه . . . لو أنني يوم بان الرشد أجمعه
أن لا أقطّع أياماً وأنفذها . . . بحسرةٍ منه في قلبي تقطّعه
بمن إذا هجع النّوام بتُّ به . . . بلوعةٍ منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن بجنبي مضجعٌ وكذا . . . لا يطمئن له مذْ بنت مضجعه
ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني . . . به ولا أظنُّ بيَ الأيام تفجعه
حتى جرى البين فيما بيننا بيدٍ . . . عسراء تمنعني حظّي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعاً فرقا . . . فلم أوقّ الذي قد كنت أجزعه

بالله يا منزل الأنس الذي درست . . . آثاره وعفت مذ بنت أربُعُه
هل الزمان معيدٌ فيك لذّتنا . . . أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله . . . وجاد غيثٌ على مغناك يمرعه
من عِنده ليَ عهدٌ لا يضيع كما . . . عندي له عهدُ ودٍّ لا أضيّعه
ومن يصدّع قلبي ذكره وإذا . . . جرى على قلبه ذكري يصدّعه
لأصبرن لدهرٍ لا يمتّعُني . . . به ولا بيَ في حالٍ يمتّعه
علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً . . . فأضيق الأمر إن فكّرتُ أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا . . . جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن تنل أحداً منّا منيته . . . فما الذي بقضاء الله يصنعه

يحكى أنه وقع في ليلة الجمعة خامس عشر المحرم سنة ٨٣١ أن حضرت صلاة العشاء بالجامع النووي بحماة فتقدم إمامه للصلاة بعد الإقامة وكبر تكبيرة الافتتاح وقرأ دعاء الإفتتاح والفاتحة ثم قرأ ألم السجدة ولما أتى على آية السجدة سجد ثم أتمها إلى آخرها وركع وسجد السجدتين ثم قام إلى الركعة الثانية وقرأ الفاتحة ثم قرأ سورة النحل وبني إسرائيل والكهف ومريم وجانبا من طه فأرتجَّ عليه فركع ثم اعتدل واقفاً ثم سجد السجدتين وتشهد وسلم على رأس الركعتين . حكى الدينوري في المجالسة في ترجمة أبي عبد الله سعيد بن يزيد البناجي قال سمعت أبي يقول قال : قال خالي أحمد بن محمد بن يوسف سمعت محمد بن يوسف يقول كان أبو عبد الله البناجي مجاب الدعوة وله آيات وكرامات ، بينما هو في بعض أسفاره إما حاجاً وإما غازياً على ناقة وكان في الطريق رجل عائن قلَّما ينظر إلى شيء إلا أتلفه وأسقطه وكان ناقة أبي عبد الله ناقة فارهة فقيل له إحفظها من العائن فقال أبو عبد الله ليس له إلى ناقتي سبيل فأخبر العائن بقوله فتخيَّر غيبة أبي عبد الله فجاء إلى رحله وعان ناقته فاضطربت وسقطت تضطرب فأتى عبد الله فقيل قد عان ناقتك وهي كما تراها تضطرب قال دلوني على العائن فدل عليه فقال بسم الله حبس حابس وحجر يابس وشهاب قابس رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس إليه في كليتيه رشيق وفي ماله يليق فإرجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجعالبصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير فخرجت حدقة العائن وقامت الناقة لا بأس بها .

ترتيب أسماء الولائم

وله في أسماء الولائم :

وليمة أعراسٍ وخرس ولادة . . . عقيقة مولودٍ نقيمة قادم
وخيمة حزنٍ والبناء وكيرةُ . . . عذيرة ختنٍ مأدبات المكارم

أسماء أيام العجوز على الترتيب

وله أيضاً في أسماء أيام العجوز على الترتيب :

بصنٌ وصنبرٌ ووبرٌ معللٌ . . . بمطفىء جمرٍ آمرٌ نعم مؤتمر
تولّت عجوزٌ ثم أعقب بعدها . . . شبابُ ربيعٍ زهره يانعُ نضر

ولغيره في أسماء خيل الحلبة :

ترتيب أسماء خيل الحلبة

سبق المجلّي والمصلّي والمسلّي . . . بعد تاليه ترى المرتاحاوبعاطفٍ وبفسكلٍ وحطيَّة . . . حَلْبُ اللطيم على الكميتِ صباحا

تعريفات للحاجب والعين والفم

البلج هو أن يقطع الحاجبان فلا يكون بينهما تضام للشعر وكان العرب تمدح البلج ويقال رجل أبلج وامرأة بلجاء .

ثم العين فجملة العين المقلة وهي الشحمة التي تجمع البياض والحدقة والناظر هو موضع البصر وفيه الإنسان والإنسان ليس بخلق له حجم والحجم ما وجدت مسه والعين كالمرآة إذا استقبلتها بشيء رأيت شخصه فيها وفيها الناظران وهما عرقان على حرف الأنف يسيلان من الموقين إلى الوجه وفيها الأجفان وهي غطاء المقلة من أعلى وأسفل وفيها الأشفار وهي حروف الأجفان التي تلتقي عند الغمض الواحد شفر والشفر الذي ينبت فيه الهدب الواحد هدب فإذا طالت الأهداب قيل رجل أهدب وامرأة هدباء ورجل أوطف وامرأة وطفاء وكذلك أذن هدباء إذا كانت كثيرة الشعر ووطفاء دليل على الطول والمحجر ما خرج من النقاب من الرجل والمرأة من الجفن الأسفلوفي العين الحماليق والواحد حملاق والحماليق النواحي وفيها اللحاظ وهي في مؤخرها الذي يلي الصدغ والموق طرفها الذي يلي الأنف وهو مخرج الدموع وفي العين الحوص وهو ضيق في مؤخرها يقال رجل أحوص امرأة حوصاء وفيها النجل وهو سعة العين وعظم المقلة وكثرة البياض وفيها الخنس وهو ضعف في النظر وفيها الكحل وهو سواد العين بين الحمرة والسواد والشهل أن يشوب سوادها زرقة يقال رجل أشهل وامرأة شهلاء ويقال نظر إليَّ شزراً وذلك إذا نظر عن يمينه أو عن شماله ولم يستقبله بنظره في النظر والإغضاء وهو أن يطبق جفنه على حدقته فيقال رايته مغضياً .

ثم الفم وفي الفم الثنايا والرباعيات والضواحك والأرحاء والنواجذ فالضواحك أربعة أضراس تلي الأنياب إلى جنب كل باب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك وأما الأرحاء فهي ثمانية أضراس من أسفل الفم وأعلاه وفي الظلم ساكن وهو ماء الأسنانوفي الأسنان الشنب وهو برد وعذوبة في المذاق والفلج تباعد ما بين الأسنان .

ثم اللثة هو اللحم تنبت فيه الأسنان وفي اللثة اللمى وهو سمرة تضرب إلى سواد وكذلك الحوة واللهاة واللحمة الحمراء المعلقة على الحنك

كتابة المصحف على خوصة

نقلت من الجزء الثالث والعشرين من التذكرة للصفدي أن شهاب الدين أحمد الحموي النقاش ورد إلى القاهرة سنة ٧٣٢ وكتب الختمة الشريفة على خوصة من أولها إلى آخرها مفصلة الأجزاء والسور أخبرني بذلك الموالي السادة الموقعون بالباب الشريف وقدمها لمولانا السلطان الملك الصالح وسألته عن مولده فقال في سنة ٦٩٩ وله نظم رائق .من مأثور حكم الإمام علي

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : عشر تورث النسيان : كثيرة الهم ، الحجامة في النقرة ، والبول في

الماء الراكد ، وأكل التفاح الحامض ، وأكل الكسفرة ، وأكل سؤر الفأرة ، وقراءة ألواح القبور ، والنظر إلى المصلوب ، والمشي بين العطارين ، وإلقاء القملة حية . والله أعلم . هذا آخر التذييل .

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين